

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01030 5070

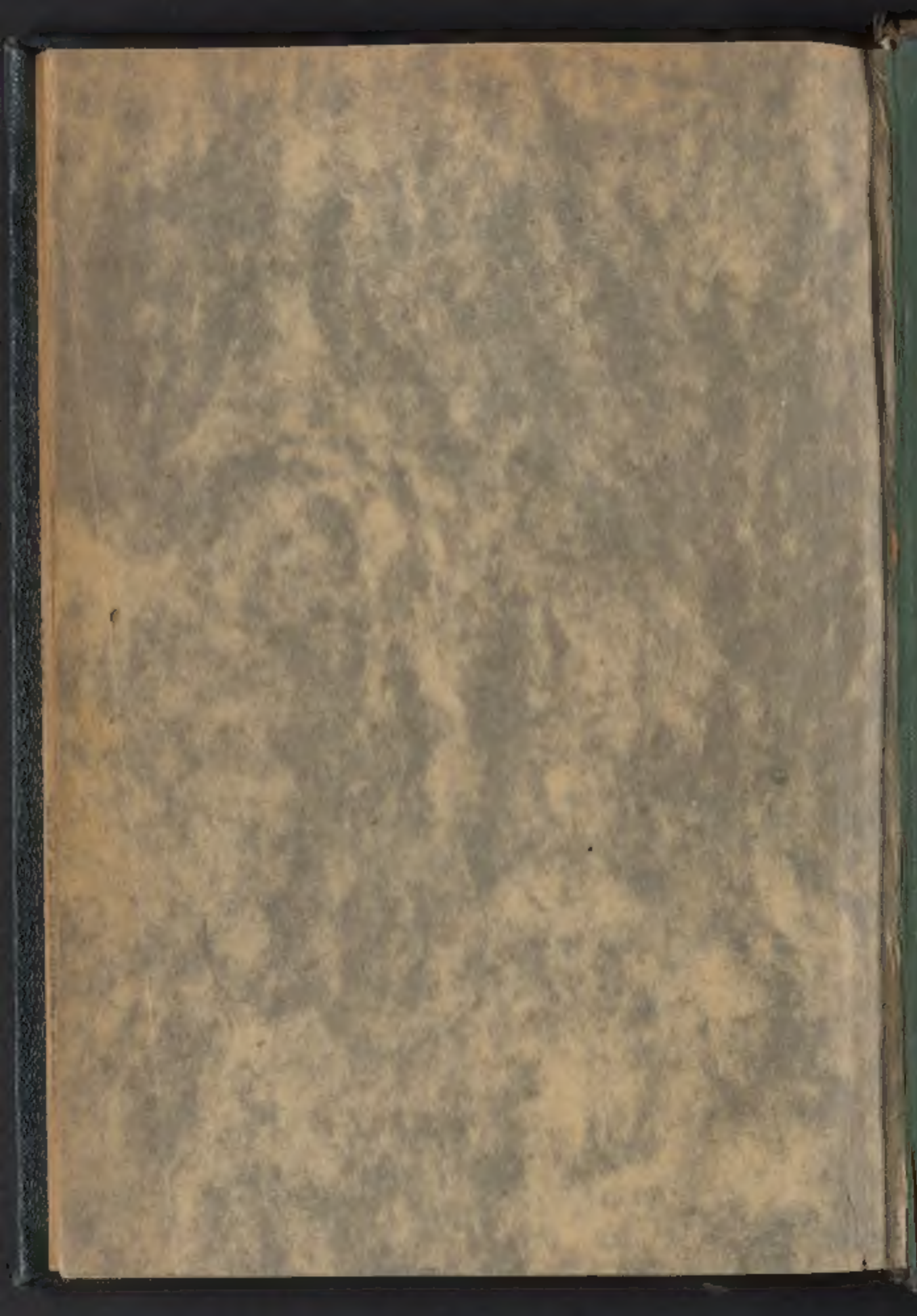
S  
W



FROM THE  
LIBRARY OF  
THE  
AMERICAN UNIVERSITY  
IN  
CAIRO

من مكتبة  
الجامعة الأمريكية بالقاهرة





Y

ال

# حياة المجتمعات

«٦»

GT  
99  
W3X  
U-2

## غرائب النظم والتقاليد والعادات

تأليف

الدكتور علي عبد الواحد وافي

دكتور في الآداب من جامعة باريس  
عضو الجمع الدولي لعلم الاجتماع  
رئيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية  
بجامعة القاهرة سابقا

### الجزء الثاني

مستند الطبعة والنسخة

مكتبة النهضة المصرية بالجيزة

١٨ شارع كامل صديق



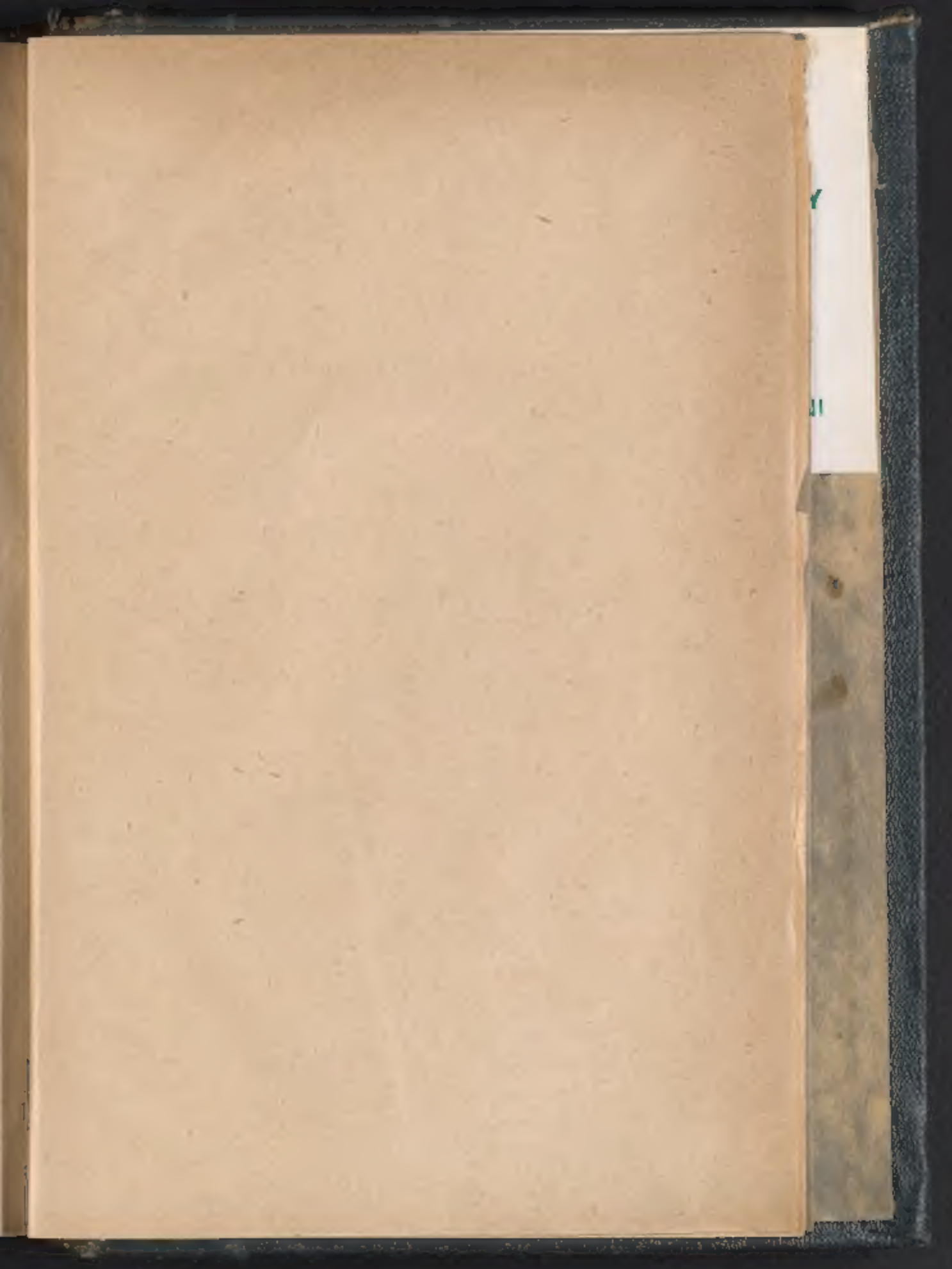


١٩٠  
٩٠١٧  
٢٩

٠٤٧٣٢

## الباب الخامس

من غرائب الانحراف في الغرائز  
تحت تأثير النظم والتقاليد والعادات





# الفصل الأول

## أكل لحوم البشر

### (الانحراف في غريزة الغذاء)

- ١ -

مدى انتشار هذه العادة  
واختلاف مظاهرها وطرائقها باختلاف الشعوب

انتشرت هذه العادة لدى عدد كبير من الشعوب البدائية وغيرها ، وخاصة في جنوب أفريقيا وغربها ووسطها ( السكنفو البلجيكية والفرنسية وأفاسي السودان الجنوبي وخاصة في عشائر نيام نيام Niams - Niama )<sup>(١)</sup> ، ولدى طائفة من عشائر السكان الأصليين لأستراليا وأمريكا وخاصة أمريكا الجنوبية والوسطى ، وطائفة من عشائر السكان الأصليين الأرخييل الملايو وميلانيزيا وبولينزيا وأندونيسيا وبعض شعوب آسيا. ونوجد أدلة كثيرة على أن هذه العادة كانت منتشرة في بعض المناطق الأوربية كذلك .

(١) عشائر نيام — نيام أو زندي Niams - Niama, ou Nyams - Nyams ou Zandé . يبلغ عدد أفرادها زهاء مليونين اثنين يسكنون السودان الشرقي بين النيل والسكنفو وبحيرة تشاد . ويعتزون بشهورهم العادة الجمدة ، ومول فامتهم وأطرافهم السفلى . وقد ظن بعض الرحالة أن لهم ذيو لا ، لأنهم كانوا يسرقون عوراتهم بجلود تتدل من أطرافها الخلفية قطع مبرومة ملوثة تشبه القبول وتبدو كأنها جزء من جسم الإنسان . وهم يسكنون الغابات ، ونتجه قسما يسير من نشاطهم إلى الزراعة ، أما معظمه فينتجه إلى الصيد وصناعة الفخار والسلال والخناجر والسوف والحرايب . وكان لحم البشر من أذكى اللحوم لديهم . ولكن يظهر أنهم قد أقاموا الآن من هذه المادة أو قلت رغبتهم في هذا النوع من الطعام .

وقد اختلفت طرائقها ومظاهرها اخلاقا كبيرا باختلاف الشعوب التي  
أخضت بها .

ففي بعضها كان يؤكل جميع أجزاء الجسم الإنساني ماعدا العظام ؛ بينما كان  
آخرون لا يأكلون إلا أجزاء خاصة من الجسم كالقلب والكبد والكلية .

وفي بعضها كان يقتصر على جثث المتوفين والمختضرين من الناس ، بينما كان  
آخرون يفترون كذلك الأحياء أنفسهم ويأكلون لحومهم .

وفي بعضها كان يقتصر على أكل جنس الذكور أو جنس الإناث ، أو على أكل  
الآدمي في مرحلة خاصة من مراحل العمر كالطفولة والشيخوخة ؛ بينما كان آخرون  
لا يفرقون بين جنس و جنس ولا بين مرحلة وأخرى .

وفي بعضها كان لا يسمح بأكل لحم البشر إلا للذكور ، أما الإناث فكان  
هذا النوع من الطعام محرما عليهن إلا في حالات خاصة حددتها التقاليد ، وفي بعضها  
كان لا يسمح بذلك إلا للمجانز من الذكور والإناث ؛ ولكن عند معظم آكلي  
لحوم البشر كان ذلك مباحا للجنسين على السواء في مختلف مراحل العمر .

وفي بعضها كان يقتصر على أكل لحوم الأعداء وأمرى الحرب والأجانب  
عن القبيلة ؛ وفي بعضها كان يقتصر على أكل لحوم الأقرباء ؛ وفي بعضها كان  
القائمين أن يكون الماء كحل من الأجانب مع جواز أن يكون من غيرهم ؛ وفي بعضها  
كان الغالب والأفضل أن يكون الماء كحل من الأقرباء مع جواز أن يكون  
من الأجانب ؛ بينما كان آخرون لا يفرقون بين قريب وبعيد ، ولعل أشد هؤلاء  
غرابية هم الذين كانوا يقتصرون على أكل لحوم الأقرباء . ومن أظهر أمثلتهم عشائر  
البنغال وطائفة من قبائل السكان الأصليين لأستراليا . ففي عشائر البيرهور  
Birhora في البنغال ( المناطق الوسطى من الهند ) كان لا يؤكل لحم العدو  
ولا الأجنبي ، وإنما كان يقتصر على أكل من يصل إلى مرحلة الشيخوخة  
من الأقرباء . وفي بعض العشائر الأسترالية كان يقتصر على أكل المتوفى

من الأفرباء . وفي عشائر الدييري Dieyerie الأسترالية كان لا يؤكل كذلك إلا لحوم المتوفين من الأفرباء . ولكن بحسب نظام خاص يحدد فريضة الآكل من الماء كقول . فمكات الأمهات يأكلن لحوم أولادهن ، والأولاد لحوم أمهاتهم ، وأخو الزوجة وزوجها يأكل كلاهما الآخر عقب وفاته ، وأخت الزوج وزوجته تأكل كلاهما الأخرى ... ووضع لعير هؤلاء من الأفرباء كالاعمام والأحوال وأولاد الأخ وأولاد الأخت والأجداد والجذات والأعمام نظم أخرى تحدد الآكلين منهم والمأكلين . وما كان يسمح لغير من حددته هذه النظم أن يأكل جثته متوفى من أقربائه . فما كان يسمح مثلاً لأب أن يأكل أحد أولاده ، ولا لأحد من الأولاد أن يأكل جثته أياً

وفي بعض هذه الشعوب يبدو هذه العادة طبعاً أصيلاً من طبائع أممها ؛ وفي بعضها ما كان يلجأ إلى ذلك إلا في سبب انجاعات والجذبة ؛ بينما كان آخرون لا يمارسون هذه العادة إلا في مناسبات خاصة كالمناسبات الدينية وما إليها

### أسباب هذه العادة وما ترمى إليه

وقد نشأت هذه العادة أو تطورت عند بعض الشعوب نتيجة لعدم وجود عداة حيوان آخر أو لندرة هذا النوع من المداة أو لحدوث قحط أو مجاعة . فتوالى المجاعات وإفقار المنطقة من عداة حيوانى كاف هو الذى أدى في نظر الرحالة إليهم Ellis - إلى نشأة هذه العادة لدى السكان الأصليين في جزر بحار الجنوب Iles des mers du sud ( بوليزيا ) . وفي عشائر السوكاهيفي Naukahiviens ( أستراليا ) كان يقتصر في الآوثة العاديّة على أكل جثث من يقتل من الأعداء في أثناء الحروب ؛ ولكنهم كانوا في سبب المجاعات القاسية يقتلون نساءهم وأولادهم ويأكلون لحومهم . ولوحظ كذلك لدى بعض القبائل في شمالي آسيا وغربها ولدى قبائل الهودو الحمر التي تسكن شمالي البحيرة العليا



Lac Supérieur (أمريكا الشمالية) أنه لا يلجأ إلى أكل لحوم البشر إلا في سنن  
المجاعات وفي أوقات الحصار الحربي. وحيث قد تدعو الضرورة الآباء أنفسهم  
إلى أكل لحوم أولادهم.

ولوحظ كذلك أن بعض عشائر الإسيكمو التي تسكن سواحل خليج هدسون  
لم تنجأ إلى أكل لحوم البشر إلا بعد أن أصيبت بسنن مجاعة وقطعت شديدين وبعد  
أن أكلت جميع مالهيا من كلاب وملابس وجلود.

وقد وصف الرحالة المؤرخ الطبيب العربي الشهير عبد اللطيف البغدادي في كتابه  
الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر، (وهو  
وصف لرحلته إلى وادي النيل في نهاية القرن السادس الهجري ونهاية القرن  
الثاني عشر الميلادي) ما شاهده من مظاهر المجاعة التي ألمت بمصر فيما بين سنتي  
٥٩٥ و ٥٩٨ هـ (١١٩٨ - ١٢٠١ م) فقد ذكر أن الفقراء، لشدة المجاعة عليهم،  
كانوا ينبشون قبور الموت ويلتهمون جيفهم، وكانوا يقتلون أولادهم ويأكلون  
لحومهم، وأن هذه المظائع كانت لغرابتها في مبدأ الأمر موضع دهشة الناس  
وحديثهم الذي لا ينقطع في غدوم ورواحهم وساعات عملهم وسمرهم. ولكن  
لم يلبث المصريون، لامتداد المجاعة لديهم وطول مآسئهم لأكل لحوم البشر،  
أن أصبحت هذه المظائع أمورا عادية، بل أخذ كثير من الناس يجنون  
لذة في هذا النوع من اللحوم، فأصبحت لحوم الأطعمال من أزكى أنواع الطعام  
عند كثير من الطوائف، وأصبحت تؤكل للذة لا لضرورة المجاعة، واخترع  
الناس طرقا عديدة لطهو هذه اللحوم وسلقها وشبها وتقديدها وتعبئتها وحفظها  
في التوابل. وانتشر ذلك في جميع أرجاء البلاد حتى لم يبق قرية من قرى مصر  
لم يصب فيها أكل لحوم البشر أمرا مألوفا. وحيث اقتطع حديث الناس عن ذلك.  
ولم تتر هذه الأعمال لديهم تفورا ولا اشتزازا، ولم تعد مقصورة على الفقراء  
والمعوزين من الناس، بل إن كثيرا من أغنياء القوم أنفسهم الذين كان من الميسور  
لديهم الحصول على أطعمة أخرى كانوا يؤثرون اللحم البشري، ويعتبرونه من

مظاهر الترف والابهة . بل لقد كانوا يستأجرون بعض المجرمين والسفاحين ليصيدوا لهم الأطفال والشبان لتزدان موائدهم بلحومهم . وكان أرق ما يقيمونه من مآذب هي المآذب التي يقدمون فيها هذا الصنف العاخر من اللحوم ، وكانوا لا يكتفون عن أصدقائهم من المدعوين حقيقة الأمر ، بل كانوا يفخرون بذلك ويمدونه بمبالغة في الحماية بالمدعوين وفي إكرامهم . ويختم حديثه هذا بقوله .  
« ولو أخذنا نفص كل ما نرى ونسمع لوقفنا في التهمة أو في الهذر . وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم تنقصه ولا تبقينا مقلناه ؛ وإنما هو شيء صادقناه انما ؛ بل كثيراً ما كنت أفر من رؤيته لشاعة منظره . »

ويصف المقرري في كتابه « إغاثة الامة » ، بكشف العممة (١) ، إحدى الجماعات التي حدثت في مصر في أيام المستنصر (خامس الخنساء - العاطمين في مصر ٤٢٧ - ٤٨٧ = ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) واستمرت نحو سبع سنين كان أشدها وطأه سنتي ٤٥٩ و ٤٦٠ هـ ، فيذكر أنه قد استولى الجوع ، وأكل الناس القطط والكلاب ، واختطف الإنسان من الطرقات ليؤكل ، فوقب الناس في الطرقات يأكلون من ظفروا به ، ويخطمون الآدميين بالكلاليب ، ويسع لحم الإنسان عند الجزارين ، وأكل الناس الجيف وأكل بعضهم بغلة الوزير نفسه ، فلما شفق الذين انهموا ما كلفا لم يتورع الناس عن أكل جثثهم تحت ظلام الليل .  
ولكن شعوباً أخرى كثيرة ظهر لديها أكل لحوم البشر في صورة عادة أصيلة غير مرتبطة بقط أو جماعة أو ندرة في الغذاء الحيواني . فكان الإنسان عندها في عداد الحيوانات ما كولة اللحم ، بل كان عدد كثير منها من أركى هذه الحيوانات طعاماً ، وألدها مداقاً . فقبايل الفيدجيين Fidiens ( تسكن أرخبيل

(١) تناول المقرري في هذا الكتاب تاريخ الجماعات في مصر وأسسها ، وذكر منها ستاً وعشرين جماعة وقع منها قتل الإسلام صحت جماعات ووقع منها بعد الإسلام عشرون جماعة ، ولا يذكر المقرري هذه الجماعات على سبيل الحصر ، فهناك جماعات أخرى كثيرة حدثت في مصر ولم يعرض لها في كتابه .

فيدجى (Fidji) في ميلانيزيا يبيع هيريد الجديدة وجزائر سجا) — التي تعد في مقدمة  
أكل حوم البشر، والتي يضرب أفرادها المثل في حديثهم بلحم البشر في لذة الطعم  
وحسن المذاق. فيقولون إن طعم هذا الشيء لذيذ كطعم لحم آدمي — تسكن  
مناطق غنية بحيراتها وما تجود به من غذاء حيواني ونباتي. — وكذلك الشأن  
عند أكل الحوم من قبائل السكان الأصليين للبرازيل. في مصطفتهم نعرز لأسماءك  
والحيوانات ومزيد كثيراً عن حاجة السكان للعداء الحيواني. — وفي أفريقيا  
منتشر كذلك هذه العادة في مناطق غنية كل الغنى بثروتها في الحيوان  
والنات. فقبائل البغال في أعلى الكنفو لا ينصكون بشون العارات على  
القبائل المجاورة لهم للحصول على أسرى يأكلون لحومهم، مع أن منطقتهم  
من أعلى مناطق العالم في النبات والحيوان والأسماك. وقبائل الهونتوت (Hottentot)  
(على صراف هر أورانج بجنوب أفريقيا) لا نكتفي بحطب الآدميين من القبائل  
المجاورة لأكل لحومهم، بل كثيراً ما يبيع التخاطف بينهم ثم أنفسهم للفرص نفسه.  
على الرغم من سعة مناطقهم وعناها بالثرة الحيوانية وحسوبة أرضها.

وقد يكون الباعث على أكل حوم البشر مجرد الرغبة في الشى والانتقام  
والأحد بالشر من القاتل. فقبائل التي (Types) التي تسكن جزر المريكز  
Marquises لا يأكلون إلا جسوم أعدائهم ولحم إشباع رغبتهم في الانتقام. —  
والسكان الأصليون لجزر سامون (Samon) ميلانيزيا لا يأكلون كذلك إلا لحوم  
حسومهم ولا يفعلون ذلك إلا بقصد الإمعان في إدلائهم والشكيل بهم، إذ يرون  
أن أكل لحم الكائن هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه إقامته وتحفيره. — ولوحظ  
هذا الباعث كذلك عند طوائف أخرى كثيرة من أكل حوم البشر، وخاصة  
الساموائيين والماوريين وبعض عشائر السكان الأصليين لريون الجديدة. — ومثل  
هذا كان يحدث عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، فقد أكلت هند امرأة  
أبي سفيان وأم معاوية كبد حمزة عم الرسول عليه السلام بعد أن قتل في غزوة  
أحد انتقاماً لمن قتل من أهلها في غزوة بدر.



وفي بعض الشعوب كان يعتبر أكل لحم الإنسان عقوبة توقع على مرتكبي بعض الجرائم الخطيرة . وكان في نظرها طريقة من طرق الإعدام أو ملحقا لارما من ملحقاه ، كالشور والصرب بالرصاص وفتح الرأس بالفضلة أو السيف والصمق بالتيار الكهربائي وما إلى ذلك من الوسائل المستخدمة في الوقت الحاضر .

في بعض جزر هيريد الجديدة *Ile des Lèptoux, Nouvelles Hébrides* لم يكن المأكل لحومهم من أسرى الأعداء ولا من قسلاهم في الحروب . وإنما كانوا من مرتكبي بعض الجرائم الخطيرة كانوا يقتل وما إليه . وعند قبائل الباناك *Balaks* في سومطرة ، يوقع هذا الجزاء كذلك على المحكوم عليهم بالإعدام في بعض الجرائم الخطيرة وخاصة مصر جنابات القتل والربا والخيانة الوطنية ، وكان الموتورون وأقرباؤهم الذين يعهد إليهم بأكل المحرمين . - وفي ميلانيزيا ، حيث تقضى العقوبة بأن يؤكل أجزاء من الصخرة لأدمية التي تقدم إلى الآلهة ، يلتزم فرصة وفوق جريمة ، فيعقد إلى من تثبت عليه ، أو من تلتصق به على وجه ما ، ويقدم قربانا للآلهة ، ويؤكل بعض أجزائه .

وقد يكون الباعث على أكل لحوم البشر مجرد الرغبة في إضعاف الميت وجعل روحه عاجزة عن إحداث ضرر أو إلحاق أذى بالأحياء . فهو في هذه الحالة وسيلة للوقاية من الشر والقضاء على مصادره . فعند قبائل البونوكودو *Botocudos* يعتمد المحاربون إلى أكل لحوم القتلى من أعدائهم لاثني . إلا لمجرد الرغبة في وقايتهم أنفسهم مما عسى أن تلحقه بهم أرواح هؤلاء القتلى من أضرار لو بقيت أجسامها سليمة . فالقضاء على الجسم بأكمله يتطوى في نظرهم على القضاء على الروح نفسها .

وعند كثير من أكل لحوم الأعداء يقتصر على أكل الأعضاء التي يعتقد أنها مقر الروح أو مركز القوة والإندام ، ويعتقد أن ذلك يجعل روح صاحبها عاجزة عن أن تثار لنفسها من الأحياء أو تنفذ بهم ضررا ما . في جزيرة جروثلاند يعتقد أن روح القليل مزودة بقوى تستطيع بمصاها أن تثار لنفسها من القاتل عن أفسى وجه وأعنه ، وأنه لا يمكن انتقاء إذاها إلا بأكل قطعة من كبدها . -

وقد جرت العادة عند السكان الأصليين لـ Queensland عند ما يقتلون عدواً لهم أن يأكلوا كل شيء لا يعتقدون أنهم مركز القوة والحياة. — وعند قبائل الماؤوري Maoris يشرب دم الأعداء وتؤكل قلوبهم ويحفظ للرؤساء بغيرهم اليسرى ، لا يعتقدون أن الدماء والقلوب والعيون اليسرى هي ، مقر القوة والجرأة والحياة . وأن أكلها يجعل أرواح الأعداء عاجزة عن أن تلحق أى ضرر بالأحياء . وقد يكون الباعث على أكل جسم العدو أو القريب أو جزء خاص من أحدهما رغبة الأكل في أن تنتقل إليه صفات المأكول جميعها أو القوى التي يعتقد أنها كامنة في بعض أجزائه . فقبائل الشوشون Chochone ( من الهنود الحمر ) كانت تعتقد أن شجاعة العدو وجرأته تنقلان إلى آكل لحمه . وقد جرت العادة عند الهورونيين Hurons ( إحدى عشائر قبيلة الإيروكوا Iroquois من الهنود الحمر بأمريكا الشمالية ) عند ما يمجعون بشجاعة أحد أعدائهم في القتال أن يحرقوا على أسره ويتزعموا قلبه ويشووه . ثم يقطعوه إرباً صغره يوزعونها على شبانهم وفتياتهم ليأكلوها حتى تنتقل إليهم صفاته . ويعتقد سكان ساحل العبيد Côte des Esclaves ( على ساحل أفريقيا الغربي بجوار ساحل الذهب ) أن القلب موطن الحكمة والدكاء والشجاعة معا ، ولذلك يحرقون على أكل قلوب من يقع أسيراً في أيديهم عن عرف عنهم عمق التفكير وحدة الدكاء وقوة الإقدام . — وجرت العادة في عشائر الكينبوند Kinbunda بأفريقيا الجنوبية الغربية عند ما يتوج ملك جديد ، أن يختار من بين الأسرى أكثرهم شجاعة ، ويقطع جسمه . ويأكل منه الملك الجديد وأفراد أسرته ، لتنتقل إليهم صفاته ، ويتم العهد الجديد بقوة الإقدام والظفر على الأعداء . — وفي بعض عشائر أستراليا الوسطى لا يأكل لحم البشر إلا العجائز من الرجال والنساء . ولا يأكل هؤلاء إلا لحوم الأطفال الصغار . ومتقدين أن ذلك ينقل إليهم نصارة سخاياهم ويميد إليهم شيئاً من شباههم . — وفي عشائر أخرى من هذه المنطقة نفسها تذبح البنت ليأكل منها أخوها إذا انتابه هزال أو ضعف لتنتقل إليه حالتها الصحية السليمة ويشقى من علته .

وقد يكون الباعث على أكل اللحم الإنسان أن تنقل إلى الآكل البركة التي يتلبس بها من يقدم قربانا إلى الآلهة من الآدميين . فعند السكان الأصليين لغوريدا ( أمريكا الشمالية ) لا يؤكل لحم البشر إلا في مناسبات تقديم القربان الإنسانية . ولا يؤكل لحم إنسان إلا من هذه القرايين . — وفي جزر هوايا ( بولينزيا Hawaii archipelde Polénisie ) لا يعد الإنسان من الحيوانات المتأكولة اللحم ، ولا يتناول الناس اللحم البشري في غذائهم المادى ، وإنما يعملون ذلك في المناسبات الدينية لحسب . فيتناولون قطعا من الأضحية الإنسانية التي تقدم للآلهة بقصد التبرك بها والإفاذة مما تلبست به في أثناء تقديمها من قوى وخصائص وصفات . — وفي فيجييا كانت طقوس الأضحية الإنسانية التي تقدم إلى الآلهة لا تعد كاملة إلا إذا أكل منها الرؤساء الدييون وبعض طوائف الشعب . — وفي عشائر الأزتك Aztèques ( السكان الأصليون للسكيبك ) حيث كان يبلغ عدد من يقدم ضحايا للآلهة من الآدميين زهاء خمسين ألفا كل عام (١) كانت تؤكل من كل أضحية إنسانية الأجزاء التي انبثق منها الدم في أثناء تقديمها في المذابح الدينية . — وقد جرت العادة لدى السكان الأصليين لنيكاراجوا Nicaragua ( بأمريكا الوسطى ) أن توزع الأضحية الإنسانية التي تقدم إلى الآلهة بنظام خاص على طبقات العامة والخاصة ليظعموا منها : فيعطى قلبها لكبار رجال الدين ؛ وأطرافها لذلك ؛ وفنداها لمن أمرها ؛ وأمعافوها لمن يدقون طبول الحرب ؛ ويفرق ما بقي منها على طبقات الشعب الأخرى .

وفي بعض الأحوال كان يعتقد أن أكل لحم الإنسان أو شرب دمه يحقق فوائد روحية أو طبية للآكل أو الشارب . وكان الناس لا يقدمون على ذلك إلا لتحقيق لديهم هذه الفوائد فعشار البنكين بميلانيزيا ( سكان جزائر بانك Banks بميلانيزيا ) كانوا يعتقدون أن ذلك يزود الآكل أو الشارب بقوى



وخصائص لا تقل كثيرا عن قوى الآلهة وخصائصهم . — وفي أستراليا كان يعتقد أن السحرة والأطباء قد اكتسبوا القدوة على السحر وشفاء المرضى من أكلهم للحوم البشر . — وقد جرت العبادة لدى السكان الأصليين لتسمانيا Tasmanie أن يحفظ الدم الإنسانى وتتناول جرعة منه للتقوية والشفاء من بعض الأمراض . — وفي الصين القديمة كان الناس يأكلون قلوب المحكوم عليهم بالإعدام وأكبادهم ويشربون دماهم معتقدين أن ذلك يعيدهم في تقوية أجسامهم وسلامه صحتهم . — وفي بكين يجمع الدم المذيق من المحكوم عليه بالإعدام عندما يقطع رأسه ، ويغمر في دمه بعض أنواع لحاح ، ويباع هذا الحريج — الذى يطلقون عليه اسم « الحبر الدموى » ، Pain de sang — على أنه دواء ناجع للصابين بفقر الدم ( الأنيميا )

وقد يكون الباعث على ذلك شدة العصف على الشجر ؛ والشفقة عليه ، والتعاطف في حبه ، والحرص على أن يخرج جسمه بحسن الآكل ، وأن يتحد مقربه الأخير في جوفه وأحشائه فلا يذهب تى . منه إلى التراب وتبدو هذه البواعث على الأحمر عند الشعوب التى يأكل فيها الناس المتوفين من أبنائهم وأبنائهم وأهلهم وأحبابهم وذوى العاهات من أقربائهم ومن يملعون منهم أردل العمر . فضائل الديوى Dyerie الأسترالية تعتقد أنه إذا لم يؤكل المتوفون من الأقرباء فإن أرواحهم لا يستقر لها قرار ولا تنعم بهدوء ونصح مصدر شر مستطير للمشيئة وعشائر الباناك سو مطره Les Bataks de Sumatra يعتقدون أنهم إذا يأكلون العجائز وذوى العاهات من أقربائهم لا يفعلون ذلك لإشباع همهم المدانى ، وإنما يفعلونه رحمة بهؤلاء وإشفاءا عنهم . .. وعند عشائر البونوكودوس Bolocudos تأكل الأمهات المتوفين من أولادهم بدافع من العطف والحنان — وتعتقد عشائر الميرون Maycronas أنه أكرم لحنة القريب أن يأكلها قريبة من أن تترك طعاما للدود والحشرات

## أكل لحوم البشر لا يستلزم التوحش ولا افسوة الطبع إشراف هذه العادة على الاقراض

وقد لاحظ الباحثون أن هذه العادة ليست ملازمة للتوحش ولا افسوة الطباع ، وأن معظم الشعوب التي تمارس أكل لحوم البشر شعوب سوية تمتاز بالوداعة ولين الخلق واحترام النظام الاجتماعي ؛ بل لوحظ أن ، تقتدر هذه العادة عند البدائيين الذين وصلوا إلى مستوى لا بأس به من الثقافة والنظام أوسع من انتشارها عند العشائر الممتعة في الدائبة والتمدن أسباب الحضارة . فعشائر الكابر والجوويونافي والكارايبب Cabres, Guipunavis, Caraïbes ( من السكان الاصديين لأمریکا ) تعد من أقوى عشائر الأوريوك Orénoques وأرقاها وأدامها إلى العصوره ومع ذلك فهي وحدها ، من بين عشائر الأوريوك جميعا ، التي انتشر فيها أكل لحوم البشر ؛ بينما أحواتها المتأخرة عنها في الحضارة تمرر من كل الفور - ومع أن عشائر النوبيس التي تسكن أواسط البرازيل تعد من أرقى عشائر هذه المنطقة حصاره ويطامها ، فإنها تمتاز بمرافقتها في أكل لحوم البشر - وعشائر الميديين ( تسكن أرحيل فيديجي Fidji في ميلانيزيا ، بين هبريد الجديدة وجزائر نجا ) والماوريين Maoris ( السكان الاصديون لزيلنده الجديدة ) ، التي تعد في مقدمة آكلي لحوم البشر ، كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الحضارة ، وكانت أرقى كثيرا من جيرانها الذين كانوا لا يمارسون هذه العادة . - وعشائر الباناك بسومطرة Batak ، التي تأصل فيها أكل لحوم البشر ، قد وصلت في سلم الحضارة إلى درجة جعلتها تخزع حروفاً أبجدية لتدون بها منتجات أمكارها ، متأثرة في ذلك بحضارة جيرانها ، فنود - وما لاحظته الباحثون بهذا الصدد في أمريكا وآسيا وأستراليا لوحظ مثله في أفريقيا فعشائر الأقزام في أواسط أفريقيا les tribus naines de l'Afrique Centrale ، التي تقرر

كل النغور من أكل لحوم البشر، لا تعد شيئاً مذكوراً في الحصار والتقدم إذا قيست بعشائر النيام نيام Niams - Niams والمنبوتو Monboutou التي يضرب بها المثل في النهم إلى هذا الصنف من اللحوم .

وفي هذا يقول شاليه Félicien Challaye في كتابه عن الكنفو الفرنسية Le Congo Français ( الذي ظهر سنة ١٩٠٩ ) : « إن آكل لحم البشر ليس انساناً متوحشاً مجرداً من طبيعته الإنسانية ، بل إنه إنسان عادي ، بل قد يكون رحيماً دمث الأخلاق ، ولكنه بعد أحياء الإنسان في جملة الحيوانات مأكولة اللحم ، بل يفصل أحياناً لحم الإنسان على لحم غيره من الحيوان . » وقد ذكر قصه رويت له ، لم تخرج حواشيها - على حد قوله - في أدغال أفريقيا ولا في قرأها الثانية ، وإنما جرت في مدينة من أشهر مدن أفريقيا الوسطى وهي برازافيل Brazzaville عاصمة الكنفو ، ولم يكن أصلها من متوحش هذه القارة ، بل كانوا جنوداً إفريقيين في العرقة الأجنبية في الجيش الفرنسي ، حصلوا على حظ لا بأس به من الحصار والثقافة ، حتى إنهم كانوا يجيدون الحديث باللغة الفرنسية . ومدهم هذه القصة أن هؤلاء الجنود قد حملوا يوماً إلى أحد جراحي الجيش زنجياً قد أصيب منذ أيام في فخذه بجرح عميق أهمل علاجه حتى سرى فيه القسم وانثنت رائحته . فلم يجد الجراح وسيلة لإيقاظ حياته إلا بتر فخذه . وبعد أن فرغ من عملية طلب إليه الجنود أن يعطيهم الفخذ المبثورة ليأكلوها . فقال لهم الجراح إن رائحتها ممتنة كريهة وأنها لذلك لا تصلح للأكل . فأجابوه بأنه لا أثر لرائحتها في صلاحيتها للأكل ، لأنه لا تؤكل رائحة اللحم وإنما يؤكل اللحم نفسه . وقد حاول عبثاً أن يشيهم عن رغبتهم ، وبين لهم مضار اللحم الآدمي على العموم . ولما رأى منهم إصراراً على ما يريدون ، وعلم أنهم في حالة دفن الفخذ سينبشون عنها فناء المستثنى ليحرجوها ويأكلوها ، لم يسعه إلا أن يغمرها أمامهم بمسائل يعرفون أنه سام يقتل لساعته (١) .

V. Challaye : Le Congo Français, p. p. 160, 161 (١)  
(Paris 1909).



هذا ، وقد انقرضت الآن عادة أكل لحوم البشر عند معظم الشعوب التي كانت تمارسها ، وذلك تحت تأثير الاستعمار الأوروبي ، ومحاربة الأوروبيين المستعمرين لها ، واحتلاط هذه الشعوب بغيرها . - ولكنها مع ذلك لا تزال إلى الوقت الحاضر متبعة عند بعض العشائر في أواسط أفريقيا وغيرها .

### من أهم مراجع هذا الفصل

Westermarck . L'Origine et le Developpement des Idees Morales  
T. II Chap - XLVI (trad - française, p p. 537 - 566).

وكان هذا هو أهم مرجع لنا في هذا الفصل وقد رجع مؤلفه إلى مئات من المراجع الهامة في مختلف اللغات ، وأحال أقرأه إلى هذه المراجع في ملاحظاته .

Challaye Le Congo Français (Paris 1909).

Letourneau : L'Evolution de la Morale.

La Sociologie d'après l'Ethnographie.

عدد المؤلفين للمادة : الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاصرة بأرض مصر  
المقرر في : إغاثة الأمة ، بكشف العمة .

## الفصل الثاني

### انحراف الغريزة الجنسية

— ١ —

#### اختلاف مظاهر هذا الانحراف

قد يتحد إشباع الغريزة الجنسية صوراً شاذة خارجة عن طرق الإشباع الطبيعي . ومن بين هذه الصور صورة كل لها شأن كبير في تاريخ الأخلاق الإنسانية ، وهي التي تتحلل في اتصال شخصين من جنس واحد أحدهما بالآخر ، أي في اتصال الذكر بالذكر والأنثى بالأنثى وهذه الصورة هي التي يطلق عليها عادة اسم « الشذوذ الجنسي » ، وهي التي سنتطرق إليها دراستنا في هذا الفصل .

• • •

ويبدو هذا النوع من الانحراف الجنسي من وجهة النظر الاجتماعية والخلقية على ثلاثة وجوه . فيبدو في مجتمعات قليلة في صورة تفرها العادات السائدة والقوانين والعرف الخلق على السواء . ويبدو في مجتمعات أخرى قليلة كذلك في صورة نحتلها العادات السائدة وإن حاربتها القوانين وتنافرت مع العرف الخلق . ولكنه في معظم الشعوب الإنسانية يبدو في صورة مسلك شاذ لا تفره قوانين الشعب ولا نظمته الخلقية ، ويتنافر كذلك مع عاداته وتقاليده .

ومنصف فيما يلي على كل مظهر من هذه المظاهر الثلاثة نظرة على حدة ، ثم نكلم بعد ذلك على العوامل التي تؤدي إليه .

الإعتراف الجنائي

حسب نقره نظم اشعب وأحلاقه وعادته

يبدو الشذوذ الجنسي في هذا الوصف المممن في القرية لدى عدد قليل من الشعوب الآساية . فالنوراة والقرآن يتحدثان عن قوم لوط ( أهل مدينة سدوم Sodom بمصر ) ، وأنهم كانوا يأتون الذكور من العالمين ويدرون ما حلق لهم وهم من أرواحهم . وأن هذه العادة كانت شائعة لديهم جميعا . فلم يكن معهم رجل رشيد ، وأنهم كانوا يوصلون إنيان هذه الماعضة مع الغرباء عن بلدتهم ، وأن نظمهم القانونية والحقوقية كانت لا ترى عمة في مسسكم هذا ، ولذلك كانت صانع لوط لهم بالإفلاخ عن هذا المسلك موضع سحرهم وازدراءهم ، بل لقد احتمل منهم في سبيل رسالته كثيراً من صنوف العنف والادى ، وأن الله تعالى . بعد أن أملى هم اعدهم يزدحرون . أحدهم أخذ عزيز مقتدر . فأهلكهم جميعا ، ودمر مدينتهم فجعل عالي سافها وأطر عديها حجارة من سجيل ، بعد أن يحى لوطاً والمستقمين من أهله (١) .

ومع أنه لا يوجد في قصائد هوميروس ( لإلياذة والأوديسيا (٢) ) ولا في قصائد هيربود ( انيوجونيا والأعمال و الأيام (٣) ) ما يدل على انتشار هذه

(١) انظر على الأحسن آيات ٧٧ - ٨٣ من سورة هود (وهي سورة ١١) وآيات ١٦٠ - ١٧٤ من سورة شعراء (وهي سورة ٢٦) ، ومن آيات هاتين السورتين اقتبسنا كثيرا من عبارات هذه الفقرة . - وانظر الإصحاح ٢٠ من عشر وناصم عشر من سفر اشكوب

(٢) انظر كتابي في الشعر الخراساني وما بينه وبينه على عمادهم والاسماء

(۲) نظر کیا جانی کہ اودم البحوث لاجتماعہ عند قراءہ لروایان — ہر بود و شمر  
التعلیمی ...



العاشة عند اليونان في عصورهم السابقة للتاريخ . فإنه من المحقق أنها قد شاعت لديهم شيوعا كبيرا في عصورهم التاريخية القديمة حتى أصبحت قرية من النظم المقررة في العلاقات الجنسية . صحيح أن قانونا من قوانين أثينا يقرر أن العلام الذي يفعل هذا العمل للحصول على المال يجرد من جنسيته ويخطر عليه أن يشهد حفلة من الحفلات التي تنعقد في الأعياد الوطنية وأن يجلس في الساحة الشعبية العامة للمدينة ( التي كانت تسمى لديهم أجورا *Agora* = principale place publique dans les villes ) . وأنه إذا تسلل إلى حفلة من هذه الحفلات أو إلى ساحة من هذه الساحات يحكم عليه بالإعدام . وصحيح أن قانونا من قوانين إسبرطة يعد عمل العلام الذي يقبل العاشة للحصول على المال جريمة يحكم فيها قضاة المدينة ( الأفور *Les Aphores* ) بالثبوت أو الإعدام . ولكن كلا القانونين يفيد أن هذا العمل لا يعتبر جرما إذا كان قد ارتكب بحرص الاختيار وبمجرد إشباع الرغبة لا للحصول على المال . ويعيد كذلك أنه لا مسئولية على الطرف الموجب في هذه العاشة . هذا إلى أنه من الثابت أنه قد جرت العادة عند قدامى اليونان ، سواء في ذلك الأثينيون والإسبرطيون ، ألا يبحث في طبيعة هذه العلاقات ولا في تفاصيل الباعث عليها للوقوف عما إذا كانت مبعثة عن رغبة أو عن غرض مادي ، وأنها كانت محتملة في جميع أوضاعها ، بل لقد كانت موضع غر واعتزاز من مرتكبيها وموضع تحيد من الشعب ومن مشرعيه وحكائه وفلاسفته إذا كانت منبعثة عن حب متبادل . في محاوراة لسكير ولاسغتهم أفلاطون عن الحب والجمال وهي التي سماها فيدر *Phèdre* باسم أحد أبطالها ، يقول أفلاطون على لسان فيدر ، إنه لا يتصور منزلة من السعادة لعلام في مستقبل حياته أرقى من أن يحظى بعشيق فاضل ، ولا منزلة من السعادة لرجل أرقى من أن يكون عاشقا لعلام جميل ؛ لأنه لا يوجد ما هو أفدر من هذا النوع من الحب في غرس العادات النبيلة المتصلة (١) . وكان الشائع عند قدامى اليونان والمتداول بين أفلام كتابهم

Platon, Symposium, p. 178, cité par Westermarck op. (١)  
cit. II, 461,

وفلاسفتهم ان أشد الشعوب مقاومة وصلابة في الحروب هي التي ينتشر فيها حب الشبان للشبان حبا جنسيا ، وأن جيشا يتألف من شبان يحب بعضهم بعضا هذا النوع من الحب ، ويقاثلون صفا واحدا جنبا لجنب ، لا يقف أمامه أى عدو مهما كان بأسه وقوته ، بل إنه ليستطيع أن يفزو العالم أجمع وبدوجه .

ويدل الأدب اليونانى القديم كذلك على انتشار حب النساء للنساء حبا جنسيا . صحيح أن الانحراف بين النساء لم يوجه إليه من الملاحظة وتقدير الأحكام عند اليونان — ولا عند غيرهم من الشعوب — ما وجه إلى نظيره بين الرجال ولكن هذا لا يدل على أنه كان أقل انتشاراً منه . فالانحرافات النسائية التي من هذا النوع لا تعرف ولا تستوقف النظر كما تعرف وتستوقف النظر نظائرها عند الرجال . — هذا إلى أن العرف الخلقى لا يعنى بهذا النوع من الانحراف بين النساء كما يعنى بنظائره عند الرجال .

ومع أن قانونا قديما جدا من قوانين روما يسمى قانون « سكنتينيا » أو « سكاتينيا » Lex Scantinia, ou Scatinia يعاقب من يرتكب الفاحشة مع غلام حر بمرامة مالية ، فإنه من المحقق أن هذا القانون قد طل معطلا غير معمول به ، وأنه لم يرد في قوانينهم الأخرى الصادرة في عصورهم القديمة ذكر هذا الجرم ولا لعقوبته . على أن هذا القانون نفسه يفيد أنه كان من المباح أن يرتكب هذا الفعل مع رقيق . وتدل روايات الثقات من المؤرخين أن هذا الانحراف كان شائعا كبيرا عند قدامى الرومان ، حتى إن معظم بيوت الأغنياء والمترفين ، بل بيوت المتوسطين من الناس ، كانت تزدان بطائفة مصطفاة من الرقيق تتألف من غلمان مختشين بارعى الجمال يستخدمون في اللهو والشراب وفي اشباع النزوات المنحرفة لمواليهم . وقد ارتفع ثمن هذا الصنف من الغلمان لشدة الطلب عليه عند قدامى الرومان حتى بلغ في أواخر القرن السادس الميلادى ، بحسب رواية المؤرخ بوليبي Polybe أكثر من ستة آلاف جنيه

بعملة الحاضرة (  $\text{un talent d'or} \approx \text{à peu près } 56000 \text{ francs or} \approx 1140 \text{ livres or}^{(1)}$  ) وفي عصر الإمبراطورية الرومانية جرت العادة في الأسرات الأرستقراطية عندما يبلغ الغلام لحظ أن يمنح رفيقا جميلا مقاربا له في السن ليصبح به نرواته الجنسية الناشئة . بل كثيرا ما كان يحدث في هذا العهد أن يتزوج رجل بغلام وأن يجري هذا الزواج المريب في حفل يشبه الحمل الذي يقام للزواج العادي .

ولهذه الأوصاف أشباه ونظائر لدى كثير من الشعوب البدائية نفسها .

فقد لاحظنا الرحالة وعلماء الإثنوجرافيا لدى السكان الأصليين لأمريكا ، وذكروا أنه يوجد في كثير من هذه القبائل عيان مخشون يلبسون ذى النساء ، ويقومون بوظائفهم ويعيشون أحيانا مع الرجال في صورة منظمة دائمة كما يعيش الزوجات والخيلات مع مولهن وأحدانهم . ولا حظوا كذلك أن هذا المسكت لا تفره العارت السائدة لحسب ، بل يساير كذلك النظم المقررة ولا يبدو عن العرف الخفي . وقد جرت العادة عند السكان الأصليين لمطقة كاديلاك Kadlak ( على سواحل بحر هرنج ) عندما يجد الأب أن أحد أبنائه يبدر عليه مظاهر أرائج هات نسوية أن يشتمه كد بشأ البنات ، فيلبس لنفسه ، ويقوم بأعمال المرأة ، ولا يسمح له بأن يراول عملا من أعمال الرجال ، ولا أن يصاحب في طفولته إلا الفتيات والنساء . وفي سن العاشرة إلى الخامسة عشرة يزوجه أبوه برجل من الأثرياء . وكان كل من يحصل على واحد من هؤلاء العذار يعد نفسه ويعده الناس ذا حظ عظيم . وكان هؤلاء العذار أنفسهم موضع تقدير الشعب ، حتى إن الناس كانوا يعتبرونهم من طوائف السحرة والكهان . — وفي بعض عشائر الإسكيمو الشرقية وبعض عشائر السكان الأصليين للبرازيل ينتشر الشذوذ الجنسي بين النساء . فيوجد نسوة مسترجلات ،

Ploybe, Histoire, XXXII. XI, 5. cité par Westermarck (١)  
op. cit. II, 446



لا يزالن أى عمل من أعمال النساء . ويتشبهن بالرجال فى كل شئ . فيلبسن لبسهم ، ويحلقن رؤوسهن كما يحلقون ، ويذهبن للصيد وساحات القتال مزودات بالنال والسهام كما يفعلون . ونعزل الواحدة منهم أن تموت على أن تكون لها صلة جنسية مع رجل ما . وعرض كل واحدة منهم على أن يكون لها زوجة من الأنثى تعيش معها عيشة دائمة منظمة كما يعيش الزوج مع زوجته . ولا تجد أعمالهن هذه أية مقاومة من طم الشعب ولا من تقاليد ولا من عرفه الخفى . -

ولاحظ لاس كازاس Las Casas أن الشذوذ الجسدى بين الرجال منتشر لدى السكان الأصليين للمكسيك فى كثير من أريافه ، وأن الجمهور ينظر إليه هناك على أنه أمر مباح . ويظن هذا الباحث أن هذه التقاليد كانت سائدة فى جميع بلاد المكسيك فى أقدم العهود . وأن محاربه هذه الأعمال قد حدثت فيما بعد

وعند السكان الأصليين لبعض جرر الملايو وأندونيسيا يبدو الشذوذ الجسدى كذلك فى صورة يفرها العرف العام والعادات والتقاليد لدى عشائر اباباك Batak بسومطرة كان الشذوذ الجسدى لا يعتبر جرما ولا يعاقب مرتكبوه . - وفى جزيرة بالى Hall (من جزائر أندونيسيا بمضلم عن جارة بوعار بالى) كان يمارس هذا الشذوذ فى نطاق واسع بين الرجال بعضهم مع بعض وبين النساء بعضهم مع بعض ، بدون أن يكون فى ذلك ما يتنافر مع التقاليد ولا مع الأخلاق ؛ بل لقد كان يسمح هناك باتحاد الشذوذ الجسدى السلمى مهنة للحصول على الرزق وإشباع الشهوات . - وفى عشائر الدياك Davaks يوجد صنف من الرجال يسمون البازير Basir يتزويون بزوجات النساء ، ويتصل بهم الرجال فى الأعياد وغيرها . بل يتزوج معظمهم بالرجال بالطقوس نفسها التى يتم بها الزواج العادى .

وفى عشائر الشنجالى Chingalis التى تسكن المنطقة الجنوبية من أستراليا الوسطى ، يظل عدد كبير من شيوخ القوم عزاما ، ولكن يتخذ كل منهم لنفسه خدما أو خدنتين من صغار الغلمان . ولاحظ الرحالة أنهم بما كانوا هؤلاء الغلمان ويفارون عليهم ويعاشرهم معاشرمة الزوجات من جميع الوجوه . - وفى

جزر تاهيتي أو جزر الشركة ببولينزيا Tahiti, ou Tati ou archipel de la Société  
بمجد الشذوذ الجنسي تشجيعاً من رجال الدين أنفسهم ، وتروى  
أساطيرهم أن الآلهة أنفسهم يمارسونه فيما بينهم .

وفي مدغشقر كل يوجد صنف من العلماء المخشيين يعيشون عيشة النساء  
ويتصلون بالرجال . وقد كتب عن هؤلاء باحث قديم من رجال القرن السابع  
عشر هو دوفلاكور de Flacours في كتابه عن « تاريخ الجزيرة الكبرى  
مدغشقر » يقول : « يوجد صنف من المخشيين فاقدي الرجولة يسمون تسيكات  
Tsekals يكرهون النساء ويعارون منهم ، ولكنهم يتشبهون بهن في زيهن  
وحركاتهن ، بل يسمون أنفسهم أحياناً بأسماء الإناث . ولا ينفكون يتحدثون عن  
الشبان ويفررونهم بالهدايا ليتصلوا بهم . ومن الغريب أن العقيدة السائدة لديهم  
ولدى طوائف الشعب أنهم بذلك يرضون آلهتهم (١) » .

- ٣ -

الانحراف الجنسي حيث تختمله عادات الشعب

وإن حاربته القوانين ونظم الأخلاق

يبدو الشذوذ الجنسي على هذا الوصف لدى عدد غير يسير من الشعوب  
الإسبانية البدائية وغيرها في شتى أنحاء العالم وفي مختلف مراحل التاريخ .

فقد انتشر الشذوذ الجنسي في بلاد الصين في العصور الحديثة نفسها انتشاراً  
كبيراً حتى أصبح الناس يفصون النظر عنه ، وأصبح محتملاً من العادات الشعبية  
السائدة ، وحتى لقد أُنشئ في كثير من المدن الصينية بيوت البغاء ترتكب فيها

---

de Flacours : Histoire de la Grande Isle Madagascar, (١)  
p. 86; cité par Westermarck, op. cit. II, 445.

الفاحشة مع المخشئين من العلان . وكثير من الآباء المعورين في الصين كانوا يبيعون أبناءهم في سن العاشرة يبيع الرقيق لحاسين يتجرون بأعراضهم في أعمال الشذوذ الجنسي . ولكن القانون الصيني يعد هذا الفعل جريمة ويوقع عليه عقوبات قاسية . فإذا كان الطرف السالب في الجريمة بالغاً أو تجاوز الثانية عشرة وحدث ذلك برصاء فإنه يجلد مائة جلدة ويعاقب مدة شهر كامل بعقاب « الكنج Cang » ( ويمثل عقاب الكنج في أن يؤتى برميل أو ما شاكله ويثقب في قاعه ثقب تمر منه رأس المجرم ورقبته ، ويطلق حاملاً هذا الثقل في هذا الوضع على كتفيه طول المدة المحددة لمعاقبه ) . وإذا كان الفعل حدث على الرغم منه وبوسائل العنف والإكراه وهو في هذه السن لخرينة الطرف الموجب جريمة اعتداء على العرض توقع عليها العقوبات القاسية إلى توقع على هذا النوع من الجرائم . وإذا لم يكن الطرف السالب بالغاً وكان دون الثانية عشرة احتضمت كذلك عقوبته وعقوبة الطرف الآخر تبعاً لمبلغ رصاء بالفعل أو مقاومته له وتبعاً لسوابقه في هذه الفاحشة . — غير أن الشعب لا ينظر إلى هذه الأمور على أنها جرم كبير ولا يوجه إلى مرتكبيها أي ازدراء أو احتقار . بل إنه لينظر إليها أحياناً على أنها من أعمال العظمة الأرستقراطية ؛ حتى لقد كان ثمة ثلثان من هذا الصنف في بلاط الإمبراطور نفسه ومن بين حاشيته . وكل ما هنالك أنه كل يعتقد أن هذه الأعمال قد تسبب بمص أمراض العيون (١) .

وتاريخ الشذوذ الجنسي في اليابان يرجع إلى عصور سحيقة في نظر بعض الباحثين ؛ بينما يرى آخرون أنه لم ينتشر في هذه البلاد إلا بعد دخول البوذية فيها في القرن السادس عشر الميلادي . وهما بكن من شئ شأن شأنه الأولى في اليابان فإنه عما لا شك فيه أنه قد انتشر في هذه البلاد انتشاراً كبيراً . وأخذ الشعب ينظر إليه على أنه أمر عادي بل إن كثيراً من القساوسة البوديين كانوا — ولا يزالون — يعيشون في اليابان مع اخدان لهم من العلان يتفانون



في حبهم والحدب عليهم . وحتى منتصف قرن التاسع عشر كان في اليابان بيوت خاصة لهذا النوع من الشدود . وفي عصر العروسية اليابانية كان أدعى للفخر والعظمة للرجل أن يكون عشيقه غلاماً من أن تكون عشيقته امرأة . ولا يزال كثير من اليابانيين في الوقت الحاضر يعتقدون أن هذه الأعمال تكسب الرجل قوة وعافية . وأن المناطق التي تنتشر فيها أعمال الشدود الجنسي يمتاز رجالاتها عن رجال المطلق التي لا تنتشر فيها هذه الأعمال ببسطة الجسم وقوتها وجمالها . بل إن القانون الياباني نفسه لم يعرض لهذه الأعمال ولم يضع لها عقوبات إلا بعد ثورة اليابان سنة ١٨٦٨ . ومع ذلك فإنها لا تزال في الوقت الحاضر منتشرة في معظم بلاد اليابان ، وإن كان انتشارها في جنوبيه أكثر من انتشارها في شماليه . غير أنه يوجد مناطق في اليابان تكاد تكون خالية منها .

وكانت العادة جارية في بعض مناطق ألمانيا . عندما يتجاوز العلام السادسة عشرة من عمره . أن يجادل غلاماً جميلاً تردد سنة بين الثانية عشرة والسادسة عشرة . وكانت العلاقات بينهما لا تحلو من هذا الشدود

ويظهر من كثير من الشواهد التاريخية أن الشدود الجنسي كان منتشرًا انتشاراً كبيراً في جزر اسكنديناوة ( السويد ولنرويج ) منذ أقدم العصور . ولا أدل على ذلك من اشتغال اللغات الإسكندنافية القديمة على مجموعة كبيرة من الألفاظ الخاصة المعبرة عن عمليات هذا الشدود ووضاؤه . وبدوا به في عصورهم القديمة ما كان يطرأ على الأرواح إلا للطرف السالب في هذا الشدود . أما الطرف الآخر فلم يكن عمله جريمة في نظر الناس بل كان موضع فخر واعتزاز ، بدليل أنه في بعض ملاحهم القديمة يعتبر بطل القصة بأنه قد نجح أولاداً من غلام جميل اتصل به . ويظهر كذلك أن هذا الشدود لم ينتشر في أي بلد أوروبي في الوقت الحاضر مقدار انتشاره في السويد والنرويج حتى كاد الناس هناك لا يرون فيه خروجاً كبيراً على مبادئ الأخلاق .

ويروي كثير من أقاموا بواحة سيوة المصرية أن كثيراً من الرجال هناك

يتحدون من الغلمان أحداً لهم ويستخدمونهم فيما يستخدم فيه النساء . وإن ذلك يتم أحياناً في صورة روج متفص عليه ، على الرغم من أن القانون والعرف المطلق يحرمان هذه الأعمال .

وعند السكان الأصليين لجمهورية بيرو وأمريكا الجنوبية يوجد في بعض المعابد عليان مخشون ينظر إليهم على أنهم هيسون ودهان ، ويشاع أن الآلهة أنفسهم يتصلون بهم في بعض أيام الأعياد . ونزل أعمالهم هذه منزلة تصحية وحرمان يقدمونها للآلهة غير أن حكام بيرو وأمراءها الذين كانوا يسمون الإنكا Incas كانوا يتجاهلون هذه الأمور ، وكانوا يوقعون على من ثبت عليه جريمة من هذا القبيل عقوبات شديدة ويحرقون على أن ينهد عدا به طائفة كبيرة من أفراد الشعب ليكون عبرة للجميع

ومع أن الشعوب الجنسية كان مفترقا انتشارا كبيرا لدى السكان الأصليين المكسيك ، ومع أنه في الأرياف المتطرفة كان الجمهور يكاد ينظر إليه على أنه أمر مباح ، ومع أنه يظن أن هذه التقاليد كانت سائدة في المكسيك في أقدم عهودها كما سبقت الإشارة إلى هذا كله (١) ، فإنه من المتحقق أن شرائع هذا الشعب وعرفه المطلق في العهود اللاحقة قد اعتبرته من كبائر الجرائم ، حتى لقد كان يوقع على مرتكبيه عقوبة الإعدام . ولكنه كان على كل حال أمر تخلفه العادات السائدة في البلاد

وفي منطقة كبرلي Kimberly في غرب استراليا ( وهي غير مدينة كبرلي في اتحاد جنوب أفريقيا ) لا يقر العرف المطلق للسكان الأصليين أعمال الشذوذ الجنسي ، ويتظاهر الناس هناك بالاشتمزاز منها ، ويضطرون إليها نظرهم إلى فاحشة محرمة . ومع ذلك فإن العادة قد جرت عندهم ، حينئذ لا يجد الشاب ذاة يتزوجها ، أن يتزوج علما صغيرا بين الخامسة والعاشرة من عمره . ويطلقون

على هذا الصنف من الغلمان اسم ، الشوكادو ، Choukadou أو الملاونجا Mullawonga . ويراعى في هذا الزواج جميع الطقوس التي تراعى في الزواج بالإناث ، وتترتب عليه جميع نتائجها ، حتى إنه ليحرم على الزوج أن يتزوج أو يقرب أم ، الشوكادو ، الذي تزوج به ، كما يحرم عليه ذلك حينما تكون الزوجة أنثى . — ولما كان الرؤساء وكبار القوم في هذه العشائر يستأثرون بالنساء فإن كثيراً من الشبان قد يصل الواحد منهم إلى الثلاثين أو الأربعين من عمره بدون أن يتيسر له الحصول على زوجة من النساء . ومن ثم نشأت هذه العادة ، واتجه كثير من الشبان إلى الزواج بصغار الغلمان ومع أنهم يسمون الزوج ، حامياً ، ( بيلالو Bilalou ) للعلام ، ويتحاشون أن يصرحوا بحقيقة ما يحدث بينهما من علاقات ، فإنه مما لا شك فيه أنه يحدث بينهما ما يحدث بين الزوج وزوجه .

## — ٤ —

الاحراف الجسدى حيث لا تفرق العادات السائدة

ولا القوانين ولا العرف الخلقى

يبدو الشذوذ الجسدى على هذا الوضع كما قلنا عند معظم الشعوب الإنسانية بذاتها ومتحضرها في مختلف مراحل التاريخ .

فع أن هذا الشذوذ منتشر عند الإيرانيين انتشاراً كبيراً منذ أقدم عهودهم في صورة عادة أصيلة لهذا الشعب على ما يرجحه بعض الباحثين ، وأرى صورة عادة دخيلة انتقلت إليهم من اليونانيين على ما يرجحه هيرودوت ، فإن قوانينهم وعاداتهم ونظمهم الحقيقية لم تفر عن محاربه في مختلف عصورهم ، حتى قبل اعتناقهم للإسلام . فالديانة الزرادشتية التي كانت سائدة لديهم قبل الإسلام تقسو كل الفسوة

في عقاب هذا الشذوذ كما تدل على ذلك أسفارها المقدسة . هي كتاب ، القانديداد Vendidad ( وهو قسم من سفر الأبتاق أو الأستا Avesta ، وهو أهم أسفار زرادشت ) أن هذا الجرم لا كفارة له ولا تقبل من صاحبه توبة ، وأن مرتكبه يعاقب في الدنيا بالإعدام ، ويدخر له في الآخرة عذاب دائم ألهم . وحتى إذا كان هذا العمل قد ارتكب مع آخر بطريق الإكراه فإن هذه الأسفار لا تمنع المجنى عليه من الجراء . وتوجب أن توقع عليه عقوبة بدنية . وتعتبر هذه الأسفار هذا الشذوذ أشد تعديا على حدود الله من قتل رجل عادل مستقيم . كما توجب على كل شخص يصادف رجلا يرتكبان هذا الجرم وهو مسلح أن يقطع رأسيهما ويفقأ بطنيهما ويخرج أعضاهما . — وغنى عن البيان أن تشديد العقوبة لجريمة معينة بالدات في شئ ما دليل على انتشار هذه الجريمة بين أفراد وعجز المشرع عن القضاء عليها .

وهو كذلك منتشر انتشاراً كبيراً عند اليهود منذ أقدم عصورهم . ولكن شريعتهم تنظر إليه نظرتها إلى كبريات الجرائم ، وتسوى بينه وبين قتل النفس في الجزاء . فيحسب هذه الجريمة بحكم بالإعدام على مرتكب هذا الجرم سواء أكان إسرائيلياً أم أجنبياً مقيماً في بلد إسرائيل . وتقرر أسفار التوراة أن شيوخ هذه العاقبة عند الكنعانيين هو الذي دس بلادهم وأرسل عليها سحط الإله ونقمته ، ودمرها تدميراً وجعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود (١) .

ومع انتشاره في الأمم الأوروبية المسيحية ، فإن ديانتهم تعتبره من كبريات الجرائم . فالوسول بولس يرى أنه أقصى ما يمكن أن يصل إليه الانحلال الخلقي والخروج على تعاليم الدين والقديس باريل Basile يرى أن يعاقب مرتكب هذا الجرم بمثل ما يعاقب به القاتل والساحر وعابد الأوثان . أي بأقصى عقوبات الإعدام . وقد أصدر مجمع إليفرا Concile d'Elivra ، قانوناً يقضى

(١) انظر سفر اللاويين إصحاح ٢٤ ، فقرات ١٨ ، ٢٢ ، ٢٤ ؛ وإصحاح ٢٠ ، فقرة ١٣



بأن الدين يعتدون على الفنان إشباعة لرغباتهم الجنسية المنحرفة لا تقبل منهم  
نوبة ولا يجوز للقسس أن يحضروا ساعات احتضارهم . وعندما تأصلت المسيحية  
ورسح قسمها في الإمبراطورية الرومانية أحدثت الشرائع ونظر الأخلاق نشن  
حرما شعواء على هذا الشذوذ ، بعد أن كان بعد من قبل من الهنات أهينات ، بن  
من الأمور المباحة ، كما ذكرنا ذلك فيما سبق (١) . فالإمبراطورن كنستانس  
وكنستانتات Constance et Constant جملا عفوته الإعدام صربا بالسيف .  
وقالتيينيان Valentinien ذهب إلى أن بعد من ذلك فقرر أن يحرق المحرمان حرقا  
وأن يشهد عداتهما الجمهور ليكونا علة للناس ، وقد عتقد جوستينيان Justinien  
أن « أصاب البلاد في عهده من محاربه وروبته ولادل قد أصابها بسبب شيوع  
هذه الفاحشة بين أهيا ، فأصدر مشورا بإعادة حمل القوانين الذي يقضى بأن  
يقتل مرتكب هذا الجرم صربا بالسيف . وعاقب المشور على ذلك بأن هذا  
إجرا ، وقضى حتى لا تدمر المدن على أهيا ، لأن لأسفار المقدسة تنبأ بأن الله  
قد عاقب ذلك أهل مدينة سودوم ( أهل لوط ) . وقد أصبحت جريمة الشذوذ  
الجسدي في ذلك العصر أقطع حرية يمكن أن يتهم بها الفرد ، وأحدث المحاكم  
تصدر العقوبات القاسية على المتهمين بها لأقل شبهة وأضعف دليل ، حتى لقد  
كانت شهادة طفل أو خادم كافية في توقييع عقوبة الموت على المشهود صده ،  
وحتى لقد أصبح هذا الاتهام أبسر وسيلة يبعأ إليها الناس من أفراد الشعب  
ومن الحكام للإيقاع بخصومهم حينما لا يجدون سبلا لانتقامهم شيء آخر  
يمكن إثباته .

وقد تأثرت القوانين الأوروبية في العصور الوسطى بهذه الشرائع الرومانية .  
ففي إنجلترا كانت العقوبة المقررة لهذا الجرم أن يذبح المجرم حيا أو يحرق ؛ وإن  
كان الراجع أن العقوبات التي كانت تطبق بالفعل كانت أخص من العقوبات  
المقررة . وفي فرنسا كان يحكم عليه بالحرق ، وطلت هذه العقوبة نطق وتنهى حتى

(١) انظر الفقرة الأخيرة من ص ٢١ ونواحيها .

منتصف القرن الثامن عشر . — ثم أخذ المشرعون في مختلف البلاد الأوروبية يحذفون من غلوائهم في هذا الصدد حتى انتهى الأمر بالقانون الجنائي الفرنسي الحديث إلى إعفاء مرتكبي هذا الجرم من كل عقوبة مادام الطرف السالب بالماً رشيداً ووقع الفعل برضاه وفي صورته لا نسي . إلى الآداب العامة وقد انتقلت هذه النظرة إلى معظم الشرائع الأوروبية الحديثة ، إلى الشرائع غير الأوروبية المتقنسة من القانون الفرنسي . ولكن عدم توقيف العقوبة على هذا الفعل لا ينبغي أنه في معظم بلاد أوروبا لا يزال معتبراً في عداد الجرائم والمنكرات من الواحي القانونية والخلقية ومن ناحية العادات نفسها ، وإن كان الناس قد أخذوا ينظرون إليه في هذه البلاد نظرة أحف كثيراً من النظرة التي كان ينظر بها إليه أجدادهم في العصور الوسطى وصدر العصور الحديثة . — وقد نشرت الصحف أخيراً (١) أن وكيل وزارة الخارجية البريطانية مستر دو جلاس هارفي قد اعتقله البوليس يوم كان يرتكب عملاً فاضحاً في منزله سان جورجس مع أحد جنود الحرس الملكي المسكاهين بحراسة قصر بكنجهام ، ويدعى هذا الجندي ولتر بلانت وسنه تسع عشرة سنة وقد قدم البوليس إلى محكمة الآداب وكيل الخارجية والجندي الذي مثل أمام المحكمة بملاسه الرسمية وهي ملابس الحرس الملكي ، فأخرج القاضي عنهما بكهالة ٢٥ جنهما ، ولم تستغرق قصيتهما أكثر من دقيقتين . وقد عنت الجرائد الإنجليزية على ذلك بأن الجرائم الأخلاقية التي ترتكب بين الذكور في بريطانيا مسكاة إجتماعية خطيرة ، وأنه قد ألفت لبحثها لجنة اسمها لجنة ولندن نسبة إلى رئيسها جون ولندن ، وأن اللجنة قد وصفت تقريراً قالت فيه إن الجرائم الجنسية بين الذكور لا تعد جريمة جنائية مادامت برضا الطرفين ومع نشاعة الفعل الذي ارتكبه وكيل الخارجية الإنجليزية مع هذا الجندي ومع أنه قد قبض عيسما وهما متندان بالجرم على قارعة الطريق في منزله عام ، فإن الحكم الذي انتهت المحكمة بإصداره في هذه القضية يتجاوز على عقوبة نافذة وهي غرامة خمسة جنيهات

(١) اطري جريدتي الأهرام والأخبار لصادري في ٢١/١١/٥٨ وفي ١١/١٢/٥٨

على كل منهما عدا أربعة جنيمات وأربعة شلنات رسوم القضية ، وبلاحظه  
إن المرامة لم توقع للتعلم نفسه وإنما وقعت لارتسكابه في منزه عام وفي أوضاع غلة  
بالآداب . ولذلك كانت مراعاة المدعى العام تدور كلها حول إثباته أن البو ليس  
شاهد الرجلين في وضع غل بالآداب في إحدى حدائق لندن في الشهر الماضي ...  
أما محامي هارفي فلم تبد منه أية محاربة للإنكار أو التستر على موكله أو حتى  
تلس الأعداء . وإنما اكتفى بأن يقول : « إنه إن يحاول أن يغير من الحقائق  
فهي تتحدث عن نفسها بنفسها » . — ولا يحق ما ينطوي عليه هذا الحادث  
وملاساته ، ومسلكت المحكمة والمدعى العام ومحامي الدفاع حياله ، وموقف المتور  
وعدم الاهتمام الذي قابله به الرأي العام ، وتعقيب الصحف عليه ، لا يحق ما تنطوي  
عليه هذه الأمور من دلالة على أن القوم هناك ينظرون إلى هذه الأمور نظرتهم  
إلى الهنات الهيئات .

وقد سرت هذه البطرة إلى رجال الدين أنفسهم . فقد نشرت جريدة « الجمهورية  
الصادرة في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٥٧ تحت عنوان « الشذوذ الجنسي عمل مشروع  
يرافق عليه مجلس الكنائس الإنجليزية ، ما يلي : « وافق مجلس الكنائس الإنجليزية  
بعد مناقشات حامية على التوصية التي كانت تقدمت بها إحدى اللجان الحكومية  
باعتبار الشذوذ الجنسي لدى يحدث بين البالغين ورصام عملا مشروعا لا يعاقب  
عليه القانون . وكان كبير أساقفة كنتربري وهو جوهري فينر هو الذي قاد  
الحملة لتأييد هذه التوصية التي تمت الموافقة عليها في مجلس الكنائس بأغلبية ١٥٥  
صوتا ضد ١٣٨ . وقال كبير الأساقفة إنه كان يشعر بالقلق لما يصيب الشخص  
المصاب بالشذوذ الجنسي من ظلم القانون ، في حين يستطيع أي شخص آخر أن  
يهدم أسرة ويشردها بدون أي عقاب » .

ويظهر أن اللواط والمحاقنة ، وهو اسم يطلقه فقهاء المسلمين على اتصال  
المرأة بالمرأة اتصالا جنسيا ( كانا منتشرين انتشارا كبيرا عند العرب في عصور  
حصارتهم بعد الإسلام ؛ حتى إن العزل بالمذكر يؤلف بابا هاما من أبواب  
الآداب في العصر العباسي ، وحتى إن فقهاء المسلمين قد قرروا عقوبات شديدة

اللواط والمساخقة ، فقررُوا في اللواط عقوبة الحرق بالنار أو هدم الجدار على  
النجس وتركه تحت الانقاص حتى يموت ، أو اللدب به من مكان مرتفع ،  
أو الرجم ، أو الجلد مائة جلدة ، حسب اختلافهم في ذلك ، وحسب الحالة المدنية  
التي يكون عليها مرتكب الجرم (١) . وذهب بعض المفسرين إلى أن العاقشة ،  
التي يشير إليها القرآن الكريم إذ يقول : « واللدان يأياها (أي لعاقشته المذكورة  
في الآية قبلها) منكم فأدومها ، فإن تابا وأصفا فأعرضوا عنها » مقصود بها  
اللواط (٢) . وقرر فقهاء المسلمين في المساخقة عقوبات شديدة حتى لقد ذهب الشيعة  
الإمامية إلى أن حد المساخقة كحد الربا أي الرجم إن كانت المرأة محصنة والجلد مائة  
جلدة إن كانت غير محصنة (٣) . وذهب بعض المفسرين إلى أن العاقشة التي يشير إليها  
القرآن الكريم إذ يقول : « واللاتي يأتين العاقشة من نساءكم فاستشهدوا عليهن  
أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله  
لهن سبيلا » مقصود بها المساخقة (٤) . وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله  
عنهما قال : « لعن النبي صلى الله عليه وسلم المحشيش من الرجال والمترجلات من

(١) انظر تفصيل ذلك في كتب الفقه وقد ذهب أبو حنيفة إلى أنه لا حد في اللواط ،  
ولما يقرر مرتكبه أي توقع عليه عقوبة أخف من عقوبة الربا (وعقوبة الربا هي الرجم  
إن كان الحرق نهضا واحدا مائة جلدة إن كان غير محصن) وقال أبو يوسف ومالك هو كارتبا  
ويوقع فيه حد الربا سواء نسوا . (انظر المنداء على القدوري ص ٢٩٨) .

(٢) آية ١٦ من سورة النساء . وقد قيل في تفسير هذه الآية أقوال أخرى منها أن  
المقصود بكلمة لعاقشة الربا ، وإن عقوبة الإبداء هو نفس عنها هذه الآية كانت عقوبة الربا في  
الإسلام ثم سبغت بعقوبة الحبس في الموت . ذكرت في لآله لسابقة لهذه تلاوة وإن كانت  
لاحقة لها برولا محسب هذا الرأي ، ثم سبغت عقوبة الحبس بعقوبة الحد وإرحام (انظر تفسير  
البيضاوي)

(٣) انظر « المختصر السليم » لأن النفاذ على في فقه الإمامية ، سنة ووزارة الأوقاف  
صحتي ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٤) آية ١٥ من سورة النساء . وفي تفسير هذه الآية أقوال أخرى منها أن المقصود  
بالعاقشة الربا ، وأن المعنى أن يربيه بعد أن يوضع عليه حد ارتد يوضع عليها عقوبة أخرى  
إضافية بأن يمنع من الخروج من البيت حتى يتوفاه الموت . ومنها أن عقوبة الحبس في البيت  
كانت عقوبة الربا في قول الإسلام ثم سبغت بعقوبة الحد وإرحام (انظر تفسير البيضاوي) .  
(م — ٣ — عرث لهم وتفايد ومادت ٢٠)



النساء وقال أخرجهم من بيوتكم ، وأخرج فلانا ، وأخرج عمر فلانا ، (١) .  
ومع انتشار هذا الشذوذ بنوعيه (الأواط والمصاحقة) في بلاد الهند ، فإن  
قوانين البلاد وعرفها الخلق وتقاليدها تعتبره جريمة . غير أنه يظهر أن قوانينها  
القديمة لا تعتبره من كبريات الجرائم ، بدليل أن قوانين مانو (مشرع الديانة  
البرهمية) تدخله في مادة واحدة مع جرائم أخرى صغيرة كاتصال الرجل بالمرأة  
في حظيرة من حظائر الثيران أو في الماء وهما يستحان (٢) .

وهو كذلك شائع لدى كثير من الشعوب المتحضرة في آسيا الصغرى وتركيا  
وشمال أفريقيا ووادي النيل وجميع البلاد العربية بآسيا والفوقار والافغان  
ومصر ، وإن كانت شرائع هذه البلاد جميعها وتقاليدها ونظمها الخفية تنظر من  
ذلك كل النور وتنظر إليه على أنه جرم كبير . وأيام أن كان البغاء الرسمي نظاما  
معمولا به في مصر كان يوجد بجانب البعايا من النساء طائفة من الخشيش من  
الرجال والعلمان يزولون هذه المهنة . وكانوا يتشبهون بالنساء في زين وحيث  
وربقتن ومشيتن واستخدامهن للمكحل والمساحيق والألوان ، وكثيرا ما كانوا  
يشاهدون على هذه الصورة رائحين عادين في أكبر شوارع القاهرة ولا تزال  
الإحصائيات القصصية في مصر تسجل عددا غير يسير من جنائيات الفسق بالعلمان  
ومن حوادث العصابات التي تنجر بأعراض الأحداث . — ومع ذلك فإن شرائع  
بلادها وتقاليدها وعرفها الخلق تفر من هذه الحاجة كل النفور ، وتمنع  
مركبتها من أحط طبقات الفلسفة المجرمين .

وما لوحظ في هذا الصدد عند الأمم المتحضرة التي صرنا أمثلة لها لوحظ  
مثله عند كثير من الشعوب البدائية .

فقد لاحظ الرحالة انتشار هذه العلاقات بين الرجال والعلمان انتشارا كبيرا  
لدى العشائر التي تسكن الجيوب الشرق لآسريا ، ومع ذلك فإن قوانين هذه  
العشائر وتقاليدها ونظمها الخلفية تحرم هذه الأمور تحريما بانا . ولا أدل على

(١) صحيح البخاري ، الجزء الرابع ، ص ١١٧ (طبعة عبدالرحمن محمد ، سنة ١٣٤٢ هـ) —

باب الخشيش من الرجال والمتحلات من النساء .

(٢) Lors de Manou XI, 175.

ذلك من أن شيوخ هذه القبائل ينصحون الشباب عقب تعميدهم Initiation بألا يأتوا عملاً من أعمال الشذوذ الجنسي .

وفي جزائر الأليوت Aleoutes ( مجموعة جزر في الشمال الغربي من أمريكا الشمالية تابعة للولايات المتحدة ) يعد السكان الأصليون أعمال الشذوذ الجنسي من كبريات الجرائم . وتوجب التقاليد على مرتكب هذا الجرم أن يكفر عن جرمه ويتطهر منه ، وذلك بأن يختار يوماً تكون فيه السماء صافية خالية من الغيوم ، ويحمل صعثاً من الأعشاب ، ويعتبر أن هذه الأعشاب قد احتملت خطيئته ، ويشهد الشمس على ذلك ، ثم يشعل النار في هذا الصعث ؛ ويعتقد أنه باحترابه قد محيت خطيئته وغفر له ما ارتكبه من إثم .

وعند السكان الأصليين لنيكاراجوا كانت توقع عقوبة الرجم على مرتكب هذه الفاحشة ؛ ولدى عشائر الشيدشاس Chibchas بمنطقة بوجوتا Bogota ( عاصمة كولومبيا ) كان يعاقب مرتكبها بالموت البطيء ؛ وذلك على الرغم من انتشارها من الناحية الواقعية انتشاراً كبيراً عند هؤلاء وأولئك .

وينشر كذلك الشذوذ الجنسي انتشاراً كبيراً في جزيرتي أنكريمان Ankisimane ونوسي - بي Nossi Be ( جزيره في المحيط الهندي في الشمال الغربي من مدغشقر عاصمتها هلميل Hellville ) . ولكن الشعب يخشع مرتكبيه ، وينظر إليه على أنه فاحش لا يقرها القانون ولا العرف الحق .

ولاحظ الرحالة رجالاً غنشين يتشبهون بالإنساء في عشائر الأندونجا Andonga ( بأفريقيا الجنوبية العربية الألمانية ) وعشائر الديا كيتي سراكولي Diakité ( بالسودان الفرنسي ) ؛ كما لاحظوا أن الشذوذ الجنسي بين الرجال بعضهم مع بعض شائع في عشائر الباناكا Banaka والباپوكو Bapukو بالكرتون وفي بلاد الزنجبار وغيرها من بلاد شرق أفريقيا ؛ ولاحظوا في الزنجبار نفسها وجود نسوة مسترجلات يتشبهن بالرجال في كل شيء . ويحاولن أعمالهم ، ويشبعن رغباتهن الجنسية المنحرفة مع نساء منحرفات انحرافاً سلبياً ؛ فإن لم يجدن هذا

الصنف من النساء عملن على التفرير لفساد عادات واستمالتهن بالهدايا وبوسائل أخرى كثيرة ، وهذا على الرغم من أن شرائع هذه الشعوب جميعا ونظمها اخلاقية تحرم ذلك تحريما باتا .

وفي بلاد النوبة ولدى عشائر الكافر والاندويجا والواشبالا والواجندا والآكريين Cafere, Andonga, Washambala, Waganda, les Nègres d'Accra ينظر إلى أعمال الشذوذ الجنسى نظرة اشمئزاز وازدراء وتوقع عقوبات على مرتكبيه على الرغم من انتشاره لديهم انتشارا كبيرا .

### عوامل الانحراف الجنسى

قد يكون سبب هذا الشذوذ راجعا إلى انحراف فطرى فى الفريضة الجنسية للفرد ، وقد يكون راجعا إلى عوامل خارجية محيطة ببعض أفراد من الشعب أو بالشعب فى مجموعه .

أما فيما يتعلق بالسبب الأول فإن الفريضة الجنسية قد تتحرف عند بعض الأفراد تحت تأثير تكوين فطرى ، فيتجهون إلى التعلق بأفراد جنسهم نفسه ، أى يتجه الذكور إلى الذكور والإناث إلى الإناث فكثير من المنحرفين من الرجال والمسترجلات من النساء الذين لوحظ وجودهم فى كثير من الشعوب والذين قد صربا لهم عدة أمثلة فى الفقرات السابقة ، يرجع السبب فى حالتهم هذه وفى حالة الأطراف المقابلة لهم فى الاتجاه ، إلى وجود هذا الانحراف الفطرى فى غرائزهم الجنسية . وقد لاحظ هولدر Holder هذا العامل فى كثير من المنحرفين فى قبائل السكان الأصليين بالقسم الشرقى بالولايات المتحدة . ولاحظ مثل ذلك الدكتور بومون Baumaun عند أهل زنجبار (١)

وقد يكون هذا الانحراف مكتسبا لا فطريا . ولكن الانحراف المكتسب

(١) V. Westermarck, op. cit. II, 440 .

يتوقف هو نفسه على استعداد قطري خاص . وقد قرر ولیم چمس أن هذا الانحراف ليس إلا مظهراً من مظاهر الشهية الجنسية . وأن هذا المظهر ، على ما يبدو ، يوجد الاستعداد له عند معظم الرجال . فإذا أتاحت له بعض الظروف الموانية نما وزعرع وأصبح شأنه شأن الانحراف القطري . ويذهب دوسوار Dessoir إلى ما ذهب إليه ولیم چمس ، ويصيف إليه أن هذا المظهر يبدو الاستعداد له وأصحا عند كثير من الرجال في مرحلة البلوغ على الأخص .

وبلاحظ أن الغريزة الجنسية حينما تتحرف هذا الانحراف تنج في الغالب إلى ما يشبه موضوعها الأصلي . فالطرف السالب في الشذوذ الجنسي بين الذكور هو في الغالب علام أمر لم يبلغ بعد دور الرجولة ، والعلام في هذه المرحلة قريب الشبه من المرأة في التكوين الجسمي و ما طبع الوجه .

وأما فيما يتعلق بالطائفة الثانية من الأسباب وهي العوامل الخارجية فإن أهمها يتمثل في ندرة الجنس الآخر . ولأننا نتحدث هذه الظاهرة عند وجود هذه الظروف حتى عند الحيوانات نفسها . فقد لاحظ بوفون Buffon أنه إذا حبست مجموعة من ذكور الطيور بعضها مع بعض أو من إناثها بعضها مع بعض ، فإنها لا تلبث أن تنشأ بينها علاقات وعمليات جنسية وتتشأ هذه العلاقات بين الذكور بعد مضي مدة أقصر من المدة التي تنشأ بعدها هذه العلاقات بين الإناث . فكثير من الشعوب لبداية التي يحدث فيها رواج الذكور بالذكور بالطفوس نفسها التي يحدث بها الرواج العادي ، على النحو الذي صرنا له عنه أمثلة فيما سبق . يرجع السبب في اتعاها هذا النظام العريب إلى ندرة فساتها واحتلال الثورين بين عددهم وعدد الذكور . فانتشار الشذوذ الجنسي في جمر تاهيتي Tahiti ( أو جزر الشركة ile de la Société ) يرجع سببه إلى أن عدد الإناث لا يكاد يبلغ الربع أو الخمس من عدد الذكور ، فتوجد لديهم امرأة واحدة لكل أربعة رجال أو لكل خمسة رجال . ويرجع السبب في هذا الاختلال إلى ما درج عليه كثير من الآباء هناك من قتل البنات عقب ولادتهن والإبقاء على الذكور . ولذلك نجد أن بعض



الشعوب لا يلجأ إلى هذا الطريق إلا في الفترات التي يحدث فيها هذا الاختلال ، ففي  
عشائر البورورو في البرازيل Bororo du Bresil لا يظهر الشذوذ الجنسي إلا في  
الفترات التي تشتد فيها أزمة النساء ويصبح الحصول على امرأة من الأماور المتعددة  
أو العسيرة على كثير من الناس .

وقد يتمثل العامل الخارجي في الفصل الشديد بين الجنسين وعدم إمكانية  
الاحتلاط بينهم ، كما هو الشأن في كثير من البلاد الشرفية .

وقد يتمثل في النظم التي نختم العزوبة على بعض الطوائف من الرجال أو تجمع  
الرجال بعضهم مع بعض وتباعد مدّة ما عن الجنس الآخر . فالمزوجة المفروضة  
على بعض رجال الدين في أوروبا وآسيا وغيرها والتي سنتكلم عنها في الباب  
السادس من هذا الكتاب ، قد ساعدت على انتشار الشذوذ الجنسي بين هذه  
الطوائف . وتجمع الشبان المحدثين بعضهم مع بعض في أثناء الخدمة العسكرية ،  
وتجمع الطلبة في أثناء الدراسة في أقسام داخلية ، وبعد هؤلاء وأولئك عن  
أهليهم وصعوبة اتصالهم بالجنس الآخر ، كل ذلك قد ساعد على انتشار هذا  
الداء بين جنود الجيش وطوائف الطلبة في كثير من الشعوب .

وقد يتمثل هذا العامل الخارجي في وجود فرق كبير في المستوى العقلي  
والثقافي بين الرجل والمرأة ، وانحطاط مستوى النساء في هذا الصدد انحطاطاً  
كبيراً بالنسبة لمستوى الرجال . فلا يجد الشاب حينئذ في المرأة شريكاً حقيقياً  
يشبع نهمه الجنسي ، بينما يجد ذلك في شاب مثله . وعلى هذا العامل يقع ضغط من  
التبعة في انتشار الشذوذ الجنسي بين الرجال عند قدماء اليونان فقد كان الفرق  
عند هؤلاء كبيراً جداً بين الرجال والنساء في المستوى العقلي ومستوى الثقافة  
العامة والمعلومات . وبينما اليوناني كان حظه كبيراً جداً من هذه الأماور كانت المرأة  
في أحط مستوى عقلي وعلمي وثقافي فقد كانت تعيش في قسم من منزل الأسرة ،  
متعزلة عن العالم ، لا تكاد تختلط إلا بالإماء والجواري ، وكانت محرومة من  
جميع وسائل الثقافة ، بل كان محظوراً عليها أن تحضر المجتمعات العامة أو تشهد

المسارح التي كانت حيثئذ من أهم وسائل الثقافة في العالم اليوناني . فلا عراة إذن أن ينظر الشاب اليوناني — وخاصة إذا كان ذا حظ عظيم من الثقافة كالشاب الأثيني — إلى المرأة نظرتة إلى مجرد جسم لا روح فيه ، وألا يجد في هذا الجسم ما يشبع نهمه الجنسي . فالنهم الجسدي في الفصيلة الإغريقية لا يتطوع إلى الجسوم وشئون المادة لحسب ، بل يتشوف كذلك إلى أمور أخرى كثيرة تتعلق بالمعاني وتتصل بعالم العقل والروح . — وعلى هذا العامل نفسه يقع كذلك قسط كبير من التبعة في انتشار الشذوذ الجنسي في الصين . وفي هذا يقول الدكتور ماتينيون Matignon : إن المرأة الصينية جامدة ضعيفة الثقافة أيا كانت طبقتها ، وسواء أكانت محصنة أم بغيا ؛ بينما الرجل تفتح أمامه سبل كثيرة للثقافة والعلم . وهو فوق ذلك مزود بروح شاعرية خيالية ؛ يمشق الموسيقى ؛ ويضطرب للشعر ؛ وتهزه العبارات البليغة . فهو يتجه إلى هذا الاعتراف أنه يجد في قربه ما يشبع نهمه الجسدي والروحي معا (١) .

## من أهم مراجع هذا الفصل

زيادة على المدون في التعليقات

Westermarck L'Origine et le Développement des Idées  
Morales T. I. (traduction française p. 440-473).

Matignon, dans : Archives d'Anthropologie Criminelle (١)  
XIV, 14

## الفصل الثالث

الانتحار الذي توجه العادات والتقاليد

على طريقة الهارا كيرى وما إليها

( الانحراف في غريزة حب البقاء )

من أنواع الانتحار نوع غريب لا يلجأ إليه الفرد بمحض اختياره بل توجه عليه أو تحته عليه في ظروف خاصة تقاليد شعبه وعاداته ، ومع غرابة هذا النوع من الانتحار فإن عدداً غير يسير من الشعوب المتحضرة والبدائية قد أخذت به .

- ١ -

مظاهر هذا النوع من الانتحار في اليابان

طريقة « الهارا كيرى »

ولعل هذا النوع من الانتحار لم ينتشر في شعب ما مقدار انتشاره في اليابان .  
طريقة الهارا كيرى Harakiri الشهيرة عندهم ، وهي التي تتمثل في الانتحار بشق البطن بحجر أو سيف تحتها تقاليدهم أو تحت عليها في حالات كثيرة .

فأحيانا كانت تسمح الحكومة للمحكوم عليه بالإعدام من طبقة المحاربين ( طبقة الساموراي Samedurai ) أن ينتحر على طريقة الهارا كيرى بدلا من أن يشنق أو يصرب بالرصاص . وكان ذلك ينطوي على تكريم المحكوم عليه .

وتقدير ما كان له قبل الجرم من ماض مجيد . وقد ظل هذا النظام معمولاً به إلى عهد غير بعيد ثم ألغى بعد ذلك

وأحياناً ينجأ إليها الفرد ؛ حينئذ في لظاهر ، وتحت ضغط العادات والتقاليد في واقع الأمر . ويحدث هذا في حالات كثيرة ولمقاصد شتى . منها أن يقصد بالانتحار التعبير عن ولائه وإخلاصه لأحد الرؤساء أو الحكام عقب وفاة هذا الرئيس أو الحاكم ؛ كأن نسان حاله يقول إنه لا يطيب له العيش من بعده . ومنها أن يقصد بذلك الإحراج الشديد على خطأ ارتكبه واحد من هؤلاء أو ارتكب ضد واحد مهم . ومنها أن يكون الانتحار وسيلة لانقضاء ما يلحق المنتحر نفسه أو يلحق أهله من حزن إذا وقع أسيراً في يد الأعداء . عقب هزيمة لحقت بحيش بلاده . ومنها أن يكون معبراً عن إرغام ذمة المنتحر وغسل شرفه بما علق به من أدى حينئذ به عن الأعداء بشاره من أحد خصومه . وقد يحدث للدلالة على أرباح المنتحر وأنه قد حقق أكبر أمانيه في هذه الدنيا وأصبح في غير حاجة إلى المزيد من الحياة ، وذلك حينئذ يتاح له أن يقتل من أهانه أو أساء إليه .

وفي جميع هذه الأحوال بعد الانتحار ، في نظر اليابانيين ، مطهراً للفرد . ومحققاً لما يبغيه منه ، ومعبراً أصداق بهير عما يريد التعبير عنه ، كما يستأهل صاحبه أن يقام له مأتم فخم ، ونحمة به أحد الذكريات . ولسمو هذا النوع من الانتحار في نظر اليابانيين كانت عملياته تجري قديماً في المعابد المقدسة نفسها . وفي هذا يقول جريفيس Grifis في كتابه عن ديانات اليابان Religions of Japan :  
« إن لوحة الشرف للعظماء والخالدون والقديسين من اليابانيين ليست مملوءة بأسماء المصلحين ولا المحسنين ولا مثلى الملاحي . والمصحات ، بل بأسماء طوائف المنتحرين على طريقة الهارا كيري » (١) .



## مظاهر هذا النوع من الانتحار في الصين

وكان هذا النظام نفسه متبعاً في الصين ، بل لا تزال له رواسب عميقة في هذه البلاد إلى الوقت الحاضر ، ولكنه يطاق على وجوه تختلف قليلاً في التفاصيل عن الطرق التي كان يسير عليها اليابانيون . فالانتحار تحدث عليه التقاليد والعادات الصينية وتعد شرفاً كبيراً للمتحررين ولذكرياتهم في حالات كثيرة ولعدة مقاصد . فينتحر الجندي أو الصابط أو الموظف عقب هزيمة حلت ببلاده أو إهانة لحقت بالإمبراطور ، وينتحر الشاب حينما يلحق أحد شيوخ أسرته إهانة أو مكروه من أحد الناس ويعجز هو عن أن يثأر له ، ويقصد هؤلاء وأولئك بانتحارهم هذا التعبير عن أنهم قد أصبحوا لا يحتملون الحياة بعد الذي حدث ولا يحتملون ذكرى هذه الهزيمة ولا هذه الإهانة . وتنتحر المرأة عقب وفاة زوجها أو خاطمها للتعبير عن إحلاصها له وأنه لا معنى للحياة عندما بدونه . ومع أنه قد صدرت عدة قوانين تحظر هذا النوع الأخير من الانتحار ، فإن العادات الشعبية لا تزال متمسكة به ، ولا تزال تنظر إلى الأرملة أو المحطوبة التي تنتحر عقب وفاة زوجها أو خاطمها نظرة إكبار وتعظيم .

ولا تقتصر نتائج هذا النوع من الانتحار في الصين على ما يقال المنتحر في مثل هذه الأحوال وينال دكراه من إجلال ، بل قد يكون له بجانب ذلك في نظر القانون وفي نظر الناس نتائج أخرى نصيب بهصر لأحياء . فالقانون يلقى أحياءاً المسئولية الجنائية على الشخص الذي كان عمله سبباً في الانتحار . والعقيدة السائدة أن أرواح المنتحرين تثار لهم من تسدوا في انتحار أصحابها ، فتدفعهم دفعا إلى محاكمتهم ، أو تتولى هي عنهم حفا إن لم يصيحوا إلى هذا الدافع ويقتلوا أنفسهم بأيديهم .

ويفينا تنظر التقاليد الصينية إلى هذه الأنواع وما إليها من الانتحار نظرة  
لكبار، تنظر إلى ما عداها نظرتها إلى أمور حسيية صغيرة. ففي كتاب من  
كتبهم المقدسة أن الدين يتحرون لفرط ولائهم وإخلاصهم للإمبراطور  
أو برا بآبائهم وأهلبيهم وأزواجهم وأصدقائهم، تصعد أرواحهم إلى عليين،  
وأما الذين يتحرون في أزمة غضب أو يأس، أو خوفا من نتائج ما اقترعوه من  
جرائم يعاقب عليها القانون بالإعدام، أو رغبة في أن يسبب انتحارهم صررا  
ببى، فسيكون نصيب أرواحهم العذاب الأليم في مناطق الجحيم (١).

### — ٣ —

## مظاهر هذا النوع من الانتحار

### عند الهنود

وفي كثير من بلاد الهند كان يعد من مظاهر البر والوفاء أن تنحر المرأة  
المتوفى عنها زوجها بأن تحرق نفسها. وظل هذا التعيد سائدا لديهم إلى عهد  
قريب، ثم استبدل به في بعض بلاد الهند انتحار تمثيلي. فكان يكتب عفت  
وفاء الزوج بأن يؤتى بكومة حطب وتشعل فيها النار، ويؤتى بـرجة المتوفى  
وتعد على هذه الكومة، ويطل كذلك حتى يقرب الله منها (٢).

وقد ساد كذلك الاعتقاد في بلاد الهند أن الانتحار إذا قصد به التقرب إلى  
الله أو النصحية بالنفس في سبيله يصح في ذاته عبادته دينية على أن يتم في صورة

(١) Cité par Westermarck, op cit. p. 233, 234.

(٢) انظر لسطور ٧ — ١٠ من صفحة ٨٥ من الجزء الأول. — هذا وقد وصف  
« الهنود » في السطر الثامن من هذه المقالة بوصف « آخر »، وهو « قى »، ووصفه  
« الهنود » فقط بدون وصف لأن المقصود هناك سكان الهند لا السكان الأصليين لأمريكا  
الشمالية الذين كانوا يسمون « الهنود الحمر ».

من الصور التي تحددها التقاليد والعادات . ومن هذه الصور أن يصوم الشخص عن الطعام والشراب حتى يموت ؛ وأن يقطع جسده كله بروت البقر ويشعل النار فيه ( يلاحظ أن البقر حيوان مقدس في الديانة البرهمية الهندية ) ؛ وأن يقر نفسه في الجليد حتى يفضى نحيبه ؛ وأن يعرق نفسه في مصب من مصبات الجنح Gange في أطراف بلاد البنغال على أن يظل بعدد خطاياها ويردد عبارات التوبة والتندم حتى تفرسه الفماسيح ؛ وأن يذبح نفسه في مديته اللاه آباد حيث يلتقي نهر الحنج نهر دجومنا Jumna ؛ وأن يظل على قمة من قمم جبال الهملايا حتى يموت من البرد ؛ وأن يفرق نفسه أو يذفن حيا إذا كان مصابا بالحدام أو بمرض لا يرجى برؤه على أمل أن تنتقل روحه التي تطهرت بهذا الانتحار إلى جسم معاق سليم ؛ وأن يقدف نفسه من شاطئ ليكهر بذلك عن يثانته أو ليصبح قديسا في الحياة الأخرى أو ليقى نندرا نندره أمه ؛ وأن يسبح الهمي ( طبقة البرهمنين هي طبقة رجال الدين ، وهي أرقى طبقة في الديانة البرهمية ) لتشار روحه من أساء إليه أو من أحد خصومه (١) .

وتحكى أساطيرهم حوادث كثيرة من هذا الانتحار المبرور ونتائجه المحققة . فمن ذلك أن أحد الحكام قد أراد أن يفرص على طبقة البرهمنين في مقاطعته صربيه للدفاع الوطني ؛ فثارت طائفة من كبار أغنيائهم ، وحاولوا أن يشوه عن عزمه ، فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، فانتحروا جميعا على مرأى منه بشق بطونهم بالخناجر ، مرددين اللعنات على هذا الحاكم مع أنفاسهم الأخيرة ؛ فحصر هذا الحاكم دياره وآخرته ، ونار عليه شعبه وأقصاه عن منصبه . ومن هذه الأساطير أن إحدى البرهمنيات قد غرر بها أحد الحكام حتى نال منها ماربه فأحرق نفسها وأخذت في ساعاتها الأخيرة نصب اللعنات على هذا الحاكم وأسرتة ، فاستجاب الله دعائها ، وأنزل عليهم سحطة وسط عليهم الكوارث والمصائب ، وأصطبرهم إلى الرحيل عن البلاد تاركين ديارهم وأموالهم ؛ ومن ذلك

الحين أصبح قبر هذه البرهمية صريحا مقدسا يزوره الناس ويؤدون فيه صلواتهم ومناسكهم . ومن هذه الأساطير كذلك أن أحد الحكام قد منع قطعة أرض لأحد البرهمنين ، فبنى هذا البرهمنى مسكنا عليها . ثم رجع الحاكم في هيته فهدم المنزل واسترد الأرض ، فذهب البرهمنى إلى بيت هذا الحاكم وظل جالسا أمام بابه صائما عن الطعام والشراب والعطاء حتى مات من الجوع والعطش والبرد ؛ فتأثرت روحه من الحاكم فأهسكته ودمرت بيته .

وقد ساد في الهند كذلك تقليد غريب يطلق عليه اسم « دهارنا » وذلك أن المدائن إذا ما طله مدينته ، يذهب إلى بيته ويتهدده بأن يظل جالسا أمام بابه حتى يموت من الجوع والعطش والبرد إذا لم يوفقه دينه . وبعد هذا اعنف إجواء يمكن أن يلجأ إليه الدائن الممطول . ويتوجس المدين خيفة من نتائج هذا الانتحار ، فلا يدخر وسعا في سداد ما عليه . وخاصة إذا كان الدائن برهمنيا ، يحشى من بطش روحه الشديد إذا أنفذ ما هدد به .

## مظاهر هذا النوع من الانتحار

### عند اليهود

ومع أن التعاليم اليهودية السائدة بغنى الانتحار جننا وانعظاظا وكهرا انا بنعم الرب ونعديا لحدوده ، وتوقع بعض عقوبات على جسم المنتحر ، فترك جسده منقاة حتى غروب الشمس ، وتحرق رثاه والحداد عليه وليس السواد من أجله ، هذا إلى ما يدحر لروحه من عذاب بعد الموت ، مع ذلك نرى أن التللود — وهو من أهم كتب التشريع لديهم<sup>(١)</sup> — يقتصر الانتحار ، بل يكاد يعدم عملا

(١) انظر كتابنا فقه العامة ص ٤٨ من الطبعة الرابعة .



مجيدا ، إذا أقدم عليه قائد جيش يهودى بعد هزيمته حتى لا يقع أسيرا و يلقى  
المهانة والمضيحة على يد العدو ، أو إذا أكره يهودى على الارتداد عن دينه فأثر  
الانتحار على الكفر بربه<sup>(١)</sup> .

## مظاهر هذا النوع من الانتحار

### عند قدامى اليونان والرومان

وقد انتشر عند قدامى اليونان والرومان مذهب فلسفى يجذب الانتحار إذا  
أصبحت الحياة مصدر يؤس و شقاء ، وهو المذهب الرواقى Stoicism<sup>(٢)</sup> .  
وفى هذا يقول الفيلسوف الرواقى سنكا Senèque<sup>(٣)</sup> : لا بلوم البائس  
فى هذه الحياة إلا نفسه . فى استطاعته أن يصع حدا لبؤسه بالقضاء على حياته .  
فكما أن الفرد يختار الدفينة التى يسبح عذابها ، والموت الذى يسكنه ، ويحرص  
على أن يكون كلامه محققا لراحته ، كذلك يدعى أن يختار لنفسه طريق الموت  
الذى يكمل إنقاده . فليس ثمة بائس ولا شقى فى هذه الحياة إلا وقد رضى لنفسه  
هذا القوم وهذا الشقاء . فندمش أبها البائس إذا كان يروىك هذا البؤس ،

Cf. I Samuel XXXI, 4, cite par Westermarck II, 237. (١)

(٢) مؤسس المذهب نرواقى هو زنون السيتوم Zenon de Citium وهو  
فيلسوف يونانى ولد سنة سبعمائة فى نهاية القرن الرابع من المسيح . وقد كان انتحارا للمذهب  
الرواقى عند الرومان أو سمع كثيرا من انتشاره فى بلاد اليونان التى كانت مهد نشأته . وقد  
اعتنقه فى بلاد الرومان كثير من فلاسفتهم ، بل اعتنقه بعض القياصرة أنفسهم . ومن أشهر  
القياسرة الذين اعتنقوه مارك أوريل Marc-Aurèle (الإمبراطور من ١٦١ إلى ١٨٠ م) .  
(٣) من أشهر فلاسفة الرومان ومن أعلام المذهب الرواقى ولد فى السنة التى أنه لىبلاد

وتوفى سنة ٦٦ م .

أما إذا كان لا يعجبك فأمامك السبيل مهدا لأن تعود إلى الأرض التي منها خلقت (١) .

وقد ساد عند اليونان والرومان ان بعض المحكوم عليهم بالإعدام ، وخاصة في بعض الجرائم الدينية والوطنية ، يكرهون على الانتحار بتجرع السم أو قطع الشرايين . فسقراط قد حكم عليه بأن يتجرع السم ، وسنكا قد حكم عليه نيرون بأن يقطع شرايين يده بنفسه .

## - ٦ -

### مظاهر هذا النوع من الانتحار عند قدامى رجال الكنيسة المسيحية

وكان القدامى من أبناء الكنيسة يحبذون الانتحار في بعض الأحوال وخاصة في حالتين لإحدهما أن يتحرر المسيحي حفاظا على دينه إذا أكره على الارتداد عنه ؛ وثانيهما أن تلتحرر المسيحية البكر حفاظا على مكانتها إذا رأت نفسها مهددة برواها في السباح . وفي هذا يقول لاكتانس Lactance (٢) : « إنه لمن أكبر المعاصي أن يقتل المرء نفسه . ولكن عند ما يرى المسيحي نفسه مهددا بالنتكال أو العذاب إن لم يرتد عن دينه فأولى له في مثل هذه الحالة أن يصنع حدا لحياه بيده لا بيد الكفار . » ويروي يوزيب Gusebe (٣) في كتابه عن تاريخ المسيحية

(١) Sénèque. Epist. 15 et suiv. cité par Westermarck, op. cit. II, 239.

(٢) من كبار رجال الكنيسة المسيحية ، ولد حوالي سنة ٢٥٠ ومن أشهر مؤلفاته : « من صمم الله » de l'œuvre de Dieu و « اسم الإله » Les Institutions divines

(٣) من كبار رجال الكنيسة المسيحية ومن أشهر المؤرخين في تاريخ المسيحية وعظمها ، ولد حوالي سنة ٢٦٥ وتوفي حوالي سنة ٣٤٠ .

حالات كثيرة لمسيحيات وجدن عفافهن مهددا فانتحرن حفاظا عليه ، وينظر  
هو في مؤلفه هذا ، كما ينظر غيره من قدامى رجال الكنيسة المسيحية في  
مؤلفاتهم ، إلى هذا العمل بظرة عطف وحنان إن لم تكن نظرة رصاص وقبول .  
بل إن بعض هؤلاء المنتحرات قد سجلت أسماءهن في لوحة الشرف بين كبار من  
خلد التاريخ أسماهم<sup>(١)</sup> .

ولكن الكنيسة المسيحية في عصورها التالية قد حرمت الانتحار تحريما بيا  
أيا كان الدافع إليه ، وعملته من كبريات الجرائم الدينية بل جعلته أشد جرما  
من القتل العادي<sup>(٢)</sup> .

## مراجع هذا الفصل

لم نكتب هذا إلى دراسة الانتحار على العموم ، وإنما قصدنا إلى عرض أمثلة لنوع واحد  
غريب من أنواعه وهو الذي توجه لهاديات وإقالات . ومعظم مراجع هذا النوع مذكورة  
في التعليقات .  
وأما مراجع الانتحار على العموم وبيان أسبابه ووسائل إشارته في محبة الأمم وحضائنه  
والقوانين التي يحضنها فنألفها .

Durkheim : Le Suicide

Halbwachs : Les Causes du Suicide

Bayet (Albert) : Le Suicide et la Morale.

Westermarck : op. cit. T. II.

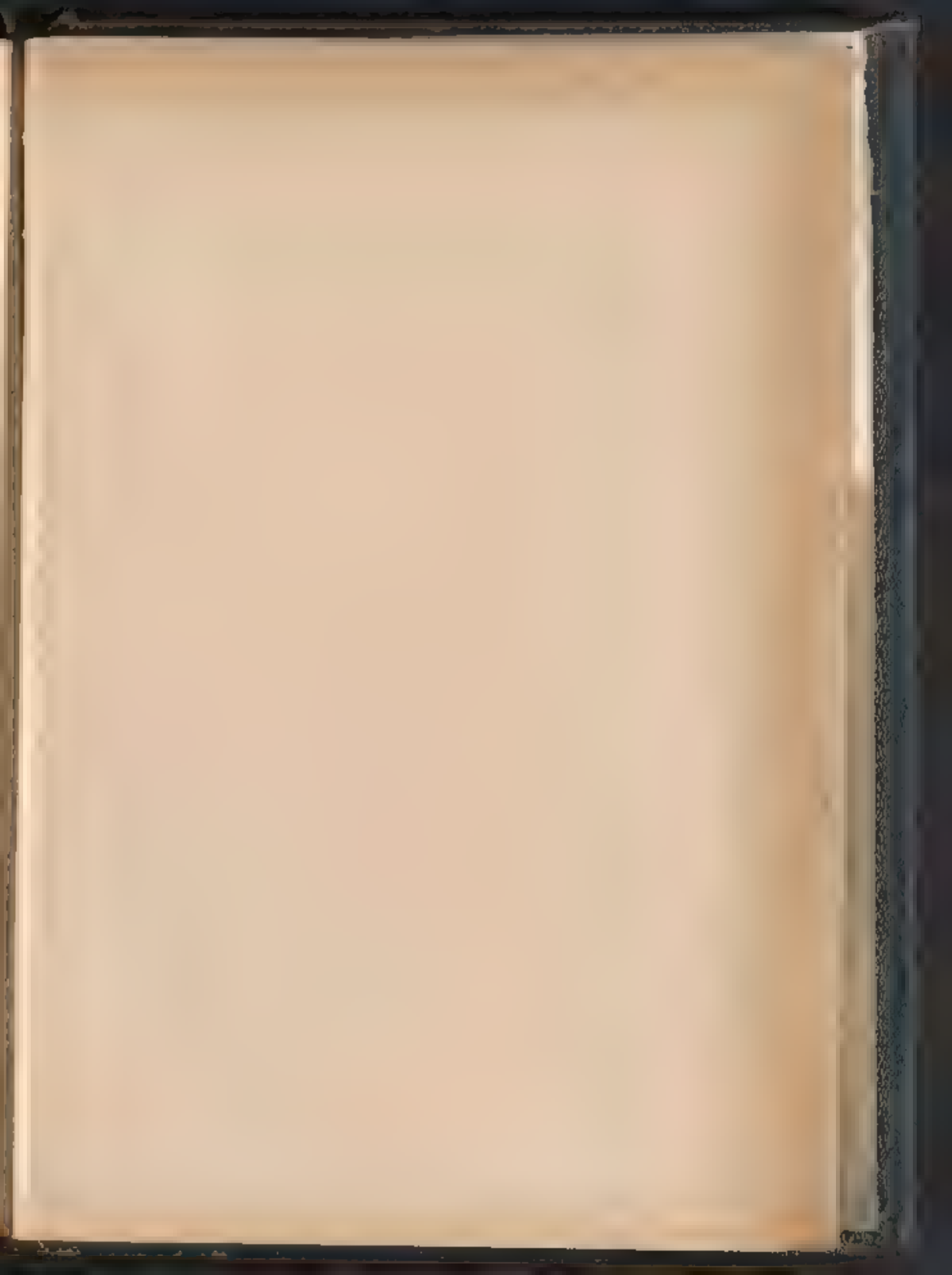
Cite par Westermarck, op. cit. II, 241 (١)

(٢) انظر مؤلفات سانت أوجيستان وسان توماس وامبارت مدفوعة عنهما وعن غيرها في

Westermarck, op. cit. II 242 et suiv.

# البَابُ السَّادِسُ

## من غرائب التقاليد والعادات





## الفصل الأول

### بعض مظاهر غريبة لمهارة البدائيين

من أهم مظاهر النشاط الاجتماعي التي تبدو فيها مهارة البدائيين ثلاثة مظاهر .  
الصيد والفروسة والقتال .

وهذه الواحى الثلاث تربطها بعضها ببعض روابط وثيقة حتى تبدو كأنها  
مجرد مظاهر لنوع واحد من النشاط . فهي قائمة على دعامة واحدة وتشبع نزعة  
واحدة من رغبات الإنسان فالصيد والغنائم كلاهما ينطوى على الإغارة  
والعدوان . وكلاهما يرمى إلى التغلب على العدو أو الغنيص وأسره أو اهلاكه  
أما الفروسة فلم تكن غاية في ذاتها وإنما كانت مجرد وسيلة لهدم الأعداء .

وكانت هذه الأمور عند كثير من البدائيين ، وخاصة عند السكان الأصليين  
لأمريكا الشمالية ، وهم الهنود الحمر ، من أنبل الأعمال الإنسانية جميعا وأجدها  
منزلة وأعظمها خطراً .

ولذلك احتصر بها لرجال دون النساء ، بل كان نشاط الرجال مقصوراً  
عليها وحدها . أما ما دون ذلك من الأعمال في داخل المنزل وخارجه فقد كان يقع  
على كاهل الجنس الضعيف .

وقد نبه ساكنو السهول من الهنود الحمر في شؤون الصيد والفروسة والقتال  
أيما نبوغ ، وجردوا أعمالها كل التجويد ، وبلغوا في مصيادها منزلة منفعة التطير ،  
حتى تميزت بها شخصيتهم . وكان لها أكبر شأن في تاريخهم من قبل الاستعمار  
لأوربي ومن بعدهم . وكانوا يعالجونها بتماهيح وطرق بمنة بارعة ، ويأتون فيها  
أعمال غريبة خارقة للعادة حار الباحثون في تفسير كثير منها حتى لقد ظن بعضهم  
بها من ضروب السحر .

فالمسائل التي سنعالجها في هذا الفصل تجمعها إذا عدة صفات مشتركة ،  
وتربطها عدة روابط وثيقة ، وبأحد بعضها بحجز بعض .

وسنحرص فيما يلي لأم ما يستوقف النظر ويبحث على الخبرة والنسائل  
من مهارة هؤلاء البدائيين في هذه النواحي الثلاث .

- ١ -

مظاهر غريبة من الصيد عند البدائيين

من مظاهر الصيد الممعة في الغرابة عند البدائيين ما كان يتخذ الهنود الحمر  
من طرق في صيد الحصان والجماموس الوحشيين .

• • •

أما فيما يتعلق بالحصان الوحشي فقد كانت عمية صيده عمية فردية يعالجها  
شخص واحد . ولا تقتضى تعاون جماعه كما كان الشأن في بعض الحيوانات  
الأخرى كالجماموس الوحشي وما إليه . فكان الصائد<sup>(١)</sup> يخرج وحده ممتطيا  
صهوة جواد مستأنس ، ويعتمد أن يخرج عاريا حتى لا تعوق الملابس حركته  
وما كان يحمل معه من آلات الصيد وحاجات الزاد إلا حباله تدلى على ذراعه  
الأيسر ( وكانت تصير في المادة مرليف أو جلد ونتهي بطوق معدني أو بأشولة  
يمر فيها الطرف الآخر للجلجل . فيتكون في آخره طوق يانف حول عنق القنيس

(١) الصرعة التي سدد كرها كانت ممتدة على الأخص عند عشائر الشيب *Cheyennes*

في جنوب - يسوري . وقد لاحظها اسلامه كالان *Gallin* الذي يعد من أعرق الباحثين  
في حياة الهنود الحمر وأدقهم ملاحظة لشئونهم .

ويتسع أو يضيق حسب الحاجة ) وسوطا في يده اليمنى ، وخرجا صغيراً فوق كتفه يحفظ فيه كمية من جريش إلى هي زاده في سفره الطويل الذي قد يستغرق عدة أيام ، فكان يتبغ هذا إلى ويستحب من حين لآخر كلما أحس وطأة الجوع

يبحث الصائد عن آثار فطيم للحيول . ويقصر هذه الآثار حتى يقرب من الفطيم . فيركض فرسه مندفعاً نحوه حتى يتوسطه أو يكاد ، فيضطرب نمل الفطيم ويسوده الدعر وتشمله العوصى . وفي أثناء ذلك يكون الهندي قد ألقى نظرات حادة حاطمة على مختلف أفراده ووقع اختياره على واحد منها يتوهم فيه ما يروقه من صفات .

وحينئذ يترجل الصائد ، ويترك فرسه المستأنس يسير وراءه . ويأخذ في تعقب الفطيم ، متجها دائماً شطر الحصان الذي اختاره . فيتعقب الفطيم منه في صورة لا أهم عن شدة الخوف . إذ يحس أفرادُه أن سرعه من يتعقبها ليست شيئاً مذكوراً بجانب سرعتها ، وأنه لذلك لن يستطيع سبيلاً إلى دركها ، فيفقد في نفسها (١) . وتقدم من حين لآخر محذرة في هذا المخلوق الضئيل البطل الذي يتمقبها ، ويستهيها في ركضها ووقوفها نشاط المرح واللعب وحب الاستطلاع والاستحفاف بالحصم والسخرة منه أكثر مما يستهزأها الخوف أو يثيرها الانزعاج .

ولكن الهندي لا يأبه بما توجهه إليه من سخرة أو اردراء . ويتابع سيره بخطوات منظمة على وتيرة واحدة ، متوسطة السرعة بين الهويين والمدور . وكلما التقى بالفطيم اتجه شطر الحصان الذي وقع عليه اختياره ووجه إليه نظرات نافذة مريبة . فلا يلتفت هذا الحصان بعد عدة التفاتات من هذا القبيل أن تعقب منه المخاوف ، ويوقن أنه مقصود بالذات ، فيتمسك الذعر ، ويجهل ثم ينبت

(١) الحب حريف من عدو الخيل وهو حطو صيغ دون الحق . وقصد في حبه قصداً توسط ولم يحاور الحد . ومنه قوله تعالى : « وأقصد في مضيك » وقوله : « لو كان عرساً قربها وسفراً فاسداً لا تبعوك » .

عن قطيعه ، ويمدو بأقصى سرعته ، ويتابع عدوه شوطا بعيدا ، ثم يقف طائفا  
أنه قد بعد عن الخطر . ولكنه لا يكاد يلتفت وراءه حتى يبلح الهندي خلفه  
يسير بخطواته الهادئة الوئيدة . فينمر الحصان ويزيد من سرعة عدوه ومن مسافة  
شوطه حتى يوفن أنه قد أصبح من المستحيل على الإنسان أن يدركه ، ويرجع  
بصره وراءه رجوع المزهو بالتصاذه ، فيقلب إليه البصر خاسئا وهو حير ،  
إد يبلح الهندي قاب قوسين منه أو أدنى .

هذا . والهندي يمشي على الأرض هونا ، لا يغير شيئا في خطواته الوئيدة ،  
ولا يزيد في سرعته التي لا تذكر بجانب سرعة الحصان .

فأى سحر هذا الذي يستخدمه الهندي حتى يقطع بمشيته الهادئة من المسافات  
ما يقطعه الحصان بعدوه السريع مع اتحاد الزمن الذي يستغرقه المتسابقان ؟

لا يستخدم الهندي في ذلك شيئا من السحر ، ولكنه يستخدم العلم بطرائق  
الحيوان ، ويصيد من خبرته وملاحظته لأساليب الحصان في عدوه . وذلك  
أن كثيراً من كبار الحيوانات الثديية كالخيل والوعول وما إليهما لا تسير  
في عدوها على خط مستقيم ، ولكنها ترسم أفواصا وأصاف دوائر تنصل  
حافاتها بهذا الخط . فهي في كل شوط من أشواطها تبدأ من نقطة في هذا الخط  
وتنتهي بنقطة أخرى عليه ، ولكنها تسلك أبعد الطرق لقطع المسافة بين هاتين  
النقطتين ، فتقطعها في خط منحن واسع ترسمه في العالم على مسار الخط المستقيم .  
فالهندي يعرف ذلك ، ويعرف أن حصانه سينتهي به المطاف في كل شوط  
من أشواطه إلى الخط المستقيم الذي بدأ عدوه منه . فلا يكبد نفسه مشقة الجري  
وراء الحصان ولا متابعتها في خطواته المنحنية ؛ وإنما يسير بخطواته المنزلة الهادئة  
في الخط المستقيم ، موقفا أنه على هذا الخط سيجمع الشكيتان ، وسيلتقي لا محالة  
بقنيصه . فالمسافة التي يقطعها الهندي في سيره المستقيم للوصول إلى نقطة  
ما ليست شيئا مذكوراً بجانب المسافة التي يقطعها الحصان في سيره المنحرف  
ل للوصول إلى النقطة نفسها . والفرق بين المسافتين يعادل الفرق بين سرعتين .

فلا يكاد الحصان يصل إلى هذه النقطة بعده السريع حتى يكون الهندي قد بلغها بخطواته الوثيدة .

ومن هنا يتبين السبب الذي من أجله يؤثر الهندي في الغالب أن يعالج عمليات هذا الصيد راجلا ويترك فرسه المستأنس يسير وراءه : لأنه يخشى إن عالجها راكبا أن يستسلم فرسه المسأنس لطبيعته ومهجه العظمية في العدو ، ويندفع في متابعه الحصان الوحشي في سيره المنحرف ، فيحقق في إدراكه ، لانحداد المسافة التي يقطعها كلاهما مع تفوق الوحشي على المستأنس في السرعة حاله الدرع المستولي عليه من جهة وعدم وجود ثقل فوق ظهره من جهة أخرى .

وبعد عدة ساعات يدب الضعف والوهن إلى الحصان الوحشي ، ويتبين الهندي ذلك من كثرة وقفاة وتتابعا وفصرا مده إلى يستغرقها كل شوط من أشواطه . وحينئذ يبحث الهندي خطواته حثا خفيضا ، في حين تشتد مظاهر الإعياء على الحصان شيئا فشيئا ، فتناقص مسافة كل شوط من أشواطه ، حتى لاتتجاوز بضع عشرات من الأمتار وتطول مدة وقفاة للراحة بين كل ونبه وأخرى . وبطل الهندي سائرا على وبرته . مع حث جميع خطواته في هذه المرحلة ، وتتناقص المسافة التي تفصله عن الحصان في كل وقفة من وقفاة شيئا فشيئا حتى تصبح بضعة أمتار .

وحينئذ تتدافع الحوادث وتسرع نحو نهايتها ، فيطول توقف الحصان بين كل شوط وآخر ويرتفع قمعه ونحيطه (١) ، والهندي كالظل يلاحقه غير تارك له فرصة للراحة ، ولا وسيلة للاستنجام . فيجمل الحصان جملة الأخيرة ، ولكن لا تطاوعه في هذه المرة على العدو ساقاه المرهقتان ، فيقف فجأة حيث يكون الهندي على بضعة أمتار منه .

(٢) أهم صوب يردده الفرس من محربه إلى اعان ويكون من بعده من شيء ينبغي ،  
والصوب صوب الفرس من الإعياء ، ويكون من صدر إلى الخلق .



فيطىء الهندي في سيره ، ويتقدم نحو الحصان بخطوات متزنة جريشة . ثم يتناول حباله ، ويمسك بطرفها المرسل في يده ، ويقذف طرفها المعقود نحو قبضه في رمية سريعة ماهرة لا تخفق ولا تظيش . فإذا طوى الحباله حول رقبة الحصان ، وإذا بقطر هذا الطوف بصيق شيئا فشيئا حتى ليكاد يعصر حلقه عصرا .

• • •

وأمل الهود الحر قد اقتسوا هذه الطريقة في متسامة قبضهم عن بعض الحيوانات المفترسة وخاصة الدب والدب . فالدب مثلا ينقب فريسته بخطوات متثاقلة ، ولكنها منطمة ، تسير على وثيرة واحدة ، لا تنقص سرعتها ولا تزيد . بينما تفهم العريسة محتاجة خطوات سريعة لا تذكر بجانبها خطوات الدب . ولكنها لا تلبث بعد بضع ساعات أن تنفث فواها ، وتصف حركتها . ويكون الدب في أثناء ذلك قد قطع خطواته الوثيدة المرحلة نفسها التي قطعها فريسته بخطواتها المحتاجة السريعة وذلك لأنه يسير على خط مستقيم ، بينما تسير هي في أوصاف دوائر تصل حافاتهما هذا الخط ، فلا يهترقان إلا أيلتقيا . ثم يهترقان ويتفان مرة أخرى . وهكذا دواليك . حتى يلتقيا في وقت سيكون فيه العريسة قد نالها الوهن ، وأحد منها الإعياء . كل ما أحد لطول المسافات التي قطعها في هذه الأفراس : في حين يكون الدب لا يزال موهور القوى لقصر المسافة التي قطعها ، ولسيره بخطوات وثيدة مريحة . وما هو إلا أن يثب عليها وثمة واحدة حتى تسلبها المنون إلى ذراعيه الجاربين

\*\*\*

ولا تكاد الحباله تأخذ برقبة الحصان حتى تشد نائره ، فيرتفع بخير . وأصطلك أسنانه ، وينفث معراة ، وتبرز عيناه . وتقدفا بالشرر . ويضرب بقوائمه ضرب المدحرج في مختلف الجهات .

ولكن الهندي لا يأبه بهذا كله ، ويتقدم إليه رابط الجأش ، ويمسح بيده على بعض أجزاء جسمه ، فيدلل له الحيوان ، ويتم له إخضاعه .

وفي فجر اليوم التالي ينقلب الهندي إلى أهله فرحاً بما آفاه الله عليه من غنيمة ،  
ممتطياً صهوة جواده الجديد الذي تم استئثاره في بضع ساعات ، ويقود وراءه  
جواده القديم .

\* \* \*

هذا ، وليس من بين الأعمال التي يأتينا الهندي في صيده ما هو أدعى للدمعة ،  
وأعسر على العظم ، وأشد أن يكون من الأور المخافة للعامة ، من موهبه الأخير  
في صيد الحصان الوحشي . إذ يتم له استئثاره بمجرد الاقتراب منه وامرار يده  
على بعض أجزاء جسمه . لجميع الأعمال الأخرى ، على ما فيها من حدس ومهارة ،  
قائمة على ما أماده الهنود الحر من تجاربهم وحبرتهم بطرائع الحيوان ، أو على  
مخاكتهم لما يتحده بعض السباع من مناهج في الحصول على قصصها . أما أن يتقدم  
الهندي نحو حيوان منوحش وهو في غنوان ثورته وأشد حالات دعره وهياجه  
فيلسه بيده لمسا خفيها ، فإذا هو في لمح البصر هادي مطمئن مستأنس ودبيع ،  
فهذا ما تخار في تأويله العقول .

وقد حار الباحثون في تأويل هذه الأعمال وما إليها . حتى لقد رأى بعضهم  
أنها من ضروب السحر والإيجاء أو الترويم المغناطيسي وما إلى ذلك من القوى  
المنصلة بما وراء الطبيعة أو بالرواحي الخفية من النفس .

فهم يقررون أن هذه القنود قد بلغت لدى هؤلاء البدائيين مهتما كبيرا ،  
وأنهم كانوا يلجأون إليها في كثير من شئون حياتهم ، وأن كبار سحرتهم  
كانت لديهم عن فهم أمرار خطيرة ما كانوا ييوجون بها إلا لثفر قليل من صعوبة  
تلاميذهم ومريديهم ، وأنهم كانوا يأتون أعمالا تخير عقول الأوروبيين . القوة  
تأثيرهم على كثير من الحيوانات - لأن هذه الظاهرة لم تنكر في الحقيقة مقصورة  
على الحصان ، بل كانت تتحقق كذلك في حيوانات أخرى كثيرة - لا بد في  
نظر هؤلاء أن يكون مرجعها إلى السحر أو إلى تدخل قوى خارجة عن الطبيعة ؛  
إذ لا يمكن تأويلها في نظرم عن طريق آخر .

وثمة شواهد أخرى كثيرة تدل على أن هؤلاء الهنود مزدودون ببعض قوى واستعدادات لا نظير لها بين العاديين من المتحضرين . فقد ثبت أن كثيرا منهم قد بلغ مبلغا كبيرا في شئون التنويم المغناطيسى ، فيستطيع بسهولة أن ينوم نفسه أو ينوم غيره ، ويتحقق في أثناء ذلك على يديه أو يدي وسيطه أمور خارقة للعادة عن طريق الإيحاء للغير أو الإيحاء الذاتي . وثبت كذلك أن كثيرا منهم صيئون حيرته لأن يكونوا وسطاء من الطراز الأول في عمليات التنويم المغناطيسى .

ولعل هؤلاء الدائيين قد اكتسبوا هذه القوى السحرية والمغناطيسية من محبة التعميد Initiation التي كان يجتازها كل فرد منهم عند ما يبلغ سنا معينة حتى يلتحق بالجمعية الدينية ويضع على جفائياها وأسرارها . فالطقوس المعقدة التي كان يصنع لها في أثناء التعميد ، وأرواح العذاب والآلام التي كان يتختم عليه ن يدوقها مختارا ، والاقطاع عن منع الحياة ، وملازمة الصيام حتى عن الكلام أحيانا ، والعبادات الخفية التي كان لزاما عليه أدائها في مختلف ساعات الليل والنهار ، وحركات الرقص الديني العنيف ، والآعاني المؤثرة التي كان يرددتها أوراده ، كل أولئك كان من شأنه أن يجرده شيئا فشيئا من مادته ، ويوفظ روحه الروحية ، ويكسبه قوى خاصة تتجاوب مع بعض الكائنات وطواهر الكون وتؤثر فيها عن طريق الإيحاء والمشاركة الوجدانية وما إليهما . والحيوانات من أشد الكائنات أثرا بالإيحاء . ومن أدقها إحساسا بمظاهر المشاركة الوجدانية . ألم تر إلى الكلب أو القط مثلا كيف يتجذب نحو بعض المرباة من الأناس والحيوان ، فيشعر بحوهم بالاطمئنان في حين يفر من بعضهم . ويحس حيائهم الخوف والاذعاج ؛ بسبب أن يكون في مظهر هؤلاء ولا أولئك ما يدعو إلى المملك الذي سلكه حيائهم . فعمل التفاعل بين القوى الروحية والمغناطيسية التي يكسبها الهندي في أثناء مرحلة التعميد ، وبين الشعور الخفي للحيوان ، وقابليته للتأثير بالإيحاء وشده إحساسه بالمشاركة الوجدانية . . . عمل هذا التفاعل هو

الذى يذلل للهندي وسائل التأثير في الحيوان .

ويرى فريق آخر أن الهندي مزود بحواس مشبهة لحواس بعض الحيوانات ولا نظير لها عند المتحضرين من نبي الإنسان ، وأن هذه الحواس هي التي يستخدمها في إدراك ما يحول بخاطر الحيوان وهي التي تنجح له وسائل التأثير عليه . وذلك أن الحيوانات مزودة بحواس غريبة لا نظير لها عند الإنسان المتحضر . ومن ذلك خاصة الاهتداء *Sens de l'orientation* التي يوجد لدى طائفة كبيرة من الحيوانات والطيور والحشرات كالحصان والخنزير والكلب والهام والنمل والفحل . فهذه الحيوانات لا تصل طريقها إلى مآزلها مهما بعدت عنها أو أبعدت . ومن ذلك أيضا الإحساس ببعض الطواهر الجوية والجيولوجية وتسجيلها قبل حدوثها أو في أثناء حدوثها . فجميع الحيوانات تقريبا تحس الهزات الأرضية قبل حدوثها .

غير أن هذه المروى التي يتبع نطاقها بين الحيوان والإنسان المتحضر تتصل بالكل الاتصال أو تتقدم فيه وبين الإنسان البدائي . فمعظم هذه الفرائز والحواس التي يمتاز بها الحيوان عن الإنسان المتحضر ، لها أشباه وأصاثر عند البدائي خاصة الاهتداء وإدراك الطواهر الجوية والجيولوجية قبل حدوثها ، وقوة الشم ... كل ذلك يتوافر لدى البدائي في درجة من العدة والقوة لا سكاك نخسف عن درجته لدى الحيوان . فقد يكون بعض الحواس التي لا نظير لها لدينا هي التي يستخدمها الهندي في إدراك ما يحول بخاطر الحيوان ، وهي التي تنجح له وسائل التأثير عليه أو قد يكون التجارب بين بعض الحواس الخفية عند الهندي ونظيرها عند الحيوان هو الذي يؤلف بين نفسيهما ، ويحقق بينهما التفاهم والتعارف والوثام فالعروس جنود مجتدة ، ما تعارف منها انتفع ؛ وما تناكر منها احتسف .

\* \* \*

ولكن يظهر لنا أن السبب في هذه الظاهرة قد يكون أيسر من هذا كله . فقد يكون السبب فيها أن توحش الحصان كان طارئا في هذه القارة ، وأن قطعان

الحيول التي كانت تهم في سهولها المنحدرة في الأصل من حيرانات كانت مستأنسة ومذلة للآسان .

ووالحق أن قصة هذا الحيوان بهذه القارة لتؤيد هذا التعبير كل التأييد . من المسم به أن هذا الحيوان لم يكن معروفا للسكان الأصليين في العصر الذي دخل فيه الأوروبيون هذه القارة . وبدل على ذلك أن قدماء المكشعين والعراة من الأوروبيين . أمثال فرسوا برار François Pizarre الذي أخضع عشائر الإنكا Inca وهم سكان برو الأصبين (١) ، وفرناند كورتز Fernand Cortez الذي أخضع عشائر الأزتك Azteques وهم سكان المكسيك الأصليين (٢) لم يهتروا على هذا الحيوان ، بل لم يهتروا على أي أثر أو صورة له في أية منطقة من مناطق أو أسماء إلى كان يسكنها قبائل الإسكابين وديانل الأزتك بالمكسيك ، مع أن هذه القبائل كانت من أرقى سكان أمريكا الأصليين مدينة وأعرافها حضارة . بل إن أفراد هذه العشائر كان يملكهم الفزع عند رؤيتهم الحصان مع الأوروبيين ، وكانت نفوسهم تظير شعاعا عند سماعهم صوته وصهيله

ومن المسم به كذلك أنه قد اختلفت من جيش كورتز Cortez في أثناء تفقير سريع فجاني اضطراب إلى في عروة من غزواته بلاد المكسيك نحو حميس فرسا ، وأن هذه الأفراس قد هامت عن وجوها في سهول هذه القارة . ففعل هذه الأفراس من التي تألف من سلالتها في نحو نصف قرن هذا العدد الكبير من قطعان الحيول ، التي أصبحت مع تقادم عهدها بالاستئناس شبه متوحشة أو في حالة بين التوحش والاستئناس ، ولعل هذه الحيول هي التي كان يتعقبها الهوداخر بالصيد ويردون ما يصيدونه منها إلى حالة الاستئناس .

(١) رحلة أسان ( ١٤٧٥ — ١٥٤١ ) وقد غرا شعوب الإنكا بمنطقة برو وأخضعها لإسبانيا .

(٢) صائد أسان ( ١٤٨٥ — ١٥٤٧ ) وقد غرا شعوب الأزتك بالمكسيك وأخضعها لإسبانيا .



وعلى صوء ذلك يمكن أن نعمل السهولة التي كان ينتقل بها الحصان من حالة الوحشية إلى حالة الاستئناس ، ونفكر العوامل التاريخية الخفية التي كانت تدل للهندي وسائل الدجاج في حركته الجريئة . إذ كان — كما قلنا — يتقدم نحو الحصان الذي صاده وهو في أشد حالات ثورته . فيمسح عليه يده مسحا خفيفا ، فإذا هو حمل مستأسر وديع . وذلك أننا نصد حيوانات طرأ عليها الوحش ، لأنها متحيرة من أصول كانت مستأنسة ومثله الإنسان . ولذلك كان ينتقل إليها عن طريق الوراثة النوعية Atavisme الميل إلى الاستئناس الذي كان عند آباتها الأولين . ولكن هذا الميل كان بطل كاملا لديها إلى أن تناح له فرصة للظهور ويتحقق ما يشي به ، شأنه في ذلك شأن جميع الصفات الوراثية الكامنة . ولعل ملاحظة الهندي للحيوان ومسحه على جسمه . . . لعل كل ذلك كان الفرصة المواتية لإثارة هذا الميل واسعائه من مكنه في فتاود الحيوان حيثث على حين عه نزعتة القديمة إلى معاشره الإنسان والخصوع له ، فيسلم نفسه إليه .

• • •

وأما فيما يتعلق بصيد الطاموس الوحشي Biron فقد كانت قطعان هذا الحيوان تستأثر بأكر حيز من هذه القارة ويكاد مثار نفعها يحجب ضوء الشمس ، حتى إن قطيعا واحدا منها قد شغل في أثناء هجرته مساحة عرصها سبعون ألف متر ، وبلغ طوله أن أنعامه ظلت تتدافع بعضها إثر بعض في سير سريع مطرد مدة خمسة أيام متواليات

ولمزاره هذا الحيوان وعدم وجود مراعى واسعة تكفيه مدة طويلة في منطقة واحدة كان لا يتعك يهاجر في طلب الكلأ من موطن لآخر . ولما كانت حياة الهنود الحمر متوقفة عليه كانوا يرحلون معه أينما رحل ويحلون حيثما حل ، ولا يفتأون في خدمهم وترحالهم يشنون عليه غارات الصيد ، ويترودون منه بما يسد حاجتهم للغذاء والكساء ومراقق الحياة .

وكان صيدهم لهذا الحيوان ينتهى دائماً بالإجهاز عليه ، فـد يحاولوا مطلقاً صيده حياً ولا استئناسه ، كما كانوا يفعلون مع الحصان الوحشى . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى سهولته حصولهم عليه ، وعزازه فى حالته الطبيعية ، حتى إن الحاجة لا تدعو إلى إتيانه بالاستئناس . هذا إلى أنه كان كامل التوحش غير مهياً للدجون ، على عكس ما كان عليه الحصان الوحشى

وكان أهم مواسم صيده قبل الشتاء . حيث يندفع لطلب الكلأ مهاجراً صوب الجنوب فى قطعان يصعد عدد بعضها إلى عدة ملايين ، ويهبط بعضها إلى بضعة آلاف ، ويحزرو السهول فى طرائق معينة مروفة تسمى مسالك الجاموس . فى هذا الفصل على الأخص كانت كل عشيرة من عشائر الهنود الحمر تبعث روادها بحومسون خلال هذه المسالك ، ثم يقتلون بأناء دقيقة عن مستقر لأنعام ومسيرها . فيسحق العشيرة المرح هذه البشرى . حتى ليكاد أفرادها يخرجون عن وقارهم ، ويسلون أنفسهم لرفقات ديبه غنيمة وغنا . صاحب ، ثم يبتلون إلى أنهم أن تحمل الوفيق رائد في صيدهم وهي لهم من أمرهم رشداً .

وبعد أن يصيب الرجال جـوسومهم بألوان خاصة جرت بها التقاليد فى حفلات الصيد ويمدوا أسلحتهم وغيولهم ياخذون طريقهم نحو القطيع ، يتبعهم الأولاد والنساء . وكانوا يحرصون على التحميف عن حيولهم بقدر المستطاع فى المرحلة الأولى ، وهى مرحلة السفر للحاق بالقطيع ، حتى لا يتألفا التعب فتعجز فى أثناء الصيد نفسه عن بدل ما ينبغى بدله من مجهود . ولذلك كانوا يؤثرون فى أثناء هذه المرحلة أن يحبوها <sup>(١)</sup> ويسيروا رجالاً بحوارها ، ولا يمتطوها إلا حيث يشرفون على القطيع ويشرعون فى عمليات الصيد . وهذا هو عكس ما كانوا يفعلون فى صيدهم للحصان الوحشى فقد كانوا فى صيد الحصان الوحشى يقطعون المرحلة

(١) حب العرس يحبه من صابون إذا قاده من حبه .

الأولى وهى مرحلة السفر للحاق بالقطيع على ظهور خيولهم ثم يعالجون عمديات الصيد نفسها رجالا

وكانت درافع ترجلهم فى الحالة الأولى تخاف كل الاختلاف عنها فى الحالة الأخرى . هى صيد الجاموس الوحشى كان يدعمهم إلى ذلك حرصهم على التخفيف عن خيولهم فى مرحلة السفر الأولى حتى تباشير عمديات الصيد وهواها سليمة موفوره ؛ ولكن فى صيد الحصان الوحشى كان يدعمهم إلى ذلك خوفهم من أن يفسد عليهم خيولهم المستأجرة قطعهم فى الصيد ، وتنحرف فى عدوها عن الطريق الجادة حتى يسعى أن يسلكوها فى نفق طرائده .

وكانوا يعضون أحياها فى سفرهم مدة طويلة قبل أن يشرفوا على قطيع الجاموس ، وتبين لهم أشراطه عن كثب فى سحب العيار إلى تنأف من مشار بقعه ، ودرى الرعد انشمت من حواره وعممته وصعاه (١) ورجع أبعاسه فى أثناء سيره وتدافع أفرادها بعضها إثر بعض .

وبعد أن يشرف أفراد العشرة على القطيع . ينطلق لرجال صهوة خيولهم ، وتنقسم الفافنة عدة كتائب لكل كتيبة منها عمل معلوم . ولعن الهود الحر قد أخذوا ذلك عن جماعه الدئاب إذ تلقى بقطيع من الأنعام ، فتقدم إلى شرادم تنحين كل شرذمة منها الفرصة الماوية للهجوم على الحيوانات المتحمة أو المريضة أو الجريحة ، لأنها لا تستطيع أن تنعد إلى كتله القطيع نفسه ، ومن الإصراف فى مجهودها أن تتجمع فى بقعة واحدة .

وبعد أن يصدر لرئيس إشارة البدء فى العمل ، تعطف الكتائب كل كتيبة منها على مسافة من الأخرى ، ثم يدفع أفراد الكتيبة الأولى نحو قسم من القطيع فيجلبون عليه بحيلهم . ويشيرونه بأصوات صاحبه مزعجة ، ويعمدون إلى الأثر التى تقوده فيمصلونها هى وأتباعها عن القطيع . ويستفزون القسم المفضل ،

(١) الخوار من صوت البقر وأتم ولطاء وما إليها ، والسمعة أصوات الثيران عند الدعر ، والصمات خوارها الشديد .

ويعملون على تطويقه من بعض نواحيه ، ويدفعونه إلى حيث تقف أفراد  
الكتيبة الثانية ، وهذه تزيد في إقصائه عن القطيع وفي تطويقه ... وهكذا  
حتى ينفصل عنه كل الانفصال ، ويصبح مطوقاً من جميع جهاته بالرجال .  
فيتراكم بعضه على بعض ، وتضطرب حركاته ، ويكثر شتمه لمواطنيه أفداه ،  
ويعلو حواراه وصماقه ، ويحمر الأرض بأطلاقه حفرأ شديداً ، فتتعد  
في الجو سحب كثيفة من الدمار ، ويعمر الرجال والأعنام في طلبات بعضها  
فوق بعض . وفي أثناء ذلك يكون كل فارس قد احتار لنفسه قنيصاً ، فركض  
فرسه نحوه حتى يجاذبه ، ويضمه على يساره ، ثم يسدد إليه سهمه فيرد به جريحاً  
أو قتيلاً .

وتطبق هذه السهام من أيدي حاذقة صاع ، فلا تخطئ الرمية ، ولا تتعرف  
عن الهدف ، وتدفع بقوة منقطعه الطير ، حتى إن بعضها ليمرق من الحيوان  
مروفاً ، وبسة فيما يصاقه بعد ذلك . وقد جرت العادة أن يضرب الحيوان بين  
كتفيه ، فيفتح صاع خطوات ثم يسقط منحساً بجرحه أو جثته هالمة

وحيث إن عماره الصائد بدون أن يحاول الإحبار عليه إن كان لا يزال حياً  
حتى لا يصيب عيبه لو قت . ويمتدق قنيصاً آخر ثم ثالثاً ورابعاً .. حتى ينتهي الصيد ،  
فيعود كل صائد إلى ما أصابه من هذه الحيوانات في مختلف جولاته - ويعرفها  
بالسهام المعصمة في كل منها ، لأن كل سهم منها كان يحمل سمه صاحبه - فيجوز  
على ما لا يزال حياً من بينها . وبعد رؤوسها ، وزهو على أفرانه إن كان قد أصاب  
منها عدداً كبيراً .

وقد يستخدم الصائد أحيانا حرته أو خنجره . فإذا احتار الحربة جعل  
الحيوان على يساره وعرضها في ظهره وهو على صهوة جواده . وإذا اختار الخنجر  
تابع قنيصه حتى يقرب منه . فيقفر من ظهر جواده ويستقر على ظهر الحيوان  
نفسه ، ويغمد خنجره بين كتفيه

ولم تكن عمليات الصيد لتحلوا من الخطر ؛ بل كانت تنتهى أحيانا بحوادث أليمة تزهق فيها بعض النفوس . فإذا أنتت بعض أفراد القافلة مثلاً عن رحلاته وحاول إثارة قسم من هذه الحيوانات لعصبتها عن قطيعها ، ولكنه لم يجد وراءه من يسلمها له ، ولم ينجح في تحويلها عن اتجاهها ، وصاق وقته أو نصرت حيلته عن البعد عن طريقها . كان مصيره الموت البطيء . هو وحواذه تحت أقدام القطيع .

وكانت القافلة تعمل جهودها على تقصير زمن الصيد والاكتفاء بالضروري منه ، كما كانت تحرص على حصر عنايتها في حيز ضيق وعدم بعثرتها هنا وهناك . ولذلك كان رجالها يحيطون بالقسم المنهض عن القطيع ، ويصغطونه وأصيق دائرة محكمة . ويعرفون سيره ، ويسدون عليه المنافذ ، فإذا أدلت على الرعم من ذلك بعض الأنعام من النطاق المصروب ، تركوها وشأنها . ولم يحشموا أنفسهم مشقة تعقبها ، حتى لا تنسج عليهم حيلة الصيد وتبعثر العناثم .

وكان عمل الرجال يقف عند هذا الحد . أما ما عدا ذلك من العمليات الشاقة التي كانت تجري على لحوم هذه الحيوانات وجلودها لإعدادها لحاجات العداة والسكساء والمسكن والآلات والماعون والسلاح وسائر مرافق الحياة ، فكان يقع على كاهل الجنس الضعيف . وهكذا كانت الأعمال مقسمة بين الجنسين قسمة غريبة تميزى .

### مظاهر عربية من الفروسية والقتال عند البدائيين

كان القتال في نظر كثير من البدائيين ، وخاصة الهنود الحمر ، ضرباً من صروب الصيد كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق . ولذلك لم تكن مبادئه العادية



ومناهج الخداع . تختلف عن بطايرها في الصيد إلا إختلافاً يسيراً . فكما كان  
 اعدود يبحثون في الصيد عن القطيع مهتدين بآثار أقدامه في الأرض ، كانوا  
 كذلك في الحرب يعتمدون في الغالب على اقتفاء الآثار في البحث عن العدو مهاجر  
 يفانونه . وكما كانوا في المناهج العادية للصيد يهجمون على الحيوان سافرين  
 وشبهكون معه أحياناً في صراع يتصرف فيه أكثر العربقيين جرأة ومهارة ، كانوا  
 كذلك في المناهج العادية للقتال يغيرون على عدوهم بعد أن يندروه بعلامات تشبه  
 إعلان الحرب حتى يتأهب للقائهم ويعد لهم ما يستطيع إعداده من قوة ومن رباط  
 الخيل . وكما كانوا في مناهج الخداع في الصيد يحمون أنفسهم عن الحيوان أو عن  
 القطيع أو يظهرون أمامه بمظهر مصطنع لا يوجب حيفاً منه حتى يتمكنوا  
 من مهاجمته أو أخذه على غرة ، كانوا كذلك في مناهج الخداع في القتال يندسون  
 على العدو بإحداً أنفسهم أو طهورهم في غير مظهرهم الطبيعي حتى يتمكنوا  
 من مهاجمته ويحولوا بينه وبين التأهب للقتال .

ولما كانت حياة معظمهم حياة بدو ونجدة وتنقل في طلب السكّاء والصيد  
 كانت معظم حروبهم تحدث بين عشائر متنقلة في طريق رحلتها أو في أثناء  
 استقرارها الموقوت . فكانت العشيرة قبل أن تنمر للقتال ترسل بعض روادها  
 للوقوف على اتجاهات العشائر الأخرى في سيرها . وكان يهديهم إلى ذلك اقتفاء  
 الآثار التي ترسمها في الأرض أقدام العراقل المهاجرة .

وقد بلغ قافهم<sup>(١)</sup> في فهم هذا مبلعاً كبيراً من الألمعية والحدق ، حتى إنهم  
 كانوا يعرفون بمصل هذه الآثار اسم العشيرة المهاجرة وعدد أفرادها ونوعهم  
 ووجهتهم وتاريخ مرورهم من هذا السبيل وأقصر طريق للحاق بهم . وهم جراء  
 وبعد أن يستقر الرأي على غزو عشيرة ما يمكنهم أفراد العشيرة المهاجرة ،  
 قبل أن ينهروا للقتال على بعض طفوس واستعدادات تقضيها تقاليدهم في هذه

(١) قافئ لدى يعرف كافر وأحمق نقده ويسمى القافئ منه أقباذه .

المناسبات . فيدق الرؤساء طبول الحرب ، ويطلقون في الهواء دحانا خاصا ، فيجتمع المقاتلون بعد أن يكون كل منهم قد أعد عدته ، لحمل أسلحته وذخائره وليس ملابس القتال وقلنسوته المزينة بريش النور ، وعطى وجهه بقناع الحرب . وكان هذا القناع عند هنود الوديان والسهول يغطي جميع أجزاء الوجه ماعدا الجفنة والعينين ، ويدهن بصبغة حمراء قاية . وكان بعض عشائر الهنود الحمر يدهنون وجوههم بنفسابده الصبغة وإلى هذا يرجع السبب في وصفهم بالحر ، مع أن لون بشرتهم الطبيعية لم يكن من الحمر في شيء . وكانوا يدهنون كذلك الخيل التي سيستخدمونها في الحرب ألوان معينة ويغشون على وجوهها وصفحاتها نقوشا خاصة .

ثم يأخذ كل منهم مكانه في حلقة الرقص الحربي . وكان هذا الرقص على أنواع كثيرة تختلف باختلاف العشائر . عند عشائر السيو مثلا Les Sioux كان المحاربون يلتفون حول موقد ملتهب الحجر ، ويحنون نحوه ثم ينتصبون ، كما يفعل بعض رجال الطرق الصوفية في أدكارهم في العصر الحاضر ، مرددين في أثناء ذلك هذه العبارة : « إن النار مجردة من الرحمة والشفقة . وسنكون نحن مثلها حيال أعدائنا » . ثم يقبض رئيس العشيرة قبضة من التراب ويمسح بها خدود وجالته مبتلها إلى الأصل الأول الذي انحدرت منه العشيرة — وهو الجاموس الوحشي — أن يجعل الترفيق رائد في حربهم هذه . وفي تعبير وجوههم بالتراب تمثيل لحالة الجاموس الوحشي عند محاولته الهجوم على العدو ، إذ يحفر حافته الأرض بأظلافه وقرونه ويشير نفعها على وجهه ثم ينقص انقصاص الصاعقة على حسيمة .

وبعد أن يفرعوا من هذه الطفرس يتناول كل محارب من محلاته المدلاة على جنبه قطعة من الفحم ، ويخطبها على جسمه علامات الخاصة به ، وفق ما تعارف عليه عشيرته في طرق التمييز بين الأفراد .

ثم يتجمعون مرة ثانية في حلقة كبيرة بدورون حول محيطها في حركات انجذاب عيفة على نحو ما يحدث من بعض أبواب الطرق الصوفية في حلقات الذكر

مرتقبين في أثناء ذلك غنائهم الديني المقدس بنغمه الخاص .

ثم يصدر الرئيس أمره بالنفير ، فيتحرك الجيش شطر العشيرة التي استقر الرأي على مهاجمتها . وتمطى أوامر الرئيس وإشارات تنظيمه لسير الجيش بصفارة كانوا يحدونها من عظام الديك الوحشي وخاصة عظام خذه . فكان الرئيس يحمل هذه الصفارة مدلاة عن صدره ، وينفع فيها نفحات خاصة ترمز إلى أوامر وتنطيمات : فكان لها مثلاً صوت خاص للهجوم ، وصوت آخر للاسحاب ... وهم جراً . وكانوا أحياناً يستعملون كذلك لهذه الأغراض الأعلام وأعصان الأشجار : فشر العلم الأحمر كان يعني الأمر بالشروع في القتال ؛ وشر العلم الأبيض أو اللويح بغصن أحضر كان يشير إلى طلب الهدنة أو وقف القتال .

وكانوا يطربون إلى طلب الهدنة أو وقف القتال بهذه الوسيلة إلى أمر مقدس لا يجوز دهنه أو الخروج عليه . وقد تركت هذه التماثيل البدائية رواسي في جميع الأمم الإنسانية .

وكانوا في أثناء اشتدادهم بهيكون صبيحة الحرب ، وهي صبيحة حادة مؤثرة تستغرق وقتاً طويلاً وتصحب بدقات سريعة متتامة تنبث عن التصفيق مالا كعب أو تحريك الأصابع على الشفتين . ولم يكن في جرس الصبيحة نفسها ما يرفع أو يخفض ، ولكن ارتباطها في أذهان العشيرة المغزوة بأعمال الحرب واستدعاءها في أذهان أفرادها لكل ما يصحبها من تقهيل وإبادة وتدمير ، كل ذلك كل يذيب القلوب من هولها فرعاً ويطير بالنفوس شعاعاً

وأما طرق الكر والمجوم والالتحام فلم يكن فيها ما يختلف كثيراً عن نظائره في الأمم المتحصنة أيام أن كان الاعتماد في الحروب على الخيول وفنون الفروسية . وأما فيما يتعلق بأسلحة الحرب فكانوا يستخدمون منها كل ما يصلح للقضاء على الخصم أو أسره إن لم يمكن قتله .

وكان بعض العشائر يستخدم في القتال وسائل مراوغة وخداع . لمفاجأة العدو وأخذه على حين غرة منه . وكانت هذه الوسائل تتمثل في محاولة العشيرة المهاجمة أن تلبس على خصمها بأحفاء رجاها أو إظهارهم في غير مظهرهم الادي كما كانوا يفعلون في الصيد .

ومن ذلك مثلاً أن عشائر الأباش كان يتجمع عاروها أحياناً في أطراف عابة قريبة من مساكن العشيرة التي يسمون قناها . وفي يد كل منهم مرع طويل يخفى وراءه ويتقدم به في حركة وثيدة منقطعة يحيل للماظر إليها أنها حركة أعصان ثابتة يداعبها الهواء .

ومن ذلك أيضاً ما كانت تلبأ إليه أحياناً عشائر الكومانش لمفاجأة أعدائهم بالهجوم . فقد كانوا يستخدمون خيولاً غير مسرجة ويمد كل منهم جسمه بجانب صفحة فرسه ، مطوقاً رقبته بدراعيه ومعتمداً بأحدى قدميه على مؤخرة ظهره ، وفي منطقة فرسه وجبة سهامه ، ثم يطبقون هذه الخيول شطر العشيرة التي يريدون عزوها ، فيحيل لمن يراها على هذه الصورة وليس على ظهورها رجال ولا سروج أنها فطيسع من الخيول الوحشية نزع وحدها في السهول ، ويطلقون كذلك حتى يشرفوا على منازل أعدائهم ، فيستديرون مرة واحدة من صفحات خيولهم إلى ظهورها ، كأنهم مرده من الجرف قد انشقت عنهم الأرض ، أو أنبأح من العالم العلوي قد قدفتهم السماء .

ومن ذلك أيضاً ما كان يلبأ إليه أحياناً عشائر الكومانش نفسها في الغارات التي كانت تشنها على بعض العشائر لمجرد الاستيلاء على ما تملكه من خيول . فقد كانوا يعتمدون في غزواتهم هذه على قوة المفاجأة وسعة الخيلة ، ويستفعمون فيها بما كان لديهم من خبرة منقطعة النظير عن طبائع الخيل وغرائزها ومناهجها في مختلف شئون حياتها .

فكانوا ينتظرون حتى ينقضى شطر كبير من الليل ، ويكون أفراد العشيرة  
المقصودة في سبات عميق ، فيمتطي كل محارب منهم صهوة جواده المختار ، وفي  
يده حربته وهرأونه وجلده حشن مدبوغ من جلود الجاموح الوحشي . ويتم هذا  
كله في حركة سريعة ماهرة ، فلا يسمع لهم ركز ، ولا تحس لهم بياة . وما هي  
إلا فينة كلب البصر أو هي أقرب حتى يكونوا في القرية التي يبخون سبها ، فيجوسون  
خلال ديارها ، وينثرون في مختلف دروبها ، وهم يصيحون صيحات مزعجة ،  
ويصفقون بالكشاكش التي يحملونها ، ويحكون أطرافها بعضها ببعض ، فيبعث من  
احتكاكها دوى كدوى الرعد ، ويقوضون الخيام على رؤس النائمين تحتها ،  
ويبهثون أمتعتهم وأثاثهم في مختلف الأنحاء . فتطير نفوس هؤلاء شعاعاً ،  
ويتملكهم الطلع والرعب ، وينتفرون شدر مدر ، ويجمع كل منهم طالباً  
لنفسه النجاة ، لا يلتفت وراءه ، ولا يلقى على أحد أيا كان ، حتى لتدهل  
المرصعة عما أَرْضعت ، وه يهر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبه وبنيه :  
لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . . — وتنقضى على هذه الحال فترة طويلة  
يعجز في أنثائها كآفة القوم ورؤساؤهم وشيوخهم عن نهدة فزعهم ولم شملهم ،  
ولكنهم لا يزالون بهم حتى يعيقوا من ذهولهم ، ويفرح روعهم ، وتزل عليهم  
السكينة ، وتبعث في نفوسهم الحية ، وتعاودهم نمرة المصيبة ونزعة الدفاع عن  
الأهل والعشيرة . فيتجمعون وينبأون للاشتباك مع الغزاة ، ويتسلحون بما يتاح  
لهم جمعه من هنا وهناك . ولكنهم يبحثون عن العدو فلا يجدون أثراً له ،  
وينحسبون من أنفسهم وأهلهم فإذا هم كما كانوا قبل هذا الطائف الغريب ،  
لم ينقص منهم فرد ، ولم يصب منهم أحد بأذى بليغ ، ويتدسون أناثهم وأمتعتهم  
فيجدونها كاملة لم يأخذ العدو منها قتيلاً ، وإن بعثها في مختلف الأنحاء . ولكنهم  
ينفقون خيولهم فيبين لهم من آثارها أنها قد تملكها الذعر ، خطمت  
قيودها ، واطلقت هاتمة على وجوهها ، بدون أن يحاول أحد أن يعرض لها  
سديلاً . فيحيل إليهم أن نهرأ من الجن قد انحذروا في هذه الليلة من دروب فرينهم  
ملاعب ، ومن متاعهم دوى وكرات ١١



وفي الحق أن الكومانش ما كان يهيم من العجبة التي أحدثوها إلا أن تحطم الخيول قيودها وتنطلق هائمة على وجوهها ، لينمكنوا من الاستيلاء عليها بدون جهد ولا عناء ولا اشتباك في حروب . وذلك أنهم في ضوء معلوماتهم الدقيقة عن طبائع الخيل وغرائزها ومناهجها في مختلف شئونها ، كانوا يعرفون الطرق التي تسلكها هذه الخيول ومواطن تجمعها ، ويعلمون مدى طاقتها في العدو ، ومتى ينال منها الإعياء حتى لا تقوى على حركة ، ويعملون على معاجلتها في فترة عجزها هذا . فيجمعونها عنيفة سهلة تميده ، ويؤبسون بها إلى ديارهم .

• • •

وكانت القاعدة العامة عند معظم عشائر الهنود احمر أن يعاملوا أسرى الحرب معاملة إنسانية رفيعة ، بل إننا لا نكاد نجد استثناء صارخا لهذه القاعدة إلا عند عشائر الأباتش . فقد جرت عادة هؤلاء أن يقطعوا أصابع أسراهم وهم أحياء ، ويتحدوا من هذه الأصابع أساور وفلائد يتحلى بها الرجال للزينة ولزهره ولتكون دليلا على شجاعتهم وكثرة من وقع في أيديهم وأذلوه من أسارى الحرب . وكانوا يجمعون ذلك بسومون أسراهم صنوقا أخرى كثيرة من العذاب . وقد بالغوا في تمزيقهم وقوة اتسارهم لآلوان التعذيب التي كانوا يصنعونها على الأسرى درجة منقطعة النظير تشهد بحسب خيالهم وسعة حيلتهم . أو بالأحرى بحسب خيال نساءهم وسعة حيلنهن ، فقد كان يهدد بذلك النساء . وكان يؤدبه على أعنف وجه ، وأشد فسوة ، وأدقاه إلى طبائع الوحش والافتراس

ولم يكن الباعث الأصلي على ذلك مجرد اللبذ برؤية الدم المراق ، أو بالتهذيب والتشيل بأجسام الناس ، وإنما كان الباعث عليه أن ينزع من الأسير ، من شدة ما يسامه من الخسيف ، اعتراف بضعفه وقوة قاهره . وذلك أن قهر الأسير ما كان يتحقق في بطرهم إلا إذا ظهرت عليه الدلة والمسكة . فاعترف بضعفه ، وعدم قدرته على احتمال ما يحتمله الحكمة من الرجل ، أو طلب الرحمة من أسريه . غير أنه كان من المتعذر في الغالب أن ينزع من الأسير

اعتراف من هذا القليل مهما بولع في تعذيبه . فقد وصل اليهود الحمر في اعترازهم  
 بأنفسهم وعشائرتهم ، وترفعهم عند الظهور بمظهر الدلة والعجز . وقد رتبهم على  
 احتمال الآلام ، إلى درجة لم يكذب بصل إلى مشيها أو ما يقرب منها أي شعب آخر  
 من شعوب الأرض . ولعل صنوف العذاب التي كان لزاما أن يدور بها كل واحد  
 منهم مختارا في أثناء مرحلة التعمد *Initiation* والتي أشربا إليها فيما سبق هي التي  
 كان لها الفصل في بث هذه النزعة في نفوسهم . وفي تدريبهم على قوة الاحتمال ،  
 وفي مبلغ ما وصلوا إليه في الاستحقاق بالآلام الجسم والاستهانة بما يصيبه من  
 نكال . فقد كان الأسير يشد وثاقه إلى سارية . ونصب عليه أسواط العذاب  
 من كل صنف ، ويأتبه الموت من كل مكان . بدون أن يفتر لسانه عن ترديد  
 أغنيات حماسية حاصه بهذه المناسبات تسبح أغاني الموت ، ، بعدد فيها مناقبة ،  
 وما أثاره في ميدان الوعي من إقدام وشجاعة . ويزهو أنه لم ير بعد من هو  
 أقوى منه في مبادئ الحرب أو أشد لها مراسا . ويستحب بأسريه وما يسومونه  
 إياه من عذاب . ويوجه إليهم من لادع الإهانة ما يثير الحماة . وكلما رادوه  
 سكيلا راده هذا إمعانا في رهوه وتحقيره إياهم . فينتهي بهم الأمر إلى اليأس  
 من أن يتزعوا منه ما كانوا يريدون انزعاء . من اعتراف صريح بالضعف .  
 وحينئذ يفتنون بما دون القليل ، ويودون لو صدر عنه اعتراف صمى بذلك  
 في تأوه أو رعشة ألم . وحتى هذا الاعتراف الصمى ما كانوا يستطيعون  
 في العال سبيلا إلى الحصول عليه . فقد كان الأسير يقطع إرما إربا بدون أن  
 يفتر لسانه عن التفتي بشجاعته والنكح بأعدائه . فتنتجه جمودهم كلها حينئذ إلى  
 العمل على إسكاته بأية وسيلة . وحتى هذه الغاية السلبية ما كانوا يستطيعون  
 في العال سبيلا إلى تحقيقها إلا إذا انتزعوا لسان الأسير انتزاعا من  
 بين فككه ١١

هم يكن الباعث لهم إذن على تعذيب الأسير مجرد الرغبة في التعذيب أو إرضاء  
 ميول دموية ، وإنما كان ذلك نتيجة لازمة لأمرين : أحدهما شدة حرص المتضر

على أن يعترف المقهور بفهره في صورة ما ، وثانها شدة عذاب المقهور ونجاسته لما حدث ولما يجري عليه وإمعانه في إسكار الهزيمة .

وقد راد من اندفاعهم في هذا السبيل عليهم أنهم سيلاقون المصير نفسه إذا وقعوا أسارى في أيدي أعدائهم ، وأن هؤلاء لن يدخروا وسعاً في تعذيبهم ولا انتقام منهم فكانوا يعملون . قبل أن يلاهم هذا المصير الممير ، على أن ينعموا بأقصى ما يمكنهم أن ينعموا به من لذة النصر والارتياح إلى الفهر وإذلال الأعداء .



وقد اشتهر الهنود بالحر بعادة غريبة في التمثيل بالأسرى وهي انزع دواراتهم بجلدها وشعرها . وذلك أنهم كانوا يعمدون إلى دائرة في نحو مساحة الكعب في قمة الرأس حيث يعزر الشعر فيصلون محيطها بمشط عن بقية جلد الرأس ثم يمسكون بخصية شعرها ويجذبونها بقوة فتفصل مع جلدها عن الرأس . وكان يكتب أحبا بالانزع خصلة الشعر وحدها إذا لم يستطع انزع الجلد أو لم يتسع الوقت لذلك

وما كان يجوز أن تجري هذه العملية إلا على عدد . أي شخص من غير أفراد القبيلة . فإذا اتفق أن أسر الهندي فرداً من قبيلته أو قتله فإن التقاليد تحرم عليه تحريماً مائلاً أن ينزع دوارته ، ونعم ذلك جرماً كبيراً يحدش الشرف والكرامة ، ويعرض مقترفه لمسئولية خطيرة .

وكان الغالب أن تجري هذه العملية على العدو بعد موته . أو إذا ظن أو فرض أنه مات . وإذا أجريت عليه وهو حي لم تسكن في جميع الأحوال لتؤدي إلى موته . فالجرح نفسه لم يكن خطيراً ، ولم يكن يستغرق من جلدة الرأس إلا حبراً ضيقاً لا يكثر يتجاوز في مساحته باطن الكعب . ولذلك كان يوجد بين بدو السهول وساكني القرى كثير ممن انتزعت دواراتهم ثم التأم

جرحهم وظلوا أحياء أشداء . وكان معظمهم لا يستكشف أن يظهر آثار جرحه ، على حين أن معظمهم كان يحرص على إخفائه تحت قلنسوته أو عقدة منديله مخفيا من مظهر الهزيمة الذي يرمز إليها .

وكانت المشيرة تعني بجمع ما انتزعته من رؤوس أعدائها من دوارات وتحدد منه مادة للتفاح ولزهره ، وآية على شجاعة رجالها وجراتهم في ميادين الوعي ، وكثرة من وقع في أيديهم وأدلوه من أسارى الحرب . ولذلك كانوا يحرصون على إظهار هذه الدوارات وعرضها ، فيحملونها بأيديهم كالمذبات ، ويعلقونها في أعناق حيولهم وفي أسلحتهم وأردبتهم وسراويلهم وأمتعتهم ، ويزينون بها خيامهم ، ويرفعونها كالأعلام في كثير من المناسبات في وجهات منازلهم وعلى جوانبها وفهف وفي رؤوس أعمدتها ، ويلصقونها في طوق متحد من عصف أحضر ويشنون الطوق في نهاية عصا طويلة يحملونها معهم أو يقيمونها كالنصب في أفنية ديارهم .

ولم تكن هذه العادة مقصورة على الهنود الحمر بل كانت متبعة لدى شعوب أخرى في الدنيا القديمة نفسها فقد ذكر هيرودوت أن السيثيين ، Sathyres ، وهم شعب بدوي هجري كان يقيم في العصور القديمة في المناطق الواقعة في الشمال الشرقي من أوروبا والشمال الغربي من آسيا - كانوا يحرقونها على أسرى الحرب . ويظهر أن هذا التقيد أو ما يشبهه كان متبعا عند بعض الشعوب السامية القديمة وأن روايت منه قد بقيت عند العرب في الجاهلية . فقد كانوا يحرقون ناصية الأسير إذا سوا عليه . أي أطلقوا سراحه بدون فداء . وفي هذا يقول حسان بن ثابت :

كم من أسير فككناه بلانم - وجز ناصية كنا مواليها

ويظهر أن الهنود الحمر كان يدفعهم إلى ذلك في الأصل بعض دقائد تتصل بعالم الأرواح والعالم المبني . فقد كان الشعر في نظرهم ، وخاصة شعر الدوارة ، هو رمز الروح ومقرها فكانوا يظنون أن من تجرى عليه هذه العملية تصبح

روحه نفسها أسيرة في أيديهم فلا يستطيع أن تغادر مكنتها وتشار لنفسها ، ولا أن تجذب أذى للأحياء من الناس ، ولا يستطيع الروح الأكبر Grand Esprit أن يرفعها إلى عليين في جنات الصيد العظيم Paradi des Grandes Chasses فتظل في العالم السفلي أبد الآبدين .

بيد أن انزعاج الدورات لم يكن منتشرًا ، قبل دخول الأوروبيين هذه القارة ، إلا عند بعض عشائر في الشمال الشرقي ، وخاصة عشائر الأيروكيين Les Iroquois الذين يعدهم بعض الباحثين أقدم من طهر فيهم هذا التمييز الوحشي من عشائر الهنود الحمر . أما العشائر التي كانت تسكن السهول ، وهي معظم عشائر الهنود الحمر ، كالسير والشيب والكوماش ، فكانت إلى ذلك الحين تجهل هذا التقليد كل الجهل .

ولكن هذه العادة لم تدم . بعد دخول الأوروبيين هذه القارة ، أن انتشرت انتشارًا كبيرًا عند جميع عشائر الهنود الحمر وبيع الورق في انتشارها هذا على الأوروبيين أنفسهم وما جلبته مدينتهم على هذه البلاد وأهلها من مصائب وأضرار . فقد استحوذ على نفوس كثير من الأوروبيين في ذلك العصر هواية عريضة بلع هذه الدورات ، كما بهوى كثير من الناس في العصر الحاضر جمع طوايق البريد . فانطلق هؤلاء ينقبون عنها في مختلف أرجاء القارة ، ويتجشعون في سبيلها المشاق والأسفار ، ويقنأفون في افتائها ، ويتسابقون في الإكثار من عددها ونوعها ، ويتنازعونها من البدائيين بأعلى الأثمان . ونشأت في أثناء ذلك طبقة من التجار والوسطاء بين المتجدين والمستهلكين ، بين صائدي الدورات من البدائيين وهواة جمعها من الأوروبيين . وأحدث هذه لطيفة تعمل جاهدة على ترويج بضاعتها ، وإعراء المتجدين بمختلف وسائل الإغراء على زيادة إنتاجهم ، وحث المستهلكين على الإيمان في هواياتهم فأصبح من جراء هذا كله للدورات سوق زاحرة تسيل فيها البضاعة منحدرًا من مختلف المذامع ، وبشبه ما فيها عدة طوائف ، وتهوى إليها أفئدة كثير من الناس . ووجد البدائيون في هذه



البصاعة السهلة الإنتاج بجالا واسعا للربح وجمع الأموال ، فأخذت هذه العادة تنتقل من عشيرة إلى عشيرة ، وتسرى من منطقة إلى أخرى ، حتى عمت جميع أنحاء القارة ولم يكده يرغ القرن السابع عشر حتى كان صيد ، الدورات المهمة المحيطة لجميع عشائر الهنود الحمر .

فانتشار هذه العادة بينهم ، وندفاعهم في تيارها هذا الاندفاع ، كل ذلك كان مرجعه إداة إلى الأوروبيين أنفسهم ، وكان قة إنما على الأسباب الاقتصادية نفسها التي دفعتهم إلى المبالغة في صيد الجاموس الوحشي لتفدية جلوده وألسته إلى الشركات التي ألها البيض للاشراف على هذه التجارة وتصديرها عقب استعمارهم لهذه البلاد . وإلى هذا العامل الاقتصادي الذي يقع وزره على الأوروبيين وحدهم انهم فيما بعد عوامل الزهو والتفاخر ولا اعتبارات الدينية التي أشرنا إليها في صدر هذه الفقرة . ونصاف كل أوائلك على رواج هذه السوق وحرص الهنود الحمر على تزويدها بما تحتاج إليه .

ولكن مهما يكن من شيء يصعد مسئولية الأوروبيين عن انتشار هذه العادة عند الهنود الحمر ، فإن اندفاع هؤلاء في هذا التيار لدليل على فأسل العادات البدوية وعمر ر القسوة والسفك في طاعهم ، واستحقاقهم بالنفس الإنسانية ونظرم إلى الأعداء نظرهم إلى أنعام الصيد .

## أهم مراجع هذا الفصل

الدكتور علي عبد الواحد وافي

لهنود الحمر

Tréveni et Coze Mœurs et Histoire des Peaux Rouges

## الفصل الثاني

### لغة الإشارة عند البدائيين

تنقسم الإشارات الحسية التي نستعملها في الفصيلة الإنسانية للتعلم وفقد الدلالة إلى قسمين :

(أحدهما) إشارات مساعده ونائبة ، أي تساعد لغة الكلام وتنبؤ عنها في حالات خاصة أو لضرورة ما : فمن هذه الطائفة الإشارات البحرية وهي التي يستخدمها عن بعد بحارة السفينة مع بحارة سفينة أخرى (١) ؛ ومنها إشارات الصيد وهي التي يستخدمها الصيادون بعضهم مع بعض عن بعد حتى لا يسمع صوتهم الحيوان المطارد ؛ ومنها الحركات اليدوية والجسمية التي يستخدمها الصم البكم للتعبير عما يحول بخواطرم ؛ ومنها الإشارات التي يلجأ إليها الفرد أحيانا للتعبير إذا كان المحاطب لا يفهم لعمه ، والتي جرت العادة في بعض الأمم البدائية أن يستخدمها أفراد العشائر المختلفة اللهجات بعضهم مع بعض (٢) ؛ ومنها

(١) هذه الإشارات دولية معروفة لجميع البحارة ، وتدرس في مدارس البحرية .  
(٢) عثر علماء الأسوأجغرافيا على هذه الطائفة عند كثير من قبائل سكان الأنديز وأمريكا واستراليا ، وعند بعض القبائل الأمريكية وقد روى الأستاذ كوهل Kohl أنه إذا التي أحد الهنود الحمر ( سكان الأنديز ) أمريكا الشمالية ، حرم من عشره مختلف في أمه ، فإنها تلجأ في بعضها إلى لغة الإشارات . في سنة ١٨٨٠ هذه القبائل عثابه لغة دولية وقد مهر الهنود الحمر في هذه اللغة أمما مهاره . في إمكان المتحاطبين أن يتفاهلوا كاملا يحدث عن طريق الإشارات اليد ولأصابع وأرجلهم ، وأن يفسر كل منهما على الآخر كل ما يريد قصه عليه . — انظر ليفي برون : « الوظائف العقلية في الأمم لأوله » ١٧٨ وتوابها .

الإشارات التي تستخدم في بعض الشعوب في حالات الصيام الديني عن الكلام<sup>(١)</sup>؛  
ومنها الحركات التي يستعمل بها في أثناء حديثهم أهل اللغات الساذجة الدافضة لتكلمة  
ما ينقص تعبيرهم وما يعورهم من دلالة<sup>(٢)</sup>، ومنها الحركات التي تصحب حديثنا  
نحن أو كيد المعاني أو تتشبه الخفايا أو لزيادة التوضيح؛ والتي استخدمها وحدها  
للدلالة على الإيجاب والنفي والاستحسان وما إلى ذلك، كالإيماء بالرأس للتعبير  
عن القبول، وتحريك السبابة حركته مستعملة للتعبير عن الرفض أو النفي،  
ومد الشفتين ووضع السبابة عليها للأمر بالسكوت... وهما جريا.

(ونابهما) إشارات أصيلة عامة، وهي التي تتكون منها لغة كاملة مستقلة  
تستخدم وحدها في جميع الشعوب والظروف وقد استخدم هذا النوع من اللغات  
عدد بعض الجماعات الإنسانية ولا يزال مستعملا في بعض العشرات

فقد عثر في الأمم البدائية على جماعات كثيرة لا تكاد تستخدم في تعبيرها  
غير إشارات ليدوية والجسمية. ومن هؤلاء بعض قبائل السكان الأصليين  
لأمريكا وأستراليا وبعض العشرات بأفريقيا الوسطى. ويطلق على هذا الضرب

(١) يوجد الصيام الديني عن الكلام عند كثير من الأمم البدائية وخاصة عند سكان  
أستراليا وأمريكا. وقد ذكر الأستاذان سيمس وجيلين في كتابهما عن سكان أستراليا الوسطى  
حالات كثيرة من هذا الفن، منها أن النوف عنها روحها يحث عليها أن تصل مدة طويلة،  
تبلغ أحيانا عاما كاملا صاغية عن الكلام. — ويظهر أن شيئا من هذا كان موجودا  
في ديانة اليهود، بدليل قوله تعالى على لسان مريم: «إني أذرت للرحن صوما» فإن أكرم  
أيوم، سما. فأشارت إليه... الخ. (انظر صفحة ٦٠ من الجزء الأول من هذا الكتاب).

(٢) لوحظ هذا في كثير من الأمم البدائية. فقد روى عن البوشمان Boschmans  
(عشرات بدائية تسكن أفريقيا الجنوبية) أنهم إذا أرادوا المخاطبة ليلاء يضطرون إلى إسماعيل النار  
ليتمكنوا من رؤية الإشارات البدوية التي تصحب كلامهم فكمثل ناصه ويحدد مدلولاته —  
أهر ريبو: «تطور المعاني السكوية» ص ٧٨ ونوابها:

Ribot : Evolution des Idées... etc.

من التعبير لغة الإشارات ، أو الإشارات التحيلية *Gestes Analytiques* (١). وقد عني بدراسة عدد كبير من علماء الإثنوجرافيا والاجتماع من أشهرهم الكولوميل مولري *Mollery* (٢) وتيلور *Taylor* (٣) . ورومان *Romanes* (٤) وليبوك *Luback* (٥) وسبنر وجيلير *Spencer and Gille* (٦) وليفي برول *Levy Bruhl* (٧) وريو *Ribot* (٨) والدكتور فيشر الألماني *Fischer* (٩) وروث *Roth* (١٠).

وقد صور الدكتور فيشر هذا النوع من اللغات وقربه إلى الأذهان إذ يقول:

(١) صاحب هذه النسخة هو العلامة ريبو *Ribot* (أطرح كتابه : « تطور الماني السكية » ) .

(٢) أطرح عنه بالإنجليزية : « لغة الإشارات من » ود أمريكا الشمالية » . وقد طهر في تقرير مكتب الأنثولوجيا بواشنطن عام ١٨٨٦

*Sign - Language among the North American Indians*

(٣) أطرح كتابه بالإنجليزية : « تاريخ النوع الإنساني في عصوره الأولى »

*Early History of Mankind*

(٤) أطرح كتابه بالإنجليزية : « التطور العقلي في العصور الإنسانية » .

*Mental Evolution In Man*

(٥) أطرح كتابه بالإنجليزية : « أصول المدنية » *The Origin of Civilization*

(٦) أطرح كتابهما بالإنجليزية : « المظاهر الأصلية لأمريكا الوسطى » ، « العاشر

الشمالية بأمريكا الوسطى » (صفحة ٣٦ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

(٧) أطرح كتابه بالفرنسية : « الوظائف المعنوية عند الأمم الأولى » صفحات

١٧٥ — ٢٠٤ (صفحة ٣٦ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

(٨) أطرح كتابه بالفرنسية : « صور الماني السكية » صفحات ٥٨ — ٦٤ .

(٩) عني الدكتور فيشر في بحوث كثيرة بدراسة هذا النوع من اللغات عند عشار

أفريقيا الوسطى وعند السكان الأصليين لأمريكا .

(١٠) أطرح كتابه بالإنجليزية : « دراسات أنثولوجية السكان الأصليين » بالقسم الثاني

الفرعي بكونستانتينا » .

، إذا التفت بأحد الحود الخمر وأردت أن أحاط به بدعة الإشارات لأسأله  
هل رأى ست عربات يجرها ثيران ويصحبها ستة سائقين منهم ثلاثة مكسيكيون  
وثلاثة أمريكيون ويسير معهم واحد منتط صهوة جواده : فإنى أشير إلى شخصه  
يبدى للدلالة على كلمة ، أنت ، ثم أشير إلى عينيه للدلالة على فعل ، الرؤية ، ثم  
ثم أسط أصابع يدي اليمنى وسبابة يدي اليسرى للدلالة على عدد ستة ، ثم أمثل  
صورة دائرة بالصاف نهايتي السبابتين والإبهامين أحدهما بالآخر ، وأمد يدي  
إلى الأمام وأحركهما كما تتحرك عجلات العرب وهو يسير للدلالة على العربة ، ثم  
ثم أضع الكفين مدودتين بحام الجبهة مثلاً من حيوان للدلالة على الثور ، ثم  
ثم أمد ثلاث أصابع من يدي اليسرى وأضع يدي اليمنى تحت شفتي السفلى  
وأندد بها إلى صدري مثلاً للحية للدلالة على ثلاثة مكسيكيين ، ثم أمد مرة  
ثانية ثلاث أصابع وأمسح جبهتي بيدي من اليمنى إلى الشمال مثلاً وجهها شاحماً  
للدلالة على ثلاثة أمريكيين ، ثم أرفع إصبعاً واحداً وأضع بعد ذلك سبابة  
اليسرى بين سبابة اليمنى ووسطها مثلاً الراكب للدلالة على رجل واحد راکب  
حصاناً .

وأصاف بلى ذلك أن الوقت الذى يقضيه أحد المتكلمين بهذه اللغة فى أداء  
هذه الحركات لا يزيد كثيراً عن الوقت الذى يستغرقه تعبيرنا نحن باللغة الكلامية  
عن هذا المعنى .

وكرر تبلور ، تصد هذه اللغة ، أن لها قواعد إشارية تربط أجزاء العبارة  
بعضها ببعض وترتيب عناصرها ؛ وإنها فى مجموعها تكاد تكون متحدة عند جميع  
الشعوب التى تستخدمها ، فهى من هذه الناحية أشبه شئ بدغة دولية ؛ وأنه يمكن  
أحياناً التعبير بها عن حقائق دقيقة كمعصات وصرب أمثال وقصر حكايات ؛  
وأنها فى حمتها ومعظم تفاصيلها تشبه لغة الهم والبكم . فقد جمع السكولونول  
مولرى بين رجل أصم - أبكم وطائفة من الحنود الخمر المتكلمين بهذه الإشارات



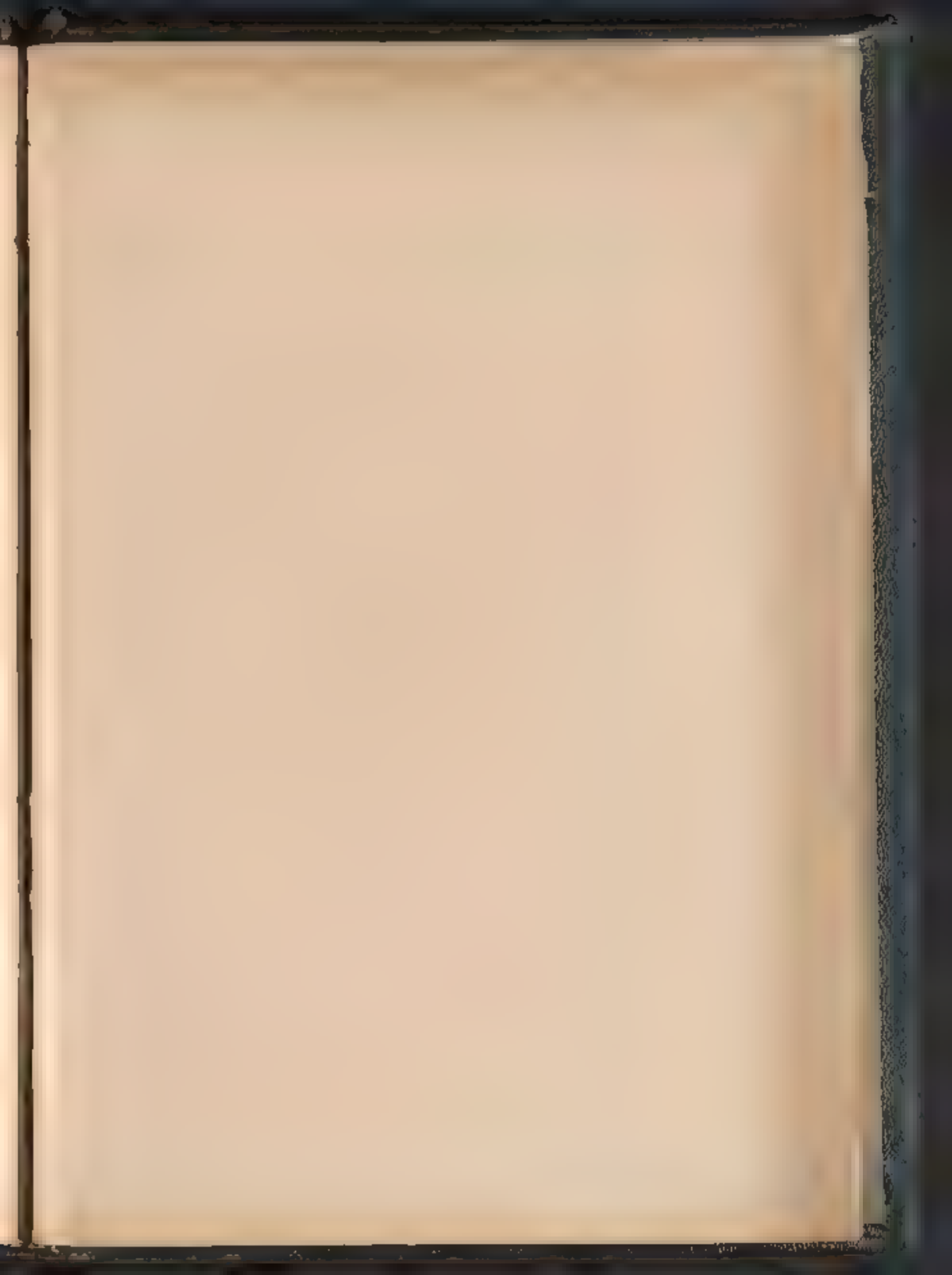
فأخذ الأصم الأيكم يقص عليهم بالإشارات قصة طويلة تتعلق بحادث سرقة ، وعقب على هذه القصة بتعليقات من عنده فلم يفهم فهم أى حركة من حركاته ، لاتحادها مع حركاتهم القفوية .

وذهب العلامة ريبو إلى أنها قابلة للإصلاح والتهديب ، وأنه لو طال استخدام الشعوب الإنسانية لها لسارت في سبيل الارتقاء ، ولأصابتها كثير من أسباب التنقيح تحت تأثير الرقى العقلي ، ومطالب الحياة الاجتماعية ، واتساع حاجات الإنسان ، وأعمال المخترعين والعلماء ... وما إلى ذلك .

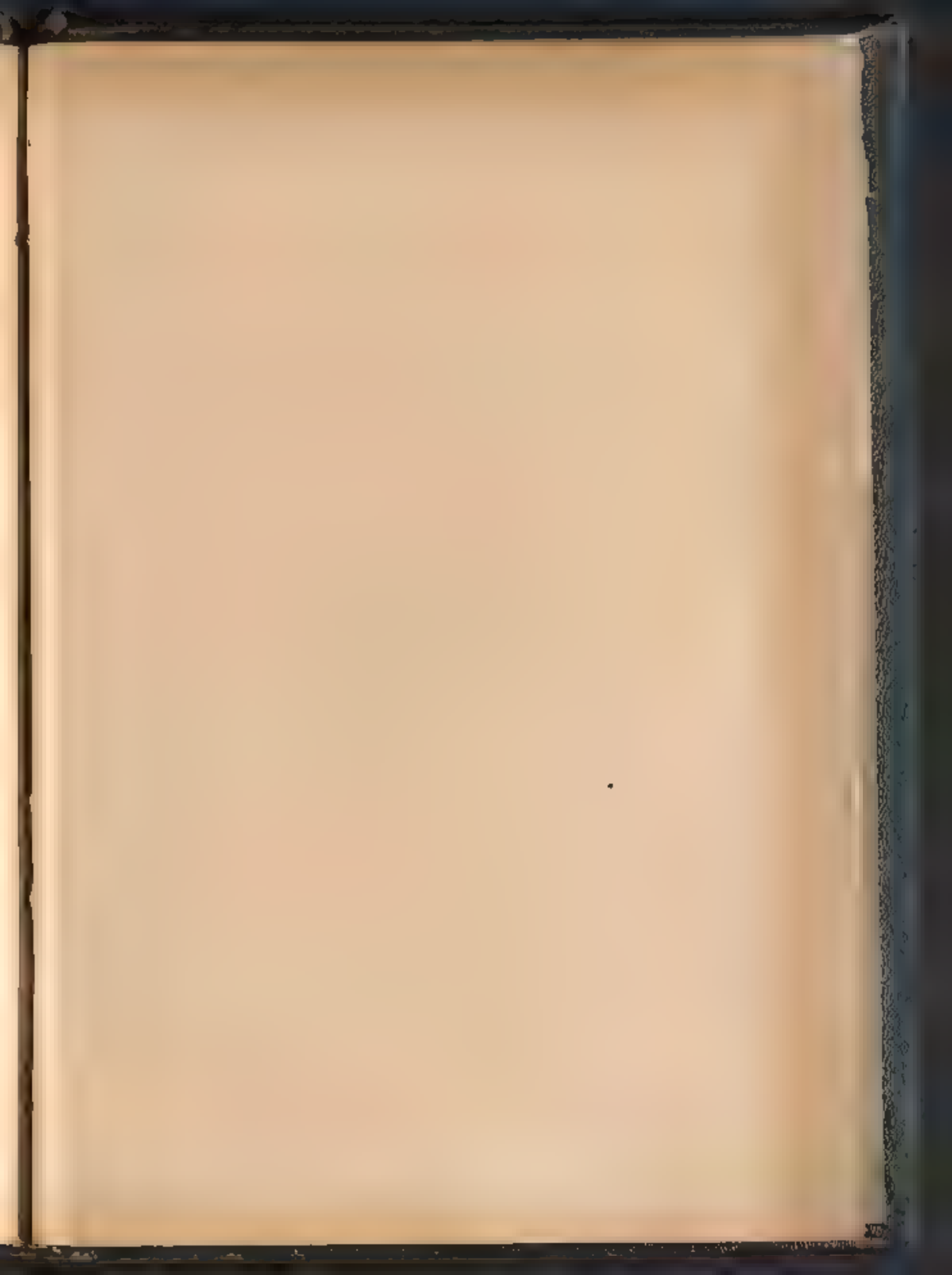
غير أنه مهما ينلها من التهديب فلن تخلو من مثالبها الذاتية . فهي تستأثر باليد فتحول دون القيام بأى عمل آخر في أثناء التعبير . ويتوقف إدراكها على النظر ، فلا يمكن التعبير بها عن بعد ولا في الظلام . وهي قائمة على تقليد الأشياء المحسة ، فلا تكاد تقوى على التعبير عن المعاني الكلية أو وصف المشاعر والوجدان . هذا إلى أنها عارية عن الدقة في كثير من مظاهرها وأنها تقتضى إسرافاً كبيراً في الوقت والمجهود .

## أهم مراجع هذا الفصل

مذكورة في التعليقات



الباب السابع  
من غرائب نظم الأسرة



## الفصل الأول

### نظم التعدد الغريبة في الزواج

- ١ -

وحدة الزوجة مع تعدد الأزواج Polyandrie

وهو نظام يباح بمقتضاه جماعة من الرجال أن يشتركوا في زوجة واحدة ، فتكون حقاً مشاعاً بينهم . وقد أخذ بهذا النظام عدد غير يسير من الشعوب البدائية والمتحضرة . واحتلت المجتمعات التي أخذت بهذا النظام في الوضع القانوني للأزواج . ففي بعضها يعامل الأزواج جميعاً على قدم المساواة في الحقوق والواجبات والآبوة ؛ فيعتبرون جميعاً آباء لمن تأتي به الزوجة من أولاد . وفي بعضها يعتبر أحد الأزواج زوجاً أصيلاً ، فينسب إليه وحده جميع من تأتي به المرأة من أولاد ، ويعتبر من عداه أزواجاً من الدرجة الثانية لم ساكنة الزوجة في مقابل بعض واجبات تلقى على عاتقهم أو بغير مقابل ولكن بدون أن ينسب إليهم الأولاد وبدون أن يكون لهم جميع حقوق الزوج الأصيل .

وباستقراء الأشكال التي يتمثل فيها هذا النظام يتبين أن أهمها يرجع إلى ثلاثة أشكال :

( الشكل الأول ) أن يكون ثمة رابطة قرابة بين الأزواج المشتركين في زوجة واحدة ، فلا يباح هذا التعدد إلا إذا توافرت هذه الرابطة وفي الحدود

التي تقرها النظم والتقاليد . — وقد أخذ بهذا الشكل كثير من المجتمعات البدائية والمتحضرة .

ففي كثير من المناطق الواقعة في جنوب الهند وعلى حدودها الشمالية كان يباح للأخوة أن يشتركوا في زوجة واحدة . ولا يزال هذا النظام متبعاً إلى الوقت الحاضر لدى كثير من القبائل الجبلية على حدود الهند الشمالية ، وخاصة لدى قبائل «جوانسواريس» . ويبلغ عدد أفراد هذه القبائل الآن نحو مائة ألف . وقد جرت العادة لديهم أن يتزوج الأخ الأكبر فتصبح زوجته زوجة لجميع إخوته . وإذا لم يكن للشاب إخوة فإنه قلنا يجد زوجة . وتمتع المرأة بإخلاص أزواجها جميعاً وينسب إليهم جميع الأولاد . ولكل زوج منهم وظيفة ، فيقول الابن مثلاً : أبي الذي يدير شئون البيت ؛ وأبي الذي يراعى الأغنام ... وهكذا . وفي أثناء الحكم البريطاني كانت هذه القبائل تعد من القبائل المجرمة المتمردة ، وكان يحال بينها وبين الانصال بسائر الهنود . ولكن الحكومة الهندية الحاضرة تحاول إخصاعها لقانون العام ، وتبصرها بمزايا المدنية الحديثة ، وإرغامها على الإقلاع عن نظام تعدد الأزواج . وبجانب الجهود التي تبذلها الحكومة في هذا السبيل لا يدخر المصلحون الاجتماعيون وسعاً لإنهاض هذه القبائل من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية . وهم يأملون أن يؤدي رفع مستوى المعيشة بين أفرادها إلى إفلاعها عن نظام تعدد الأزواج . ولكن الزعماء السياسيين في الهند يرون أن هذا النظام متأصل في نفوس هذه القبائل تأصلاً قوياً ، وأنه لا بد من انقضاء وقت طويل قبل أن يقلعوا عنه ، وخاصة أنه يقوم على دعائم من المعتقدات الدينية ومن الأساطير المقدسة عند الهنود . فقد جاء في «المأهاهاراتا» Mahabharata تلك الملحمة الشعرية الشهيرة ( وهي تشبه الإلياذة والأوديسا عند قدماء اليونان ) أن أرجونا ، ثالث أبناء الملك باندو الحنـة ، فاز بدوبادى ، ابنة ملك باشالا ، بأن أطلق خمسة أسهم داخل



حلقة ضيقة معلقة في الهواء . (١) ولكن أمه قالت له : أن كل شيء يجب أن يكون مشاعاً . وهكذا اقترن الأخوة الخمسة بالفنأة وعاشوا جميعاً في قصر واحد (٢) .

وفي عشائر الريدي الهندية Reddi جرت العادة أن تزوج المرأة بين السادسة عشرة والعشرين من عمرها بطفل في سن الخامسة . ويعتبر هذا الطفل زوجها الشرعي النظري . ولكن يجب أن يكون لها بجانبه زوج عملي وهو عم الطفل أو ابن عمه أو أبوه نفسه أحياناً . وجميع من تأتي المرأة به من الأولاد يلحق نسبهم بزوجها الشرعي وحده . حتى إذا بلغ هذا الغلام أشده ، تكون المرأة قد وهن العظم منها وأدركتها الشيخوخة ، فيتصل بأحدى زوجات أولاده أو أقاربه الصغار ويصبح زوجها العملي إلى جانب زوجها الشرعي ، ويقوم بالدور نفسه الذي قام به غيره مع زوجته وهو صغير ... وهكذا دواليك (٣) .

وفي عشائر « النير » Nairs وهي التي تتألف منها الطبقة الراقية من عشائر « الملابار » Malabar في الهند ، يكون للمرأة عادة خمسة أزواج أو ستة ، وقد يصل هذا العدد أحياناً إلى عشرة أو اثني عشر ؛ بل قد يباح لها أحياناً أن تقترن بأي عدد تشاء من الرجال . ولكن يشترط في الأزواج أن يكونوا أقرباء بعضهم لبعض ينتمون إلى عشيرة واحدة . وقد جرت العادة أن نبيت مع كل واحد منهم نحو عشر ليال ، وأن يتناوبوا معها أدوارهم بالترتيب (٤) .

وفي بعض المناطق التابعة لروسيا Le Mir Russe ، كان رب العائلة يزوج أبنائه وهم بين الثامنة والعاشرة من أعمارهم لعنيتات بين الخامسة والعشرين والثلاثين ،

---

(١) يشبه هذا ما نسبته الأوديبيا إلى أوليس . ( انظر كتابنا في الشعر الخامس عند قدماء اليونان ، وبلغ دلالة على عقائدهم ونظمهم الاجتماعية ، صفحتي ٣١ ، ٣٢ ) .

(٢) انظر في هذا ما جاء في العدد الصادر في ١٠/٦/٥٥ من جريدة الاهرام نقلاً عن رسالة حانتها من دلمى الجديدة من مندوبها جون لافانتيك .

(٣) Letourneau; la Sociologie d'après l'Ethnographie, 349.

Ibid. 353 (٤)

على أن يكون الغلام الزوج الشرعي ، والآب نفسه الزوج المعلن<sup>(١)</sup> ، على نحو ما كان متبعاً في عشائر الريدي في الهند .

وفي بعض قبائل العرب في الجاهلية كان الولد يشارك أباه في زوجته (الآب) ؛ وكانوا يسمون هذا الولد «الضيزن»<sup>(٢)</sup> .

( الشكل الثاني ) أن يباح هذا التعدد بدون قيد بوجود رابطة قرابة بين الأزواج . وقد أخذ بهذا الشكل كذلك كثير من الشعوب البدائية والمنحصرة .

في جزائر المريكز ( بولينزيا ) كان يباح أحياناً للمرأة أن يكون لها أكثر من زوج واحد بدون قيد بوجود رابطة قرابة بين الأزواج . ولم يكن هذا مقصوراً على طبقة دون أخرى . فالرحالة إيليس Ellis يحدثنا عن مظاهر لهذا التعدد لدى نساء الرؤساء وأعيان القوم أنفسهم<sup>(٣)</sup> . — وفي جزيرة « الهواي » Ile hawaii يكون للمرأة زوج أصيل تعتبر ملكاً له ، وينسب إليه وحده من تأتي به من الأولاد ؛ ولكن يباح أن يكون لها بجانبه أزواج غير أصيلين لم حق مساكنتها بدون أن يكون لهم الحق في أن ينسب إليهم أحد من تأتي به<sup>(٤)</sup> . ولهذا النظام أشباه ونظائر في سيلان والتبت وكثير من الجزر المحصورة بينهما ولدى عشائر التودا بجنوبي الهند Todas وعشائر المازايس والبايبا بأفريقية Masais, Bahima<sup>(٥)</sup> .

ويظهر أن بعض قبائل العرب في الجاهلية كانت تأخذ بهذا الشكل من الزواج . وإلى هذا تشير السيدة عائشة أم المؤمنين في حديثها عن النكاح

Ibid. 373 (١)

(٢) « الصبرون كعبد الحافظ الثقة ، وولد الرجل وعياله ، وشركاؤه ، ومن يراحم أباه في امرأته ، ومن يراحمك عند الاستغناء ... » اهـ من القاموس المحيط .

Letourneau, op. cit. 349. (٣)

Ibid. (٤)

Ibid 352; Eraser : L'Orgine de la famille et du Clan (٥)  
(trad fran,) 133; Westermarck, op. cit. 371.

في الجاهلية إذ تقول : « كان يجتمع الرهط دون العشرة ، فيدخلون على المرأة فيصيبونها . فإذا حلت ووضعت ترسل إليهم ، فلا يستطيع واحد منهم أن يمتنع . وإذا اجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك باقلا ، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، لا يستطيع أن يمتنع عنه الرجل . »

ويظهر من هذا النص أن عدد الرجال الذين كان يباح لهم الزواج بامرأة واحدة وفق هذا النظام ما كان يصح أن يزيد على عشرة (١) . وأنه ما كان يشترط أن توجد بينهم رابطة قرابة ، وأن معاشرتهم للزوجة لم تكن على صورة داعة ، ولم تكن لها مقومات الحياة العائلية ، وأن هذه الصلة ، على الرغم من حالتها المؤقتة ومن تجردتها من صفات الحياة العائلية ، كانت توجب على الرجال بعض التزامات فيما يتعلق بنسب الأولاد على الأخص ، فكان للمرأة الخيار في أن تلحق ولدها بأي رجل منهم فيتصل فيه به .

( الشكل الثالث ) أن يكون للمرأة زوج واحد ، ولكن يسمح لغيره أن يتصل بها فترة ما محددة قبل زفافها أو بعده في ظروف معينة وتقبو خاصة بدون أن يكون لهذا الدخيل صفة الزوج ولا حقوقه .

من ذلك نكاح « الاستبضاع » الذي كان شائعا عند قدماء اليونان وعند العرب في الجاهلية وعند الهنود وغيرهم . ونكاح الاستبضاع أن يدع الزوج زوجته تتصل برجل عظيم لتأتي له بأولاد نجباء ينسبون إلى الزوج من الناحية الشرعية ويحملون اسمه ويعتبرون من أولاده ؛ ولكن تتوافر فيهم بالوراثة صفات الرجل العظيم الذي جاءوا من مائه . فهذا الرجل لم تكن تربطهم به أية رابطة شرعية قانونية ، وإنما كان يعد مجرد أداة استخدمت في انجابهم على

(١) فإن زادوا على ذلك اعتبرت المرأة بغياء وطلق عليها نظام البنايا الذي أشارت إليه عائشة في قسم آخر من حديثها — وسنعرض له عند كلامنا على الشيوعية الجنسية في الفترة الثالثة من هذا الفصل .

صورة ما . وقد أجاز مشروع ، اسبرطة ، الشهير ، ليكوجورس ، هذا النظام . فأباح للأزواج أن يرسلوا زوجاتهم لعطاء الرجال ليستبضعوا منهم ويحصلوا بذلك على أولاد نجباء . وحث ليكوجورس الشيوخ من الأزواج أن يبحث كل منهم لزوجته الشابة على قتي كريم الخلق لتستمتع به ؛ وعد هذا العمل من أعمال الفضيلة والإيثار ومن الأعمال الوطنية الجليلة لإدخاله في البلاد سلا قويا (١) . وقد جاء في حديث عائشة عن النكاح في الجاهلية ما يدل على أن هذا النظام كان متبعاً كذلك عند العرب قبل الإسلام ، وذلك إذ تقول : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : ارسلني إلى فلان فاستبضعني منه . ويمتثل لها زوجها ولا يمسا أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد . فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . ويظهر من هذا النص أن الأمر كان يتم برغبة الزوج بل بأمره ؛ وأنه كان يفعل ذلك حرصاً على نجابة أولاده ؛ ولذلك كان يجعل الزوجة تستبضع من عظماء القوم حتى يرث الولد صفاته فيكون موضع فخر للزوج ؛ وأن هذا الولد يعتبر ولداً للزوج الشرعي لا للعظيم الذي جاء من صلبه . وقد أجازت قوانين مانو (وهي الشريعة التي تقوم عليها الديانة البرهمية في الهند) للمرأة أن تتصل بزواج أختها إذا كان زوجها هي عقيماً لتأتي لزوجها بأولاد (٢) .

وفي بعض المجتمعات كان يباح للمرأة في حالة غيبة زوجها أن تعيش مع رجل تختاره لتجد في كنفه ما يلزم لها من رعاية وحماية . غير أنها ما كانت تمد زوجة له . وإنما كانت تبقى من الناحية الشرعية على ذمة زوجها المائب . وقد عثر علماء الإثنوجرافيا على هذا النظام عند بعض الشعوب البدائية وخاصة عند بعض عشائر من سكان أستراليا الأصليين (٣) .

Letourneau, op. cit, 369 (١)

Ibid. 354. (٢)

Westermarck, op. cit. 377, (٣)

وفي بعض المجتمعات كان يباح للزوج أن يعم زوجته أو يؤجرها لشخص آخر أو يقدمها لضيفانه ، وكان ينظر إلى هذا الإجراء الأخير لدى هذه المجتمعات على أنه مطهر من مظاهر تكريم الضيف والحفاوة به . ففي بعض عشائر من سكان أستراليا الأصليين كان يمكن لأي رجل أن يستأجر امرأة صديقه للاستمتاع بها مدة ما ابقاء أجر معين<sup>(١)</sup> . وفي أثينا كان كثير من عظماء الرجال أنفسهم يعمرون زوجاتهم لغيرهم . وقد أعار سقراط نفسه زوجته ، جزانتيب ، Xantipp إلى أليسياب ، Aliciabe<sup>(٢)</sup> . - وتقديم الزوجة للضيف كان مفيداً متبعاً عند كثير من الشعوب السامية وغيرها .

وفي بعض المجتمعات كان يتحتم أو يجوز أن يدخل على العروس قبل أن تزف إلى زوجها بعض رجال الدين أو السحر أو ذوي السلطان أو طائفة من ضيوف العروس أو غير هؤلاء . - ففي بعض العشائر الأسترالية جرت التقاليد أن يتصل بالعروس ، قبل زفافها إلى زوجها بعض أفراد معينين من رجال عشيرتها . وقد حدد العرف طبقات الأفراد الذين يباح لهم ذلك ونظم انصاهم بالعروس ورتبهم بحسب درجة قرابتهم ، فحمل لكل منهم دوراً لا يستقدمه ولا يستأخره<sup>(٣)</sup> . وقد جرت العادة في مالابار Malabar ما لهند أن تقضى عروس الملك بعد أن يتم عقد زواجها به الليالي الثلاث الأولى مع كبير رجال الدين ؛ وبعد انقضاء هذه المدة كان يمنحه الملك حمير قطعة من الذهب مكافأة له على ما قام به<sup>(٤)</sup> . وفي جزائر البليار Baléares كانت العروس تقدم نفسها في الليلة الأولى من زفافها لجميع من يحضر عرسها من المدعوين من الرجال<sup>(٥)</sup> . - وقد كنت الرحالة

Letourneau op. cit. 330. (١)

Ibid, 369 (٢)

Frazer, op. cit. 108. (٣)

Letourneau, op. cit. 363, 364. (٤)

Ibid. 367. (٥)

الطلياني ماركو پولو Marco-Polo (١٢٥٤ - ١٣٢٣ م) عند سكان الكوشنشين Cochinchine (منطقة من الهند الصينية) أنه لا يجوز للعروس أن تزف إلى زوجها إلا بعد أن تعرض على الملك ويتصل بها إذا شاء (١). ومن ذلك أيضا ما تذكره الأساطير العربية بصدد قبائل طسم في الجاهلية ، إذ تروى أن الملك في هذه القبائل كان يقترح كل عروس قبل أن تزف إلى زوجها ، وتنسب هذه الأساطير الفصل في القضاء على هذا النظام لفئة عربية تدعى عفيرة ، اقتضاها ملك طسم قبل زفافها ، فخرجت إلى قومها تثير حميتهم وتستحثهم على القضاء على هذا العار بقصيدة تقول فيها :

أيجمل ما يؤتى إلى فتياتكم      وأتم رجال فيكم عدد النمل  
فلو أننا كنا رجالا . وكتم      نساء لكانا لا نفر لذا العمل

ومع أن أسلوب هذه القصيدة وعباراتها تدل على أنها من صنع الرواة في العصور اللاحقة للإسلام ، فإنه من المحتمل أن تكون هذه الأسطورة مترجمة في جملتها عن نظام كان متبعا عند بعض قبائل العرب في الجاهلية وتناقل الناس قصته خلفهم عن سلفهم . — ومن ذلك أيضا أن التقاليد في قبائل الكيبسيجيس Kipsigis في كينيا الإنجليزية تبيح للفئة ، قبل أن تبلغ سن الالتحاق Initiation (وهي السن التي تلتحق فيها بالجمعية الدينية ، بعد عدة طقوس معقدة) أن تتخذ لها عشيقا من بين أفراد عشيرتها . وبأوى إليها هذا العشيق في فسطاط خاص يسمونه سينجروانا Singorotna ، فيقضيان معا سواد الليل عاريين متحاضنين ، ويسمح لعشيقتها أن يتصل بها في أوضاع خاصة متعارف عليها بدون أن يفتض بكارتها . فإذا تزوج أحدهما (وبندر أن يتزوج العشيق عشيقته ؛ ومهما يكن من شيء فإن أولياء الأمور هم الذين يزوجون فتياتهم وفتياتهم بدون حاجة إلى استشارتهم ولا رضاهم) انقطعت صته بالآخر . وإذا اتفق أن تجاوز شاب



في صلته بعشيقته الأوضاع الاجتماعية فحملت منه ، فإن المجتمع ينكر ذلك ؛ ولكن هذا لا يحول بينها وبين الزواج ، حتى وهي في حالة الحمل ؛ بل أن الزوج ليقتبط أكبر اعتبار إذا ظهر له أن عروسه قد رقت إليه وهي حامل . والولد يعتبر على الرغم من ذلك ابناً للزوج الشرعي لا للعشيق (١) .

• • •

هذا ، وينتشر نظام تعدد الأزواج للزوجة الواحدة في أشكاله المختلفة في الشعوب التي يزيد فيها عدد الرجال على عدد النساء . ولكن هذا السبب لا يكفي لنشأة هذا النظام إلا إذا انضمت إليه عوامل اجتماعية أخرى . وغنى عن البيان أن هذا النظام يؤدي إلى ضعف غريزة الغيرة على النساء . وهذا هو ما لاحظته الباحثون في الشعوب البدائية التي تراوله . — ولم ينتشر هذا النظام انتشاراً كبيراً في الشعوب الإنسانية ، بل من الممكن القول إنه كان بمثابة استثناء نادر من القواعد العامة للزواج .

وقد ظن ماك لينان Mac Lenan أنه كان القاعدة في الزواج في العصور الإنسانية الأولى . ولكن هذه النظرية لم يقم عليها أي دليل يطمأن إليه ، بل قام على بطلانها أدلة كثيرة . فمن استقرار طواهر الزواج يظهر أن هذا النظام لم يبدى في صورة واضحة إلا لدى طائفة من الشعوب المتحصرة كما يقبر ذلك من الأمثلة التي ضربناها فيما سبق ، وأنه لم يبدى في الشعوب البدائية ، التي تمثل أقدم الأوضاع الإنسانية ، إلا في نطاق ضيق كل الضيق ، وفي صور غير واضحة يمكن رجمها إلى نظم أخرى من نظم الزواج (٢) .

Peristiany : La Vie et le Droit Coutumier de Kipsigis (١)  
de Kenya; Social Institution of Kipsigis

V. Westermarck, op. cit. 371, 372, (٢)

## تعدد الأزواج والزوجات مما

marriage par groupes

وهو نظام يباح بمقتضاء جماعة معينة من الرجال أن يعاشروا عدداً معيناً من النساء معاشرته الزوجية على أن يكن حفاً مشاعاً بينهم . — وقد كشفت البحوث التاريخية والإثنوجرافية عن عدة أشكال لهذا النظام في كثير من الشعوب البدائية وغيرها . — وفيما يلي بعض نماذج لاختلاف أشكال هذا النظام :

ففي بعض قبائل التبت وملايا كان يجوز لطائفة من الرجال أن يتزوجوا طائفة من النساء على طريق الشيوخ<sup>(١)</sup> . . ويرى المؤرخ اليوناني « سترابون » عن بعض الشعوب السامية البدوية من العرب وغيرهم أن بعض عشارها كانت تسير على نظام تعدد الأزواج والزوجات مما<sup>(٢)</sup>

وعند بعض السكان الأصليين لجزائر بولينزيا Polynésie كان يعاشر الإخوة أخواتهم معاشرته الأزواج<sup>(٣)</sup> . وفي جزائر الشركة « Ile de la Société » (من مجموعة جزائر بولينزيا) كان يجتمع أحياناً في منزل واحد نحو عشرين رجلاً متزوجين ، فتصبح زوجاتهم شبه مشاعات بينهم<sup>(٤)</sup> . — ولوحظ شيء من ذلك أيضاً عند طوائف من السكان الأصليين لأستراليا . — ولكن يظهر أن هذه الأوضاع قد نشأت عند البدائيين في بولينزيا وأستراليا نتيجة لتجمع عدد من الأسر في منزل واحد أو في كوخ واحد ، وأن كل امرأة من النساء كانت

Frazer, op. cit. (١)

Letourneau, op. cit. 394. (٢)

Frazer, op. cit. 102, 103. (٣)

Letourneau, op. cit. 388. (٤)

تعتبر زوجة لرجل معين ، وإن كان يجوز لغيره من المقيمين معه في المنزل أن يتصل بها (١). ولم يكن الدكتور هويت Dr. Hewitt على حق حينما اتخذ من هذه الأمثلة دليلا على أن تعدد الأزواج والزوجات معا كان النظام الأصلي والأقدم عند الأستراليين ، وأن النظم الأخرى نظم مستحدثة لديهم بعد ذلك . وفي الحق أن العكس هو الصحيح . فإن الزواج العردي هو النظام السائد لديهم ، وهو الذي كانوا ينظرون إليه على أنه الزواج الشرعي . أما هذه الاتصالات التي ضربنا أمثلة لها فكانوا ينظرون إليها على أنها أمور استثنائية خارجة عن الزواج اقتضتها ظروف خاصة (٢) .

ومن أهم مظاهر هذا النظام ما يسمونه الزواج الأخوي ، وهو نظام يباح للاخوة أن يتزوجوا عدداً من النساء على أن يكن حقا مشاعا بينهم . وهذا النظام على ضربين : ضرب مطلق يباح بمقتضاه للاخوة أن يتزوجوا عدداً من النساء سواء أكن قريات بعضن ليهن أو غير قريات ، وضرب مقيد يباح بمقتضاه للاخوة من أسرة ما أن يتزوجوا بأخوات من أسرة أخرى على أن يكن شائعات بينهم . وهذا النظام بضريبه كان معدولا به في بعض الشعوب البدائية وفي بعض بلاد الهند على الأخص (٣) . فمند بعض العشائر من سكان بولينزيا الأصليين كان يباح للاخوة الذكور أن يتخذوا زوجات مشتركات بينهم ، سواء أكن قريات ، بعضن ليهن أم غير قريات (٤) . وفي بعض عشائر التودا Today بالهند الجنوبية كانت العتاة إذا تزوجت رجلا أصبحت بحكم هذا الزواج

---

Westermarck, op. cit. p. p. 376. (١)

Ibid, 377. (٢)

(٣) انظر تفاسيل هذا الموضوع في :

Westermarck, op. cit. 134.

Frazer, op. cit. 141—142.

Letourneau, op. cit. 388. (٤)

نفسه زوجة لجميع إخوته الأصغر منه Frères puînés بمجرد أن يبلغ كل منهم الحلم ، ويصبح هؤلاء الإخوة كذلك أزواجا لأخوات المرأة الصغيرات بمجرد أن يبينن المحيض . وينسب أول ولد لكل امرأة منهن للاخ الأكبر والولد الثاني لمن يليه وهكذا بحسب ترتيب السن (١) . وفي عشائر التوتيار Totiyars في الهند يشترك الإخوة وأعمامهم في زوجات شائعات بينهم (٢) . وفي سيلان ينتشر نظام تعدد الزوجات والأزواج معا عند الطبقات الموصرة على الأخص ، ويكون الأزواج في الغالب أخوة ، وينسب جميع الأولاد لجميع الأخوة بدون تفرقة بينهم (٣) .

ويرى مرجان وفريزر Margan, Frazer أن نظام الزواج الأخوي، قد ترك عدة آثار في نظم الزواج المتبعة في كثير من الشعوب الإنسانية . ومن أهم هذه الآثار نظامان يسير على أحدهما أو على كليهما عدد كبير من المجتمعات : أولهما يسمى الليفيرا (Levirat : de latin "levir" = frère du mari) أي الزواج بأرملة الاخ ؛ وهو نظام ينتمى أو يحسن أو يجوز بمقتضاه للاخ الأصغر أو الأكبر أو كليهما (حسب اختلاف الأمم التي تسير عليه) أن يتزوج أرملة أخيه المتوفى . وهذا النظام منتشر في كثير من الأمم الإنسانية . ويظهر أنه كان سائدا في بعض عشائر العرب في الجاهلية . — فقد روى عنهم أنه إذا مات أحدكم ، قال وليه — وربما كان أخاه أو ابن عمه — أنا أحق بأمراته . فينقلها إلى داره ؛ ثم إن شاء استبقاها لنفسه ، وإن شاء زوجها وذهب بمهرها (١) . . . وقد قصى الإسلام على هذا النظام وقطع أسباب الأخذ به . ومع ذلك لا تزال له إلى الوقت الحاضر آثار عميقة في مصر وغيرها من البلاد العربية . وثانيهما سماه فريزر Frazer

Ibid. 353. (١)

Ibid. (٢)

Ibid. (٣)

(٤) عبد الله عيسى : المرأة العربية في جاهليتها ص ٦٦ .

من باب القياس وسورورا Sorare, du latin "Sorus" = Sœur أى الزواج بأخت الزوجة . وهو نظام يتحتم أو يحسن أو يجوز بمقتضاه لزوج الأخت الكبرى الحية فقط أو المتوفاة فقط أو سواء أ كانت حية أو متوفاة ( بحسب اختلاف الأمم التى تديره ) أن يزوج أخواتها الصغيرات بعد وفاتها أو يجمعهم معاً فى زواج واحد . وهذا النظام منتشر فى كثير من الشعوب البدائية وغيرها .

وقد لاحظته العلامة مرجان Morgan فى أربعين قبيلة من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية . وبمصر القبائل التى تدعى فى حالة حياة الأخت تحتم على زوج الأخت الكبرى أن يضم إليها أخواتها الصغيرات ؛ وبعضها لا يحتم هذا الجمع ، بل يتيح لزوج الأخت الكبرى أن يتنازل لغيره عن أخواتها أو عن بعضهن (١) .

— ٣ —

### الشيوعية الجنسية Promiscuité

وهى أن يكون جميع النساء فى مجتمع ما حقاً مشاعاً لجميع رجاله وجميع رجاله حقاً مشاعاً لجميع نساءه بدون تفيد بنظم الزواج المعروف .

ونظام الشيوعية المطلقة لم نعتز عليه فى أى مجتمع من المجتمعات الإنسانية ، سواء فى ذلك البدائى منها والمنحصر . فليس من بين المجتمعات الحاضرة والماضية التى وقفنا على نظمها عن طريق ملاحظتها أو ملاحظته ما خدعته من آثار أو عن طريق ما كتبه المؤرخون أو الرحالة أو علماء الإثنوجرافيا Ethnographie (وتطلق هذه الكلمة الآن فى الغالب على البحث فى النظم الاجتماعية للشعوب البدائية) أو القانون ، ليس من بين هذه المجتمعات ، أى مجتمع أخذ بنظام الشيوعية المصنقة فى علاقة الرجال بالنساء . فكان جميع نساءه حقاً مشاعاً لجميع رجاله .

(١) Frazer, op. cit. 134—142.

جميع أنه قد عثر في بعض الشعوب البدائية وغيرها على نظم وتقاليد قد يقابروا إلى الذهن في بادئ الرأي أنها شيوعية جنسية أو رواسب من شيوعية جنسية كانت مستخدمة قديما . ولكن عند تحليل هذه النظم والتقاليد يتبين أنها ليست من الشيوعية الجنسية في شيء .

وسنعرض فيما يلي لأهم هذه النظم مبينين ما بينها وبين الشيوعية المطلقة من فروق .

من ذلك ما لوحظ عند بعض الشعوب البدائية من إباحية في العلاقات الجنسية بين غير المتزوجين من الرجال والنساء ، وما لوحظ عند بعضها من إباحية في هذه العلاقات من قبل الزواج ومن بعده . فعند قبائل الباري والكياما Bari, Kunama في شرق أفريقيا لا ينظر إلى الاتصال بفتاة غير متزوجة على أنه عمل شائن أو مناف للحلق الكريم . بل إن علوق الفتاة من السفاح قبل زواجها لا ينقص لدى هذه العشائر شيئا من قيمتها ولا من سمعتها ، ولا يألوا من جراء ذلك ولا ينال من اتصال بها عقاب ولا لوم ولا ارداء . — ولا تجد عشائر الوانديورا Wanyora أية غضاظة في أن يكون الفتاة غير المتزوجة عشيق . وكثيرا ما تفضي قضايتهم الليل كله عند عشاقهم ولا يعدن إلى منازلهن إلا في الصباح ، فلا يجدن من أفراد أسرتهن غضبا ولا نقورا . — وفي عشائر الواديجو Wadiga ينذر أن تزف فتاة إلى زوجها وهي بكر ، ويعتبر هذا لديهم حادثا مخجلا ، بل يعد فضيحة لكلا العروسين . — وفي عشائر الباكونجو Bakongo لا تعرف حصانة النساء ولا يقام لها وزن ، وإنما يقاس شرف المرأة وتقاس مكائنها بمبلغ الرغبة فيها وما يرضه الراغبون في شرائها أو الزواج بها من ثمن . — وفي معظم مناطق أفريقيا الاستوائية الإنجليزية لا يحظر الاتصال بالفتيات قبل بلوغهن ، بل ينذر — حسب ما يروي سيرجونسون Sir H. Johnston — أن تصل لديهم



فتاة إلى سن الخامسة بدون أن تكون قد اقتضت بكارتها . — وفي قبائل الكفريين ( الجنوب الشرقى من أفريقيا ) لا توقع عقوبة ما على الاتصال بفنائه بذكر ولا على معاشرة امرأة غير متروجة أو متوفى عنها زوجها معاشرة سفاح ، ولا ينظر إلى مفترق هذه الأعمال نظرة تحقير ولا ازدراء . — وفي جزيرة مدغشقر لا يعد الزنا بغير المتزوجات ومن غير المتزوجين من الرذائل ؛ ولا تجب العفة لديهم على الرجل ولا على المرأة إلا بعد الزواج . — وفي عتاتر الماؤريس بزبلندة الجديدة . *Maoris a la Nouvelle Zelande* يلتقى للفتيات قبل الزواج الحمل على القارب ، ولا يكاد يقام وزن لعفافهن . — وفي جزر التونجا *Tonga* يباح لغير المتروجة من النساء أن تتخذ من العشاق من نساء وتشاؤهن لها أهواؤها بدون قيد بعدد وإن كان من المحجل لديهم أن تكثر المرأة من تغييرها لعشاقها . — وفي جزيرة سان — كريستوفال *St. Christoval* وفي الجزر المجاورة لها يباح للفتاة في أثناء سنتين أو ثلاث سنين بعد بلوغها المحيص أن تتصل بمن نساء من الفتيان . وكثيراً ما تتصل الفتاة لديهم في أثناء هذه الفترة بجميع فتيان قريبها أو بمعظمهم . — ولدى عتاتر الأنجاسى *Angami Nagas* حيث بعد تقصير الصغائر أماراة على البكارة تفجّل الفتيات من أن تطل صغائرهن قصيرة أمداً طويلاً ، ويعملن على أن يأنين ما يبيح لهن إطالة صغائرهن ؛ ولا بأس أن يحملن من اتصالاتهن هذه : بل أن الزوج في هذه العتاتر ليحرص على ألا تزف إليه عروسه إلا وقد أقامت الدليل العملى من قبل على أنها ليست عفيفاً ؛ ولا تكون العفة فضيلة عند هذه العتاتر إلا بعد الزواج . — وقد ذكر مردوخ عن عتاتر الإسكيمو أنه لا يقام لديهم وزن لما يسمى العفة والحصانة ؛ فالاتصال رجل متزوج أو غير متزوج بامرأة متروجة من غيره أو غير ذات زوج ، بل اتصال الذكور من الأطفال ببناتهم اتصالاً جنسياً . كل ذلك يعد في نظرهم من قبيل اللهو المباح . — وقد لوحظ

شيء من هذه الإباحية المطلقة لدى بعض العشائر الأسترالية كذلك . —  
 ويستفاد من قصيدة هندية قديمة وهي قصيدة الماهابهاراتا Mahābhārata  
 (وهي تشبه الإلياذة والأوديسيا عند اليونان كما سبقت الإشارة إلى ذلك)  
 أن هذه الإباحية كانت سائدة عند قدماء الآريين وأنه لم يكن ينظر  
 إليها على أنها رذيلة . — وفي بعض مناطق الهند يباح الأرملة وللزوجة التي يضارها  
 زوجها أن تصل عن تشاء على شريطة أن تقدم قبل ذلك أحذية لأحد معابد تولافا  
 Tulava . — وفي جزر الملايو ولدى كثير من العشائر غير المتحضرة في الهند والهند  
 الصينية لا بعد اتصال الرجال غير المتزوجين بالنساء غير المتزوجات خطيئة  
 ولا عيبا . — وتروى الأساطير الصينية أن هذه الإباحية هي التي كانت سائدة  
 في أقدم العهود . وأن أول ملوك الصين في العهد الخرافي وهو فو هي Fo-hi  
 هو الذي وضع حدا لهذه التقاليد . — وفي بعض الشعوب يباح في بعض أعياد  
 وبعض حفلات دينية ووطنية اتصال الرجال بالنساء بدون قيد ولا شرط .  
 ففي عشائر السونثال Sonthals بالهند مثلاً جرت العادة أن يعقد جميع الراغبين  
 في الزواج عقودهم مرة واحدة كل عام في أيام معلومات ، ويسبق هذه الأيام  
 ستة أيام يباح فيها لجميع الرجال الاتصال بجميع النساء (١) .

ولكن هذه الطواهر وما إليها لا تدل على أن هذه الشعوب كانت تسير  
 على نظام الشيوعية الجنسية المطلقة ففي جميع هذه الشعوب يعد الزواج هو الوضع  
 العادي السوي لكل من الرجل والمرأة . وكل ما هنالك أنه يباح لديها في خارج  
 نطاق الزوجية اتصال الرجال بالنساء في بعض الأحوال وبعض الشروط ،

(١) انظر في الأمثلة التي ذكرناها وغيرها :

Westermarck, op. cit. 406, 407,

Letourneau, op. cit. 330, 352, 360, 363, 364.

أو لا تعاقب قوانينها ولا تقاليدما على هذا النوع من الاتصال . فهذا الاتصال عبارة عن استثناء من النظام الأصل المقرر في صدد ارتباط الرجل بالمرأة ، واستثناء غير مطلق ، بل مفيد بعدة قيود . ولا يعد الشعب سائراً على نظام الشيوعية الجنسية المطلقة إلا إذا ألغى الرواح بجميع أشكاله ، وأصبح جميع نسائه حفا مشاعاً لجميع رجاله .

---

أهم مراجع هذا الفصل

مذكورة في التعليقات

## الفصل الثاني

### البغاء المدني والبغاء المقدس

- ١ -

#### البغاء المدني

أقر نظام البغاء المدني كثير من الشرائع والتقاليد لدى كثير من الشعوب المتحضرة والبدائية في مختلف العصور ، وإن كان انتشاره عند الشعوب المتحضرة أوسع من انتشاره عند غيرها .

فالعهد القديم يحدثنا عن البغايا من الإماء وغيرهن وعن البغاء على أنه نظام معترف به ومنتشر انتشاراً كبيراً لدى قدماء العبريين ، ويذكر أن كثيراً من آباء بني إسرائيل ومن عليه القوم أنفسهم كانوا يغشون أحياناً منازل المومسات ، وأن هؤلاء كانت لمن أجور معلومة . وينص سفر اللاويين على أنه لا يجوز للأب أن يخصص ابنته للبغاء<sup>(١)</sup> ؛ وهذا يدل على أن فريقاً من بني إسرائيل في هذا العهد كانوا يفعلون ذلك . — وكان هذا النظام منتشراً كذلك عند العرب في الجاهلية . في حديث عائشة عن أنواع النكاح قبل الإسلام ، أنه كان يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع عن جاءها ؛ ومن البغايا ؛ وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ؛ فمن أرادهن دخل عليهن . وقد ظل البغاء منتشراً عند مشركي العرب حتى بعد ظهور الإسلام . فقد كان لعبيد اقه بن أبي سب جوار خصصهن

(١) اللاويون ، اصحاح ١٩ ، آية ٢٩ .

للبناء وضرب عليهم الصرائف ؛ فشكى بعضهم ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فزل قوله تعالى : ولا تذكروا فتياكم على البغاء إن أردن تحصنا لتتقوا عرص الحياة الدنيا<sup>(١)</sup> . — وكان كثير من سرة اليونان في العصور القديمة يستخدمون إمامهم كذلك في البغاء للائتماع بأجورهم . وقد أمر المشركون أنفسهم هذا الضرب من الاستغلال الخسيس ؛ بل إن بعض حكوماتهم قد أحد ينافس الأفراد في هذه التجارة . فقد نظم صولون نفسه ، وهو كبير مشرعي أثينا وحاكمها ، شئون البغاء الرسمي وأنشأ منازل خاصة للبغايا واشترى عددا كبيرا من الإماء وفرقهن على هذه المنازل لتدفع الدولة بأجورهم . وبجواب هذا الصنف المتبدل من المومسات ، كان يوجد في أثينا صنف آخر من البغايا كن يعرفن باسم البغايا الرافيات ، وكن يمتزجن بهماهن الباهر وذكاثن الوفاد ، وكن موضع تقدير كثير من الناس ، بل كان عظماء الرجال أنفسهم يحرصون على الاتصال بهن ، وكن يعتبرن من الطبقات الراقية في المجتمع<sup>(٢)</sup> . — ومع أنه كان ينظر في روما للبغايا نظرة احتقار ، وكانت اسماءهن تدون في القوائم العامة للتشهير بهن ، فإن البغاء كان مستشرا انتشارا كبيرا في معظم المدن الرومانية . ولم يصدر أمر صريح بتحريم البغاء إلا في السنة التاسعة عشرة بعد الميلاد . على أن هذا التحريم لم يكن تاما وإنما كان مقصورا على الحرة المنحدرة من أبوين رومانيين ومن تكون زوجة لروماني أصيل . ومعنى ذلك أنه كان يباح لغير هاتين الطائفتين من النساء امتحان البغاء<sup>(٣)</sup> . — وكان كثير من اليابانيين يخصصون بناتهم للبغاء للائتماع بأجورهم فيدعنهن بمنزل من منازل الفسوق حيث يقضين حياتهن كلها أو فترة منها . وما كان يجوز للبنت أن تعصى أباهما ولا أن تعرض على أمره<sup>(٤)</sup> . ويضاف إلى هؤلاء طائفة أخرى كبيرة العدد في اليابان تألف

(١) سورة النور ، آية ٣٣ ، انظر خير البيضاوي .

(٢) Westermarck. op. cit. 413

Ibid. (٣)

Ibid. T. I. 604 - et Letourneau, op. cit. 362 (٤)

من اللائى يسلكن هذا الطريق بمحض اختيارهن . ومن ثم انتشر البغاء فى اليابان انتشارا مروعا وبلغ عدد ضحاياها عشرات الألوف ، حتى إن الحكومة الحاضرة لتجد صعوبة فى القضاء عليه أو تخفيف مضاره . — وقد جرت عادة بعض الأزواج فى الصين أن يقدموا زوجاتهم للبغاء للائتناع بأجورهن . ولذلك ورد فى تشريعهم المعروف بالأوامر O dornances أنه إذا أكره رجل امرأته على البغاء ليبتغى من وراء ذلك عرص الحياة الدنيا ، وانتحرت المرأة حتى لا تقرب هذا المنكر ، وجب أن يقام لها على مقربة من منزل أميها نصب تذكارى على هيئة قوس النصر (١) . — وكان كثير من الدول المتحضرة فى المصور الحديثة فى أوربا وأمريكا وغيرها ، حتى الدول الإسلامية نفسها ، تفر البغاء الرسمى وتسبب له اللوائح والقوانين ، وتنتفع حكوماتها بما تجنيه من المومسات من رسوم وصرائب . ولا يزال هذا الطام معمولاً به فى كثير من هذه الأمم فى الوقت الحاضر . وقد كان نظام البغاء الرسمى معترفاً به فى مصر نفسها إلى عهد قريب ، حتى بعد أن تقرر فى دستورها أن دينها الرسمى هو الإسلام ؛ بل لقد تطوع بعض الكتاب — ولا يزال بعضهم يتطوع إلى الآن — بالدفاع عنه بعد إلغائه ومطالبة الحكومة بإعادة النظر فى تحريمه لاتقاء بعض الأضرار الصحية واتقاء للبغاء السرى حسب ما يزعمون .

وكما انتشر البغاء فى الأمم المتحضرة انتشر كذلك فى كثير من الشعوب البدائية . وإن كان انتشاره عند البدائيين لا يعد شيئاً مذكوراً بجانب انتشاره عند المتحضرين . — فى مجموعة جزر سانتا كروزا Santa Cruz فى ميلانيزيا ، حسب رواية لـ دكتور كودرينجتون Codrington ، كان يمارس البغاء العمومى فى نطاق واسع عند السكان الأصليين . — وينتشر البغاء كذلك انتشاراً كبيراً عند معظم زنج أفريقيا . — وفى عشائر الوانيورو Wanyoro توجد للبغاء قواعد ونظم دقيقة تدل على تأصله لديها ورجوعه إلى أرملة مسحية فى القدم .



وفي جرونلاند Greenland كانت مزاول البغاء تعد أمرا مباحا ، ولكن كان يحرم ارتكاب الفاحشة على غير البغايا من الفتيات ، وكان يعد من الكبائر أن تحمل فتاة غير بنى من السماح . — وعند عشائر الأوماها Omahas ( من عشائر الهنود الحمر ) السكان الأصليون لأمريكا الشمالية ) كان يحرم السماح إلا مع البغايا العموميات أو ( المنكيات ) Manckeda وهو الاسم الذي كان يطلق عليهن لدى هذه العشائر . — وعند عشائر الإنكا Incas ( السكان الأصليون بجمهورية بيرو بأمريكا الجنوبية ) يزاول البغاء العام على أنه أمر مباح ويعتبر وسيلة لانقضاء كثير من الأصرار الصحية والاجتماعية ، وإن كان ينظر إليه وإلى من يزاوله من الفتيات نظرة احتقار (١) .

## — ٢ —

### البغاء المقدس

وبجانب هذا البغاء المادني ، يوجد نوع آخر من البغاء يطلق عليه اسم « البغاء الديني » أو « البغاء المقدس » لأنه كان يعد شعيرة من شعائر الدين أو وسيلة لإرضاء الآلهة والتقرب إليهم . وقد عثر الباحثون على عدة مظاهر لهذا النظام عند كثير من الشعوب البدائية والمتحضرة ، وإن كان انتشاره عند الشعوب المتحضرة أوسع من انتشاره عند البدائيين .

من أظهر أمثله عند الشعوب البدائية ما ذكره ريد Read عن بعض زنوج أفريقيا وما رواه إيليس Ellis عن أهل ساحل العبيد وساحل الذهب بأفريقيا . فقد روى ريد أن كثيرا من زنوج أفريقيا ينظرون إلى البغاء أحيانا على أنه عمل من أعمال البر الديني ، حتى إن المومرات من النساء ليشتريه ، وهن في مرض

(١) انظر في موضوع البغاء لدى الشعوب البدائية لى ذكرناها وغيرها :

Westermarck, op cit. 425, 426 .

موتن ، إمام يوصي بأن يخصص للبقاء ، ويتحدث من ذلك وسيلة للتقرب إلى الله وختم حياتهم بصالحات الأعمال ، كما تفعل الموسرات من نساء إنجلترا إذ يوصي قبل وفاتهن بحزم من ثروتهن لعمل خيري عام ، (١) . — وذكر إليس Billis ، في أثناء حديثه عن أهل ساحل العبيد Côte des Esclaves بأفريقيا ، أنه كان يوجد في كل مدينة من مدنها مؤسسة تقدم لإيها الفتيات الجميلات من سن العاشرة إلى الثانية عشرة . ويقضي هؤلاء الفتيات بهذه المؤسسات ثلاث سنين يتعلمن في أثناءها الرقص الديني وترتيل الأوراد المقدسة في صوت غنائي شجي . فإذا انتهت مدة تعلمن تخصصن للبقاء المقدس ، فيصبحن من الناحية النظرية وفقا على رجال الدين ، وإن كن في الواقع لا يمتنعن عنم يريدن من غيرهم . وينظر الناس إليهن في هذه البلاد على أنهن زوجات للأمة ، ويعتقدن أن ما يأتينه من أعمال ليس إلا ضربا من صروب العبادة التي يتقرب بها إلى الله ذلي ويستدر بها عطف السماء . ولذلك كان ينظر إلى من يأتين به من أولاد على أنهم أولاد الله (٢) . — وروى إليس ، كذلك عن أهل ساحل الذهب أن راهباتهم وقسيساتهم كان يحرم عليهن الزواج ؛ ولكن كن يزاولن نوعا من البقاء المقدس يشبهن عن طريقه رغبتهن مع من يشأن من الرجال . فإذا راق في أعين إحداهن رجل ما دعه إلى منزلها وأنهت إليه أن الإله الذي وقفت حياتها على عبادته قد أوحى إليها أن تتخذة عشيقا لها . فيغيبط الرجل أن وقع عليه هذا الاختيار . ويظل حبسا لديها يحقق لها رغبته ، حتى تملة ، فتستبدل به رجلا آخر تعيد معه القصة نفسها ... وهكذا دواليك . وقد تجمع الواحدة منهم أكثر من رجل واحد في منزلها ، بل لقد يصل عشاقها إلى ستة رجال أو نحو ذلك . وتسير البغي من هؤلاء في الحملات المقدسة يحيط بها عشاقها كما تحيط الحاشية بملكها أو أميرة . لحياتهن حياة فسق وغور بالفين ؛ وقد ينحدر

Read; Savage Africa 547; Westermarck op. cit. 425. (١)

Billis · Eve-speaking Peoples 141; Westermarck, op. (٢)  
cit. 427

بعضين في هذه الوحدة إلى مستوى حيواني وضعيف ، وخاصة عندما يهيجها الرقص الديني الذي تزاوله من حين لآخر ، (١) .

ولكن انتشار ، البغاء المقدس ، عند البدائيين لا يعد شيئا مذكورا إذا قيس بمبع انتشاره عند الشعوب المنحصرة في المصور القديمة .

فعند قدماء المبريين كانت توجد طوائف من النساء يزاولن البغاء في المعابد (٢) ؛ وكان يعتقد أنهن يخبين الخمر والبركة لمن يتصل بهن . وظل هذا التقليد الديني سائدا إلى أن حرمه سفر التثنية (٣) .

وعند قدماء الكنعانيين كانت توجد طائفة من النسوة يطلق عليهن اسم « كيدشولح » Kedesolh وقعن أنفسهن على خدمة المعبد ووهبن جسومهن للبغاء المقدس (٤) .

ومن أشهر أنواع البغاء المقدس ، في الشعوب المنحصرة ما كان يجري عليه العمل في بابل في معابد الإلهة ميليتا Mylitta ( وهي في شخصيتها ووظائفها وأساطيرها تمثل الإلهة أفروديت عند اليونان والإلهة فينوس عند الرومان والإلهة عشروت عند الساميين ) (٥) . وقد أفاد المؤرخ اليوناني هيرودوت في وصف هذا النظام ، قد كر أن كل بنت تولد في هذه البلاد كان يجب عليها مرة في حياتها أن تذهب إلى معبد الإلهة « ميليتا » حيث تقدم نفسها لرجل أجنبي عن البلاد . وكانت تجلس في ساحة المعبد حتى يمر بها أجنبي ويضع على ركبتيها قطعة فضية من النقد داعيا في أثناء ذلك ، أن تباركها الإلهة ميليتا وتشملها برعايتها .

Ellis . Tshi - speaking peoples, 121; Westermarck, op. (١) cit. 427.

(٢) موشع Osée الأصحاح الرابع ، آية ١٤ .

(٣) التثنية ، أصحاح ٢٢ آية ١٧ .

(٤) Westermarck, op. c5ib. 42. (٤)

(٥) انظر ص ٤٧ من الجزء الأول من هذا الكتاب .

ثم يصحب الفتاة بعيدا عن الساحة المقدسة ليقتضى معها إربته . وكانت قطعة النقد تعتبر مقدسة بمجرد وضعها على ركبة الفتاة ، وما كان يباح للفتاة أن ترفضها أو ترفض دعوة صاحبها . وكان ينظر إلى هذه الاتصالات على أنها ضرب من العبادة الدينية تقدمها الفتيات لإلهتهن ميليتا أو نوع من القربان يثقرين به إلهها . وكان يعتقد أن هذا الضرب من العبادة وهذا النوع من القربان من أحب العبادات والفرايين إلى الإلهة وأنه مصدر خير وبركة للفتاة نفسها ، كما تدل على ذلك العبارة التي كان يقولها الأجنبي وهو يلقى بقطعة النقد على ركبته . « لتباركك الإلهة ونشملك برعايتها » ( حسب رواية هيرودوت ) . وبعد أن تؤدي الفتاة واجبا هذا تعود إلى بيتها فرحة بما آتتها الآلهة من فصلها ، وثم تلتقي تهنيتات أهلها وصديقاتها ونصرها هداياهم الثمينة (١) .

ولهذا التقليد البابل أشباه ونظائر في كثير من بلاد اليونان في عصورها القديمة وخاصة في بعض مناطق في جزيرة قبرص وبيدوس Chypre Bybles وفورثة وأثينا . ففي قبرص كان يجب على العذاري أن يذهبن إلى ساحل البحر في أيام معلومات يقدمن بكارتهن قربانا للإلهة أفروديت (٢) . وفي معبد الإلهة أفروديت بقورثة كان يوجد عدد كبير من الدوة يزاول البغاء المقدس (٣) . وروى الأساطير اليونانية أن بعض مدن اليونان كانت إذا اشتبكت في حرب يندر أهلها للإلهة أفروديت أن يخصصوا ثمنهم للبقاء المقدس في معابدها إذا أمدتهم بعون منها فخرجوا متصرين على أعدائهم (٤) . وجرى عادة سراة اليونان في مملكة أثينا وغيرها أن يخصصوا بعض إيمانهم للبقاء في معبد من معابد الإلهة أفروديت على أن يخصص دخلهم من هذه المهنة لصندوق المعبد نفسه . وقد انتشرت هذه الطقوس في مختلف بلاد اليونان ، واعتبر تقديم الإماء على هذا النحو من

Westermarck, op. cit. 429, 430. (٢)

Ibid 429. (٣)

Letourneau, op. cit. 367. (١)

Westermarck, op. cit. 429. (٢)

صالحات الأعمال التي يتقرب بها الناس إلى الإلاهة ، حتى لقد كان الأغنياء وقواد الجيش يندرون لهذه الإلاهة عددا من هذا الصنف من الإمام إذا تحقق لهم مأرب أو انتصروا في حرب . فكثرت من جراء ذلك عدد هذا الصنف من الفتيات حتى صاقت عليهم معابد هذه الإلاهة بما رحبت . وقد أطرى هذه الأعمال كبير مؤرخهم ، سترابون ، وعددها مشروعات وطنية جليلة ، لأنها ، على حد قوله ، تجذب الأجانب للبلاد فينفقون فيها أموالهم فتتمش بذلك اقتصادياتها ويعمها الرخاء ويزداد دخلها القومي (١) .

وعند قدماء الأرمن كانت الفتيات تزاوأن كذلك البغاء المقدس بالطريقة نفسها التي كانت تسير عليها البابليات أو بطريقة قريبة منها . فقد روى سترابون أن كل أميرة أرمنية ، حتى الأسرات الأريستقراطية الراقية ، كانت تبث ببائنها إلى المعابد ليزاولن البغاء المقدس فترة معينة في حياتهن (٢) .

ويظهر أن المرأة التي كانت تعد في نظر قدماء المصريين زوجة الإلاهة في طيبة كانت تمارس كذلك البغاء المقدس في المعابد . فقد روى المؤرخ سترابون أنها كانت تنصل بمن نشاء من الرجال حتى يتحاض جسمها من أدوائه وتصل إلى أقصى درجات الطهر . وحينئذ تهب نفسها لرجل واحد (٣) .

وفي كثير من معابد الهند في العصور القديمة كانت تقطل طائفة من الراقصات يزاولن البغاء المقدس ؛ وكن موضع إجلال ديني ؛ فكانت مرتبتهن تأتي بعد مرتبة السدنة ومقدمي الضحايا للمعبد Sacrificateurs (٤) . وفي مدينة جوجا فاشو كشو ترو Jugunnat'hu Kshutru ( لأحدى مدن أوريسا Orissa في الهند ) كان يوجد عدد من البغايا يرقصن في المعبد أمام تمثال الإلاهة . وكن يسكن في منازل قريبة من المعبد نفسه وإن كانت منفصلة عنه . وكان الأصل أن

(١) اطر كناسا عن قصة الملكة في العام ٨٦ « العصور الثانية » ص ٨٦ .

(٢) Weitermarck, op. cit. 429.

Ibid. 428. (٣)

Ibid. (٤)

يتصل بين رجال الدين من طبقة البرهمنين ، وإن كان يجوز ذلك لغيرهم من زائري المعبد والطائفين به والعاكفين فيه (١) . وفي بجوا وبونديشري Ooa; Pondichéry وفي كثير من وديان نهر الكنجج Gange كان يجب على البنت قبل زواجها أن تتمتع البغاء المقدس في معبد من معابد جاجارنو Jaggerauro (٢) . وقد طلت هذه التقاليد سائدة في هذه المناطق وغيرها من بلاد الهند إلى عهد قريب . في القرن التاسع عشر نفسه كان لا يزال يوجد في كثير من معابد الهند عدد كبير من البغايا يزاولن مهتهن لصالح المعابد نفسها ويخصصن لها دخلين من هذه المهنة . وكان هؤلاء الفسوة موضع تقدير وإجلال خاصة القوم وعامتهم ، بل كن وحدهن اللائي يسمح لهن بالتعلم في الهند (٣) . وفي عهد بوذا نفسه كانت رثية البغايا موضع احترام كبير في بلدة فيرالي Virali ولم يستنكف بوذا نفسه أن ينزل في دارها (٤) .

- ٣ -

### نفور المجتمعات من نظام البغاء على العموم

غير أنه لا يصح أن يعد نظام البغاء ، في أية صورة ، من صوره ، من مظاهر الشيوعية الجنسية المطلقة . فهو في جميع الشعوب التي أبحاثه ، كما ظهر لنا ذلك فيما سبق ، مقيد بقيود كثيرة ومنظور إليه على أنه استثناء لا يمثل مطلقا الحالة السوية الصحيحة لاتصال الرجل بالمرأة ولا يستخدم إلا في نطاق محدود . هذا إلى أن جميع الشعوب التي تليحه الآن نظمها المدنية تنظر إلى الاتصال الذي يتم في نطاقه نظرة سخط وتعتبره من أكبر الجرائم من الباحيتين الدينية والخلقية .

Ibid (١)

Letourneau, op. cit. 263 (٢)

Ibid. 364 (٣)

Ibid. (٤)



وكذلك كان شأنه في كثير من الأمم القديمة التي كانت تبيحه . وإليك مثلاً العرب في الجاهلية . فإهم كانوا يحتقرون البغايا ومن يتصل بهن وينظرون إلى البغاء وتوابعه نظرتهم إلى أكبر جريمة . وكانت البغايا يتوارين عن العيون بمنجاة عن المدائن والقرى ومصارب خيام البادية ، وينصبن على بيوتهن رايات تكون آية على مهايتهن . وكان لا يذهب إيهن إلا سعة الناس وسوقتهم ، ويذهبون إيهن في الطلام يحرون أطراف مآرهم ورواهم لتطمس آثار أرجلهم على الرمال . ولذلك أطلق على البغايا اسم المظلمات ، كما كان يطلق عليهن اسم المهنات . وكان من جوامع كلمهم في المدح . « فلان لا يرعى لمظلة إزاره » . وفي ذلك تقول العوداء بنت سميع في وفاء .

أبكي لعبد الله إذ حشت قبيل الصبح فاره (١)

طيان طاوى الكشح لا يرعى لمظلة إزاره (٢)

وقد قيدته التقاليد العربية بقيود كثيرة . فمن ذلك أنه ما كان يباح في الغالب لعربية أن تتمهن البغاء ، بل كاد ذلك يكون مقصوداً على الإمام . وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول . « ولا تكرهوا فتانكم على البغاء » ، والمراد بالفتيات الإمام كما هو الشائع في استعمال هذه الكلمة عند العرب ، وكما يدل على ذلك سبب نزول الآية (٣) . ومن ذلك أنه كان يترتب عليه كثير من الالتزامات العائنية كما أشارت إلى ذلك عائشة إذ تقول في حديثها عن أنواع النكاح في الجاهلية : « كان يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع من جاءها ، ومن البغايا ، وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً . فمن أرادهن دخل عليهن . فإذا حملت إحداهن ووضع حملها جمعوا لها ودعوا القاه ( وهم المهرة في القيافة . والقيافة

(١) حشت بآء أى أوقدت . وهذا مثل أراد به أنه قتل قبيل الصباح ، فصرت لقتله مثلاً لإغاد النار ، والعرب تقول أوقدت نار الحرب إذا حاجت .

(٢) اطيان صفة مشبهة من الطوى وهو الخوع . والعرب ترى من السيادة ألا يشجع الرجل ، وطاوى الكشح أى صامر لسن يصحم احسن .

(٣) انظر آخر ١٠٢ وأول من ١٠٣ .

فإن كان منتشراً عند العرب يستطيع الراسخون فيه أن يعرفوا الأصل الذي انحدروا منه من مائة عن طريق الشكل الخارجى لتكوين أعضائه وحجمها ولون بشرته ... وما إلى ذلك (١) ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتايط به ( أى اتصل به ) ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك .

وحتى البغاء المقدس نفسه الذى كان مقبولا عند الشعوب التى أخذت به كان منظورا إليه على أنه استثناء من النظام الأصل المقرر فى صدد اتصال الرجل بالمرأة واستثناء غير مطلق بل مقيد بعدة قيود كما ظهر ذلك فيما سبق .

فلا يصح إذن أن ينظر إلى البغاء فى أية صورة من صورته على أنه مظهر من مظاهر الشيوعية الجنسية المطلقة . فالشعب لا يعد سائرا على نظام الشيوعية الجنسية المطلقة إلا إذا ألغى الرواح بجميع أشكاله وأصبح جميع نائه حقا مشاعا لجميع رجاله . وهذا لم يطرأ عليه فى أى شعب من الشعوب التى تليح البغاء ولا فى غير هذه الشعوب .

## أهم مراجع هذا الفصل

مذكورة فى التحقيقات

(١) والفاة أيضا الذين يعرفون آثار الأقدام . ولعلهم كانوا يمشون كدراك آثار الأقدام التى دهست على الأرض ليعرفوا أصحابها تمهيدا لإحقاق الولد بأحدهم . ولعل هذا كان من بين الأمور التى كانت تدعو من يمشون متاركة المومسات إلى أن يجرؤا أطرافهم ليلمسوا آثار أرجلهم على الأرض ، فلا يكونوا عريضا لأن يلتصق بهم من تحته به أبى .

## الفصل الثالث

### العزوبة التي يوجبها نظام اجتماعي مقرر

يوجد في كثير من المجتمعات عزوبة اصطلاحية يوجبها نظام اجتماعي مقرر . وهي على ثلاثة صروب : عزوبة مفروضة على كافة الناس في حالات خاصة ؛ وعزوبة مفروضة على المشتغلين بوظائف دينية ؛ وعزوبة فرضتها بعض النحل الدينية على جميع معتقبيها . وسنقف على كل نوع منها فقرة على حدة .

#### - ١ -

#### العزوبة المفروضة على كافة الناس في حالات خاصة

لهذا النوع من العزوبة عدة مظاهر في كثير من النظم والشرائع . ففي بعض البلاد الأوروبية يحرم القانون الزواج على كل فرد يتقاضى إعانة من صندوق الإعانات العامة أو الصلح الاجتماعي ؛ لأن فرداً هذا مبلغ عوزه لا يقوى على تكاليف الأسرة (١) . بل إن بعض هذه البلاد قد حرم الزواج تحريماً باتاً ولم يجر إجراء عقده في كل حالة لا ثبتت فيها قدرة الطرفين على احتمال الأعباء المادية التي تقتضيها حياة الزوجية (٢) .

والشريعة الإسلامية نفسها تحظر الزواج على كل رجل غير قادر على أعبائه ، لقوله عليه السلام : من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء (٣) . أي من قدر على مستلزمات الزواج فليتزوج ، ومن

(١) Westermarck, op. cit. 390.

(٢) Ibid. 390.

(٣) طلق الوحاء على من عروق الخصية من غير إحراج فيكون شعبها «الحصاء» لأنه يكسر الشهوة ، اهـ من المصاح . والمعنى من لم تكن له قدرة على أعناء الرواح فليصم ، فإن في الصيام إضعافاً للزوات ووقاية للمعة وصيانة للنفس من الوقوع في المحذور .

(٤م — غرائب النظم والتقاليد والعادات — ج ٢ )

لم تكن له مقدرة على ذلك لا يصح أن يقدم على الزواج ، ويستحب له الصيام فإن في الصيام إضعافاً للتزوات ووقاية للعفة وصيانة للنفس من الوقوع في المحرم (١) وقد أخذ كثير من العلماء والمصلحين يذيعون في الناس أن المصاب بمرض وراثي يوجب انتقاله إلى النسل يقضى عليه واجبه الإنساني ألا يتزوج ، لأنه بزواجه يعمى أكبر إساءة إلى وطنه وإلى نفسه . بل لقد أخذوا ينصحون لأولياء الأمور أن يحظروا الزواج على المصابين بهذا النوع من الأمراض . وقد عمل بهذه التوصايا بعض الأمم المتحضرة ، فأحدثت تصع قوانين أو تلجأ إلى وسائل أخرى لخطر الزواج على هذا النوع من المرضى أو لتضييق نطاقه أو لمنع التناسل فيه ، فقد أصدرت الحكومة الألمانية في عام ١٩٣٣ قانوناً بتعقيم غير الصالحين للإنتاج السليم لمرض جسمي أو عقلي . وعلى الرغم من محاربة الكنائس المسيحية ، وخاصة الكنيسة الكاثوليكية ، لهذه التدابير واعتبارها إياها مخالفة لشرائع الدين المسيحي ، فإن كثيراً من الأمم المسيحية أخذت قبل الحرب العالمية الأخيرة ترسم خطوات ألمانيا في هذا السبيل . ومن هذه إنجلترا نفسها . فقد ألغت حكومتها عام ١٩٣٣ لجنة خاصة لدراسة الوسائل اللازمة لمقاومة ضعف النسل وانحطاط مستوى الصحة وأشارت هذه اللجنة في تقريرها الذي قدمته إلى وزارة الصحة في يوليو عام ١٩٣٣ بتعقيم المحرمين شديدي الخطر ( ذاهبة في ذلك إلى أبعد مما ذهبت إليه الحكومة الألمانية ) وبمنع غير الصالحين للبقاء من الزواج (٢) . وفي معظم الشعوب المنحصرة يحظر الزواج على الرجل والمرأة قبل بلوغ سن معينة تمتد أحياناً إلى نحو العشرين للرجل وما يقرب من ذلك للمرأة . ويعتمد هذا الخطر على أن زواج الصغار الذين لم يبلغوا حد النصح الجسمي والعقلي من شأنه أن ينج ذرية ضعيفة ويؤدي إلى أضرار اجتماعية واقتصادية بليغة .

(١) ومع ذلك فإنه إذا تزوج غير القادر وهم زواجه صححاً في الإسلام ، وترتب عليه جميع آثار الزواج الصحيح وإن كان يجوز القضاء بطلاق الزوجة في بعض هذه الحالات ، ينظر في ذلك كتب الفقه الإسلامي .

(٢) انظر ذلك كتابنا في ( الورثة والبيئة ) صحتي ٧٨ ، ٧٩ .

وقد أخذ بهذا المبدأ القانون المصري الحديث لجعل الحد الأدنى للزواج الذي تقبل الجهات الرسمية تسجيله وتسمع الدعوى بشأنه وترتب عليه النتائج القانونية ثمانى عشرة سنة للرجل وست عشرة للمرأة .

وقد أخذ كثير من العلماء والمصلحين يدعون فى الناس أنه لا يصح للشيخوخ الذين أدركهم الضعف والوهن وفاتهم عهد الحيوة الجنسية والعقبة أن يتزوجوا لأنهم إن جاءوا بدرية فلن تكون إلا ذرية ضعيفة صاوية ، ولأنهم بذلك يحنون على سلالاتهم وعلى وطنهم ، وأخذوا يحثون المشرعين وأولياء الأمور ليسنوا من القوانين ما يحظر الزواج فى هذه المراحل من العمر .

وقد صدرت فى بعض الأمم فى العصر الحاضر قوانين تحظر الزواج على النساء اللاتى يتولين وظائف عامة لا تمكنهن من القيام بأعباء الأسرة ، أو يؤدى زواجهن إلى تقصيرهن فى شئونهن . وكان القانون المصرى إلى عهد قريب يحظر الزواج على من يتولين وظائف التدريس فى المراحل الأولى وما فى مستواها .

وتحظر الديانة المسيحية الزواج على المطلق والمطعمة حتى لو كان طلاقهما بسبب مشروع نقره كسببهما كما ورد فى إنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول : « من يتزوج مطقة يزنى (١) ، ولما ورد فى إنجيل مرقس على لسان المسيح كذلك إذ يقول : « من طلق امرأته ويتزوج بأخرى يزنى عليها ، وإذا طلقت المرأة من زوجها وتزوجت بأخر ارتكبت جريمة الزنا (٢) . وقد أراد الملك إدوار الثامن ملك إنجلترا وإمبراطور الهند السابق ، أن يتزوج امرأة مطلقة (مسرسمبسون) فوقفت الكنيسة فى وجهه وخير بين أن يمثل لقواعد الإنجيل ويحتفظ بالعرش أو ينزل على حكم قلبه ويتنازل عن الملك . فأثر التنازل عن العرش فى سبيل تحقيق بعينه . وحدث مثل ذلك أخيراً للأميرة مرجريت أخت ملكة إنجلترا الحالية . فقد أرادت أن تتزوج من ضابط أحب وأحبها (الكابتن ناوسند) لحيل بينها وبين رغبتها . لأن هذا الضابط قد طلق زوجة له من قبل ؛ وقاعدة

(١) إنجيل متى إصحاح ١٩ ، آية ٣٢ .

(٢) إنجيل مرقس إصحاح ١٠ ، آية ١١ ، ١٢ .

الكنيسة أن من يتزوج مطلقاً يزني ، مع أن طلاقه هذا كان قد تم وفق الأوضاع المدنية والكنسية نفسها ، لأن زوجته السابقة كان قد ثبت عليها الحياة الزوجية ، والمذهب البروتستانتي الذي يدين به الإنجليز يبيح الطلاق في هذه الحالة (١) . وفي بعض الشعوب والديانات كان يجب على المرأة بعد وفاة زوجها أن تظل عزباء طول حياتها أو مدة معينة بعد وفاته . — فعند السكان الأصليين في جمهورية بيرو وأمريكا الجنوبية كانت الأرملة يظلن عادة طول حياتهن بدون رواج . وكان العاؤون أنفسهن والعرف الخلق يحثان على ذلك . — وعند قدماء الصين كان بعد عملاً غير لائق أن تتزوج المرأة بعد وفاة زوجها ؛ وإذا ارتكبت ذلك امرأه من طبقة راقية كان عقابها أن تجلد ثمانين جلدة . وفي هذا تقول حكمهم المأثورة وكتبهم المقدسة . كما أن الورير المصغر لا يسمح لنفسه أن يخدم ملكين ، كذلك المرأة المحصنة : فإنه لا يصح لها أن تتزوج زوجاً ثانياً بعد وفاة زوجها الأول . ونجد هذه القاعدة لديهم من مسلمات عقائدهم المعلومة من دينهم بالضرورة ، ولذلك ينزلونها منزلة التقديس . — وعند قدماء الآريين كان يجب على المرأة أن تحرق نفسها أو تنتحر بطريقة ما عقب وفاة زوجها . وكان معنى ذلك لديهم أنها تقدم نفسها قرباناً له . ثم تطور هذا النظام فيما بعد وحميت قسوته ، فانتصر واجب المرأة على هذه الحالة على ألا تتزوج بعد وفاة زوجها ؛ وكان معنى ذلك لديهم أن تظل حاضرة له في حياته وبعد مماته . ولا يزال هذا النظام معمولاً به في معظم بلاد الهند إلى الوقت الحاضر . وفي بعض هذه البلاد بعداً كبيراً وإهانة للأرملة أن يقال أنها تفكر في الزواج . وإذا تزوجت أرملة لديهم فإنها ترتكب بذلك في نظرهم أكبر إثم خلق وتجب مقاطعتها مقاطعة تامة من جميع أفراد مجتمعها . — وعند قدماء اليونان والرومان كان يعتبر كذلك زواج الأرملة إهانة كبيرة موجبة لزواجها ولروحها . — ولا يزال الأمر كذلك إلى الوقت الحاضر عند حقايلية الجنوب . — وفي العصور المسيحية الأولى كان ينظر بعين الكراهية الشديدة لزواج الرجل الأرملة وزواج المرأة الأرملة ، بل كان بعد ذلك عند المحافظين من المسيحيين

(١) انظر من التفاصيل في موضوع الطلاق في المسيحية والإسلام في مكتباتنا ، حقوق



ضرباً من صروب الزنا والسفاح . — وفي بعض الشعوب والديانات كان يجب على زوجات الملوك والأمراء وأفراد الطبقة الراقية أن يطلن بدون زواج (١) . — وتقرر الشريعة الإسلامية أنه لا يجوز لزوجات الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتزوجن بعد وفاته ؛ وفي هذا يقول الله تعالى في كتابه الكريم : « وما كان لكم أن تؤدوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أسأ ، إن ذلكم عند الله عظيم » (٢)

— ٢ —

### العزوبة المفروضة على رجال الدين

وفي كثير من المجتمعات يحظر الزواج حطر تحريم أو كراهة على ذوي الوظائف الدينية وما يمت إليها بصلة أو يشبهها من الوظائف العامة ، كالقسيسين والربان ورجال الآكليروس والسحرة والمشرقيين على المدايح المقدسة أو على تقديم الأصحية والفرايين الالهة وأرواح الموتى .. وهلم جرا . وقد عثر علماء الإثنوجرافيا على مظاهر كثيرة من هذا النظام لدى كثير من الشعوب البدائية بعضها . فمعد قبائل اللنكت Thak. يعتقد أن الساحر الذي لا يبتعد عن النساء ستقتله الأرواح بعضها التي تقوم بحراسته . — وفي بعض عشائر الجوارايين Gwaraiين بارجواي ( بأمريكا الجنوبية ) يتحتم على رجال الدين العزوبة والابتعاد عن النساء طول حياتهم ؛ ومن يتزوج منهم أو يقرب امرأه يفقد وظيفته كما يفقد ثقة الناس به . — وعند السكان الأصيبين في جواتيالا يأخذ رجال الدين على أنفسهم العمود أن يتعدوا مدى حياتهم عن قربان النساء . — ولدى الإنشكانلانيين I heartlan يجب على كبير رجال الدين أن يعيش طول حياته في داخل معبده وألا يقرب النساء ؛ فإن انحرف عن هذا السبيل قطع إربا إربا وعلفت أعضاؤه ليكون عبرة لسواه من يحفه . — وعند قبائل الأرتك Aztequ.

(١) انظر في موضوع تحريم أزواج على أرملة في اشعوب الناس ذكره وفي غيرها :

Westermarck, op. cit. 434, 435.

(٢) سورة الأحزاب آية ٥٣ .

(وم السكان الأصليون للسكيبك) كان يجب على الكاهنات والمشرقات على شئون المعابد ألا يتزوجن ولا يقربن الرجال ؛ وحتى في أثناء أدائهن لوظائفهن الدينية كان يجب عليهن أن يظلمن بعيدات عن الرجال وأن يقضن من أبصارهن حتى لا تقع أعينهن على واحد منهم . فإن انحرفت إحداهن عن هذا المنهج كان عقابها الإعدام . وإذا لم يكشف الناس جرمها ولم تقر به وجب عليها فيما بينها وبين ربها أن تكفر عنه بالصوم وتعذيب الجسم حتى تتق بذلك ما يصبه الإله من عذاب في الدنيا نفسها على مفرقات هذا الإثم إذ ينبغي أن تفرح الجلود وتعمن الأجسام . — وفي اليوكاتان Yucatan كان يخطر على الكاهنات المشرقات على عمادة الشمس الزواج وقرمان الرجال في أثناء مدة معينة ، ثم يباح لهن بعد انقضاء هذه المدة ما يباح لغيرهن من النساء . أما اللاتي كن يندرن أنفسهن لخدمة المعابد وتعبد النار المقدسة فكان يجب عليهن أن يظلمن طول حياتهن عزبات بعيدات عن الرجال ، فإن رلت إحداهن أعدمتم رميا بالناس . — وعند عشائر الإنكا Incas في بيرو كان يجب على العداري اللاتي وهن أمهات للشمس والإشراف على معابدها أن يظلمن عزبات طول حياتهن وألا يقربن الدور ، بل تأن يحرم عليهن حتى مجرد الحديث مع الرجال . وكانت نسير لديهم على هذا المذهب ، ولكن في صورة اختيارية ويقصد التقرب للآلهة ، طائفة الأميرات والسيلات ، فيندرن الله أن يظلمن بعيدات عن الرجال طول حياتهن . وكان الناس يظرون إلى هذا الصنف الأخير من النساء نظرة إجلال وتقدير ، وبطلقوا عليهن اسم « أوكو » Oclo ، وهو اسم كانوا يطلقونه على من بلغ أرق منزلة في القداسة الدينية . وبمقدار هذا الاحترام كانت القسوة في عقاب من تنكح معها منهن . فكانت تحرق حينئذ حية أو يقذف بها في الماء لتموت غرقا أو يلقي بها إلى الأسد الجماعة . — وعند عشائر الجولش Guanches في جزائر كاريبا Caranis يحرم الزواج حرمة مؤبدة على طائفة من العتيات يطلق عليهن اسم الموجاد Magades أو الحارماجاد hariymagades وتمثل وظائفهن في الإشراف على شئون المعبد والشعائر الدينية تحت إشراف الخبر

الأكبر . وكان يحرم الزواج كذلك لدى هذه العشائر على طائفة أخرى من الفتيات كن يقمن بصب المياه فوق رؤوس الأطفال عقب ولادتهم ، وكان ذلك لإجراء دينيا هامالدى هذه الشعوب ؛ ولكن حظر الزواج على هذه الطائفة الأخيرة كان موقوتا بمدة اضطلاعهم بوطنهم . فكان لكل منهم إذا شاءت أن ترك وظيفتها ؛ وحيدئذ كان يحل لها ما يحل لغيرها من النساء . — وفي رأس بدرون في غينا السفلى Cap Padron en Basse Guinee كان يجب على من يخلع عليه لقب القسيس — الملك ، أن يعزل الناس ويتحد له في غيبة مجاورة منزلا يعشكف فيه طول حياته . فلا يسمح له بالخروج منه ولا يباح له أن يمس امرأة في داخله (١) .

وقد وجد هذا الطام كذلك لدى كثير من الشعوب المتحضرة من الجنس الآرى في العصور القديمة وخاصة الرومان واليونان والفرس والهنود . في أقدم عصور الرومان أنشأ الملك نوما بومبيليوس (٢) نظام الكاهنات المشرفات على شئون المعابد ، وكان يجب على كل واحدة منهن أن تظل عزباء في أثناء المدة التي تشرف فيها على شئون المذبح وتقديم الأضحية والقرايين للالهة وإقامة ما يتمل بذلك من شعائر الدين . فإن قاربت واحدة منهن رجلا في أثناء ذلك أدرجت في الأكفان ودفنت حية في الحدف ضيق بدون احتمال بجاراتها ولا صلاة على جثمانها ولا قيام على قبرها . وأما بعد انقضاء هذه المدة فكان يباح لكل واحدة منهن أن ترك وظيفتها ؛ وحيدئذ كان يباح لها ما يباح لسائر النساء ؛ غير أن معظمهن كن يؤثرن البقاء في خدمة معابدهن .

(١) انظر تفاصيل هذا العظمى والشعوب البدائية التي ذكرناها في هذا في كتاب :

Westermarck, op. cit. 391, 392.

(٢) هو الملك الثانى من ملوك روما في العصور السابقة للتاريخ وفق ما نحدثنا به

أساطير الرومان (٧١٤ — ٦٧١ ق م) .

وعند قدماء اليونان كان من المقرر في كثير من المدن أن تظل الكاهنات بدون زواج طول حياتهن أو على الأقل في أثناء قيامهن بوظائفهن . و يروى ترتوليان Tertullien (١) أنه في مدينة آجيوم Aegium اليونانية كان يشرف على معبد الإلهة جينون Junon (٢) ذاء عدد من يحرم عليها الزواج ، وأن الكاهنات اللاتي كن يشرفن على معبد الإلهة ، أبولو ، (٣) Appolon بدلفيا Delphes ، وكن ينفى الناس بما سيحدث لهم بما يتلقين من وحى من الإلهة ، كان يحرم عليهن الزواج حرمة مؤكدة ، وأن المشرفات على معبد الإلهة سيريس Ceres (٤) واللاتي كان يطلق عليهن اسم ، الأراميل ، على الرغم من أنهن كن متزوجات ، كان لا يحل لهن في أثناء قيامهن بوظائفهن الانصال بأزواجهن ولا بأحد من جسس الذكور على الإطلاق ، حتى لقد كان يحظر عليهن أن يقبلن أبناءهن . وفي بعض المدن السومانية كان يحصى الفسوس الذين كانوا يشرفون على شئون بعض المعابد حتى لا يتاح لهم الزواج ولا قربان النساء . ومن هؤلاء كان يتألف السدة المشرفون على معابد الإلهة أرنيمنس (٥) في إفيزيا Artemis à Ephèse

(١) من كبار فقهاء الكنيسة المسيحية ١٦٥ — ٢٤٠ م تقرها .

(٢) هذا هو اسمها اللاتسي ، أما عند اليونان فكانت تسمى « هيرا » Héra ، وهي روجه جوبيتر أوريوس ، كبر آله اليونان ، وهي إلهة الروح ( انظر من ٤٩ من الجزء الأول من هذا الكتاب )

(٣) هو إله حورس ، وهو من أشهر آله الإغريق . وقد أقاموا له في مختلف مدنهم ، وخاصة في دلفيا ، معابد كثيرة كان يحج إليها اليونان وغيرهم لإذوا مناسكهم وشهدوا منافع لهم وسألوا الكاهنات عما يصبره لهم العيب . وهو من أكثر الآلهة وظائف : فهو إله التنبؤات والاحار ، العيب والطب والشعر والفنون والموسيقى والأعمال والحجارة ونقرصه وحامي البحار والصيادين والفرسان ( انظر في ذلك من ٤٥ من الجزء الأول من هذا الكتاب ) .  
(٤) أو « ديميتر » Demeter وهي إلهة الحبوب والزرعة والأرض عند قدماء اليونان ، ( انظر من ٤٩ من الجزء الأول من هذا الكتاب ) .

(٥) أو « ديانا » Diana وهي بنت جوبيتر ، إلهة الصيد ، وقد طلعت من أبيها أن تطل عزمه ، وأخذت من رعتها ، وجعلها ملكة على الغابات ( انظر من ٤٦ من الجزء الأول من هذا الكتاب ) .

ومعابد الإلهة سيل<sup>(١)</sup> في فريجيا *Cybèle de Phrygie*

وعند قدماء الفرس كان يجب على الكاهنات المشرقات على معابد الشمس ألا يقربن الرجال .

وعلى الرغم مما كان للزواج في عوس الهندوكيين البرهميين من منزلة كبيرة فإنهم كانوا يرون العزوبة واجبة على كل من يصل إلى منزلة القديسين من رجال الدين . وكان يجب لديهم كذلك على البرهماكارين *Brahmacarin* ، وهو التلميذ في أدوار دراسته الدينية قبل أن يصل إلى مرتبة القسيس ، أن يظل أعزب وألا يقرب النساء حتى يصرع من دراسته هذه . وقد اتسع نطاق هذا النظام في الديانتين الهندوكيتين الأخرين وهي الجينية والبوذية *Jainisme, Bouddhisme* ففي الديانة الجينية كان يحظر على الراهب خطراً باتناً أن يتزوج وأن يتمتع بأية متعة جنسية مع أي كائن ، إلاها كان هذا الكائن أم إنساناً أم حيواناً ، ( حسب النص الوارد في كتبهم المقدسة ) . وكان يجب عليه أن يقاوم شهواته وألا يحوص في أي حديث يتعلق بالنساء ، كما كان يحرم عليه مجرد التفكير أو التأمل في تكوين المرأة الجسمي . وترى الديانة البوذية أن اللذائذ الجنسية تتعارض كل التعارض مع القدسية والحكمة . ومن أجل ذلك ، يسمى لكل عاقل حكيم ( حسب النص الوارد في كتبهم المقدسة ) أن يعتمد على لرواح ويتحاشى لوقوع فيه . كما يتحاشى أن يلقى نفسه إلى التهلكة في موائد الممحم المتوهج ، ولذلك تروى أساطيرهم أن أم ، بوذا ، التي يعتبرونها أظهر امرأة من بنات حواء ، لم تنجب ولداً

(١) أو « ريا » *Rhea* وهي روضة إلهة ساتورن *Saturne* أو كرونوس *Cronos* ( رحن ) وأم حوسيتير ، ويرجم إليها لفضل في تخليص ابنها حوسيتير من أيدي أبيه ، بعد أن وضعت ابنها في حريمه كريت عادت إلى روحها بمجر مدثر بلافاة ظه ساتورن المولود الجديد فأنقذه ، لأنه كان قد أخذ على عهده أن يأكل كل مولود ذكر يولد له حتى يتقوى العصر الذي تبدأ له به لمرافون من أن أحد أسائه سيدنله ويحلعه على الأرض ( انظر ص ٣٩ من الجزء الأول من هذا الكتاب ) .

غيره ، وأنها حملت به بدون أن يمسه بشر . وتفرض العزوبة فرضاً في الديانة البوذية على كل كاهن ، بل يحرم عليه كل اتصال جنسى ، حتى لو كان مع حيوان . حسب النص الوارد في أسفارهم الدينية . وكل كاهن ينحرف قيد أنملة عن واجباته في هذا الصدد بمجرد من جميع وظائفه الدينية ويطرده من مجمع الإكليروس . — وفي التبت يحور الزواج لطبقة من رجال الدين ، وهي الطبقة التي يطلق على أفرادها اسم ، اللاما ، Lamas وإلى كان غير المتزوجين منهم أكبر منزلة وأحق بالإجلال من المتزوجين . وأما الكهنة الذين يطلق عليهم اسم النونيين Nonnes فيحرم عليهم الزواج وكل اتصال جنسى (١) .

وقد انتقل هذا النظام إلى الصين مع ما انتقل إليها من الديانات والمعتقدات الهندية والآرية . فالقانون الصيني يوجب العزوبة على كل فليس بوذى أو ناويسي Taoiste (٢) . وبعد التاريسيون في قائمة الخالدين من أفراد نحلهم بعض نساء امتزن عن غيرهن طلباً لفة في حياة الزهد والابتعاد عن جميع لذائد الجنس (٣) .

وساد هذا النظام كذلك لدى كثير من الشعوب المتحضرة من الجنس السامى في المصور القديمة . ففي كثير من معابد ، عشتروت Astarté, Ashtaroth ( وهي إلهة السماء عند كثير من الشعوب السامية القديمة . وكان لها معابد عند جميعها وخاصة عند العيبقيين والعميين والاراميين ) كان يتألف الكهنة من جماعة من الحصيان

(١) انظر تفاصيل هذا النظام في الشعوب الآرية انى ذكره . وغيرها من :

Westermarck; op. cit. 322—324.

(٢) لناويسي Taoisme ديانة شعبية منتشرة في الصين . وهي أمشاح من عبادة الأرواح وعبادة مظاهر الطبيعة ومن بين المراتب والمعتقدات البحرية ومن مبادئه بلسوف الصين الشهير لاوتسى Lao - Tsem ( شأ في القرن السادس ق م . وقد حلف أسفاراً كثيرة من أشهرها كتابه في « الطريق إلى القصة » ) .

(٣) انظر تفاصيل هذا النظام في الصين القديمة في :

Westermarck, op. cit. 394.



كما كان الشأن في معابد الإلهتين أرتميس وسيبيل عند اليونان (١) .

ومند العصور المسيحية الأولى كان يحظر على القسيس أن يتزوج امرأة توفى عنها زوجها ، كما كان يحظر عليه أن يتزوج مرة ثانية بعد وفاة زوجته . وفي أوائل القرن الرابع الميلادي أصدر مجمع « أليريا » ( Elvira ) في أسبانيا قراراً بتحريم الزواج والانتعاد عن كل شهوات الجنس على كبار رجال الكنيسة . وفي أواخر القرن الحادي عشر أصدر البابا جريجوار السابع أمراً بوجوب العزوبة وتحريم الزواج على جميع القسس والرهبان . كبارهم وصغارهم ومع أن هذا القرار افقد لاقى في مبدأ الأمر معارضة شديدة في كثير من المناطق المسيحية ، فإنه لم يكند ينتهى القرن الثالث عشر الميلادي حتى كان نصاماً مقررأ في الكنيسة الكاثوليكية ومطبقاً على جميع القسس من الرجال والراهبات من النساء .

### — ٣ —

#### أسباب العزوبة المفروضة على رجال الدين

هذا ويرجع التبتل الممروض على رجال الدين وعلى الراهبات في المسيحية وغيرها من الأديان إلى عدة أصول وتقوم أسبابه على اعتبارات شتى :  
ففي كثير من الشعوب كان ينظر إلى السكاهة على أنها زوجة للإله الذي وفقت نفسها على معبده ؛ فكان يحرم عنها لذلك أن تكون في لوقت نفسه زوجة لإنسان . وقد ساد هذا الاعتقاد لدى كثير من الشعوب البدائية والمتحضرة .

فعند عشائر الإنكا Inca ( وهم السكان الأصليون لجمهورية بيرو في أمريكا الجنوبية ) كان يعتقد أن كل عدوا تندر نفسها للشمس ( وكذا الشمس )

(١) انظر صحتي ١٢٠ ، ١٢١ .

من كبار آلهتهم ومن جنس الذكور في نظرم) نصح زوجة لهذا الكوكب .  
ومن أجل ذلك كان الاتصال بواحدة من هؤلاء يعد في نظرم أكبر جريمة  
يمكن أن يرتكبها إنسان في جنب الله . — وفي ساحل الذهب كان يجب  
على الكاهنات أن يطلن بدون زواج ؛ لأن كل واحدة منهن كانت زوجة  
للإله الذي تقوم بخدمته معه ؛ فما كان يجوز لها مع ذلك أن تجمع بينه وبين  
زوج آخر (١) .

وفي بعض معابد الإله چرهيتير (أوزيرس) — وهو كبير آلهة الإغريق  
والرومان) في بلاد اليونان ، كان ينحتم على عذراء المعبد أن تبيت في ساحة .  
وكان يعتقد أن الإله قد اصطفاها على نساء العالمين واختارها لمتعته وأنه  
ينزل إليها من عبياء سمائه متمثلاً لها بشراً سوياً ليقضى معها إربته ؛ ولذلك كان  
يحرم عليها أن تزوج أو تتصل اتصالاً جنسياً بأي فرد من البشر . — ويرى  
المؤرخ اليوناني هيرودوت أن هذا الوضع يشبه ما كان يجري عليه العمل في مدينة  
طيبه في عصورها الممرعونية القديمة حيث كان يجب على فتاة المعبد أن تبيت  
فيه كما كان يحظر عليها خطراً بأنما أن تتصل بالرجال . وكان قدماء المصريين  
يعتقدون أن فرعون ابن الله بالمعنى الحقيقي لا المجازي ، أي أنه قد نشأ من اتصال  
الإله بأمه . ولذلك تطلق النصوص المصرية القديمة على الملكة إسمه الزوجة  
المعدسة ، أو الزوجة الإلهية ( *épouse divine* — نيترهنت *neter . hent* )  
لأنها متبهاة لأن تعلق من الإله وتأتي منه فرعون لمصر يخلف فرعوها الحالي .  
وكان السائد في عقائد المصريين ، على ما يروى المؤرخ هيرودوت ، أن  
المرأة يمكن أن تعلق بمجرد اتصال جسمها بروح القدس (٢) .

(١) انظر تفاصيل هذا الموضوع في الشعوب لدثيه سي ذكرها وغيرها في :

Westermarck, op. cit. 397.

(٢) انظر تفاصيل هذا الموضوع في الشعوب المتحضرة أدعية التي ذكرها وغيرها في :

Westermarck, op. cit. 397, 398.

وقد انتشر في العصور المسيحية الأولى أفكار كثيرة من هذا القبيل .  
 فالقديس سيبريان St syrien (١) يتحدث عن نساء تدرن أنفسهن للمسيح  
 ، فأصبح وحده مولاهن وروجهن ، وأصبحن يرتبطن معه بزواج روحي .  
 وقد عرفت عن منع الجسم مع الأباقي لآهن قد وهب للمسيح جسومهن  
 وأرواحهن ، (٢) . — وقد ناز هذا القديس ثورة عنيفة على ما كان يحدث  
 أحيانا من اتصال بعض القسوس ببعض الراهبات ومما كنتمهن لمن باسم الاتصال  
 الروحي والمساكنة الزوجية . وفي ذلك يقول . « إذا قدم الزوج فوجد امرأته  
 مع رجل آخر في فراشه ، فإنه يعصب ويثور . بل لقد ذهب به الغيرة إلى  
 استخدام الحسام . فكيف يكون الحال إذا كان هذا الزوج هو المسيح نفسه ١٩  
 كيف يكون الحال إذا باعت المسيح عفرا قد ندرت نفسها له تمام مع أحد الرجال ٢٠  
 وأي عذاب ينزل به من يتهتك حرمة إلى هذا الحد إلا من يقترف جرما كهذا لا يرتكب  
 جرما أرنا معديا على فراش زوج من البشر . بل يرتكبها منتكها فراش المسيح  
 نفسه (٣) . — وفي أحد الأناجيل غير المعتمدة عند المسيحيين ، وهو الإنجيل  
 المشهور لديهم باسم ، إنجيل متى غير المعتمد L'Evangile de pseudo Mathieu  
 أن مريم كانت من العذارى الثلاث ندرن أنفسهن للآلاء (٤) ، ولذلك لم تزوج  
 ولم يمسهما بشر (٥) . ويتفق هذا من بعض نواحيه مع ما ورد في القرآن الكريم

(١) من آباء السكينة اللاتينية ، وقد استشهد سنة ٢٥٨ م .

(٢) Westermarck, op. cit, 398.

Ibid (٣)

Ibid. (٤)

(٥) في إنجيل متى المعتمد عند المسيحيين أن مريم كانت زوجة (أو حطية كما عرّفها  
 في آية أخرى) ليوسف النجار ، وأنها حملت بالمسيح من قبل أن يقربها يوسف ، فعالج يوسف  
 الشك في أمرها ، وأراد أن يطارقها بدون نصيحة . فبث الله إليه ملكا أمره بأن يترك  
 عليه روحه ، وأتياه أنها قد حملت من روح القدس وأنها ستلد علما زكيا ، وأن هذا العلم  
 سيخلص شعبه من خطايه ، وسلب إليه أن يسميه عيسى (إنجيل متى ، الإصحاح الأول ،  
 آيات ١٩ — ٢١) .

في هذا الصدد إذ يقول : « إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا ، فتقبل مني إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأثى ، وإني سميتها مريم ، وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأيدها نباتاً حنأه (١) .

وفي كثير من الديانات يعتقد أن الاتصال الجنسي نفسه ينجس المرأة والرجل كليهما . فعند قدماء البابليين والعبريين والعرب وغيرهم من الشعوب يعتبر قربان الرجل للمرأة منجسا لهما معا ، فلا يطهران إلا بالفصل . وفي كثير من الديانات يحرم على الجنب أداء كثير من الأعمال الدينية ودخول كثير من الأماكن المقدسة . بل لقد بصل النخرج في هذا الصدد إلى أبعد من ذلك ، فيعتبر مجرد لمس الرجل للمرأة أو مجرد حديثه معها منجسا لكليهما ومحتاجا إلى التطهير . فقد روى المؤرخ اليوناني هيرودوت أنه كان من المحرم عند قدماء المصريين ودماء اليونان على السواء أن يتحدث الرجال مع النساء في المعابد والأماكن المقدسة ، بل لقد كان حديث الرجل مع المرأة خارج المعابد يعتبر منجسا لكليهما ، فلا يجوز لأحدهما دخول المعبد إلا بعد أن يغتسل بالماء . ويتطهر من هذا الحديث . — وقد وردت هذه التعليمات في كتاب « الموتى » نفسه ، وهو من أهم الكتب المقدسة عند المصريين (٢) . — وعند اليهود لا يجوز للجنب أن يدخل المعبد إلا بعد أن يتطهر (٣) . — والإسلام نفسه يعتبر قربان الرجل للمرأة منجسا للحديث الأكبر وموجباً للفصل على كليهما ، فلا يجوز لأحدهما الصلاة ولا قراءة القرآن ولا دخول المسجد إلا بعد أن يتطهر . بل إن بعض المذاهب الإسلامية

(١) سورة آل عمران آتى ٣٧، ٣٦ .

Westermarck. op. cit. 400. (٢)

Ibid. (٣)

ليرى أن مجرد لمس الرجل للمرأة ناقصا للوضوء في جميع الأحوال أو في بعضها (١). ويحرم الإسلام كل اتصال جنسى في أثناء أداء فريضة الحج وفي أثناء الصيام وفي أثناء الاعتكاف في المساجد. وفي الحج يقول الله تعالى في كتابه الكريم: «الحج أشهر معلومات؛ فمن فرس فيهن الحج فلا رفث (٢) ولا فسوق ولا جدال في الحج» (٣). وفي الصوم والاعتكاف يقول الله تعالى: «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم. هن لباس لكم وأنتم لباس لهن، علم الله أنكم كنتم تخافون أنفسكم فتاب عليكم وعما عنكم، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أنموا الصيام إلى الليل، ولا تبashروهن وأنتم عاكفون في المساجد؛ تلك حدود الله فلا تقربوها؛ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون» (٤). — والتعاليم المسيحية توجب على من يريد الاشتراك في بعض الحفلات المقدسة وفي أعياد الكنيسة وبعض الأعمال الدينية أن يهيئ نفسه لها بالامتناع عن كل اتصال جنسى قبل حلول موعدها بيوم أو أكثر فلا يجوز مثلا لأحد الزوجين أن يشترك في أى عيد من الأعياد الكنسية إذا كان في الليلة السابقة لهذا العيد قد اتصل بزوجته (٥). — وقد نظرت هذه الأفكار في بعض الأمم وبعض الديانات، فأصبح من المقرر أن عملا هذا شأنه في إحداث النجاسة لا يصح أن يأتيه رجال الدين. ومن ثم حرم عليهم الزواج ووجبت عليهم العزوبة ومجانبة كل اتصال جنسى.

(١) يشترط الإمام مالك أن يقصد اللامس اللمسة أو أن يجدها عند اللبس. وأما أبو حنيفة فلا يهتم اللبس فاقصا فاقصوا ولو صاحبه قصد اللمسة أو صاحبه اللمسة معها.

(٢) من معاني «الرفث» قربان النساء، وهو المقصود في الآية.

(٣) سورة البقرة آية ١٩٧.

(٤) سورة البقرة آية ١٨٧.

(٥) Westermarck, op. cit. 401 (٥).

وفصلا عن هذا كله ، فإنه من المقرر أن شئون الدين من أهمي الشئون  
الروحية وأعظمها قيمة وأرقاها منزلة ، وأنهم من أبعد الأمور عن مظاهر المادة وشئون  
الجسم . ومن ثم جاءت الفكرة بأنه لا يجوز أن يتصدى للقوامة على هذه الشئون  
إلا من تجرد عن مظاهر المادة ، وبعد عن لذائذ الجسم ، وعزف عن زينة الحياة ،  
وصفت نفسه حتى أصبح روحا خالصة . ولما كانت الشئون الجنسية من أشد  
الأمور إمعانا في المادة ولذة الجسم ، لذلك كانت على رأس الأمور التي تحظر  
على القوامين على شئون الدين في كثير من الديانات .

وقد ارتبطت شئون الدين والتصوف في أذهان كثير من الناس بالتقشف  
وتعذيب الجسم وحرمانه من مطالبه . ومن ثم نشأ الحث على الصيام والرهق  
في شئون الدنيا والرهابية والاعتكاف في المعابد والمكوف على الصلاة  
والعبادة والتدب إلى التهجذ وقيام الليل ، كما نشأ تعمد تعذيب الجسم في بعض فرق  
الصوفية في الإسلام وغيره . وعنى عن البيان أن الامتناع عن الزواج مظهر عام  
من مظاهر هذا الحرمان .

ويضاف إلى هذا كله أن الزواج وما يصحبه على كاهل المتزوج من أعباء  
وما يقتضيه من كدح في الحياة لسد نفقات الأسرة وتوفير ما تحتاج إليه في حياتها  
المادية والمعنوية .. كل ذلك من شأنه أن يستأثر بقسط كبير من مجهود الإنسان  
ونشاطه وتفكيره . وأمر هذا شأنه يعتقد في كثير من الشعوب أنه لا يوائم  
رجال الدين الذين ينبغي أن يستأثر التأمل والعبادة والإرشاد والتعليم بجميع  
ما يستطيعون بدله من جهد ونشاط وتفكير .



العزوبة التي تفرضها بعض النحل الدينية

على جميع معتقبيها

لا نكاد نمر على أمثله صريحة لهذا النوع من النحل إلا في الديانتين اليهودية والمسيحية .

في القرن الثامن قبل الميلاد ظهر عند اليهود اتجاهات من هذا القبيل يحمل لواءها جماعة الحسدريين أو الإيسينيين أو الآريين Esseniens . فقد كان من أهم مبادئ هذه الفرقة ، حسب ما يحدثنا به المؤرخ الشهير يوسف Josephus ، الرغبة عن جميع متاع الجسم ، والنظر إليها على أنها ضرور ، واعتبار التبتل والبعد عن النساء من أهمات العصائل ، ومن ثم حرّموا على أنفسهم الزواج ، (١) .

(١) القسم من إسرائيل في العصور الأخيرة السابعة للميلاد إلى ثلاث فرق : فرقة الفروشين ( فروشيم Pharisae ) ؛ وفرقة السادوقيين ( سادوقيين Sadducéens ) ؛ وفرقة الحسدريين ( حسدريين Esseniens ) . وهمي حديم المعتقدون ، ولقاء والم علامة الجمع في العربية ) . وقد امتازت هذه الفرقة الأخيرة عن سائر فرق اليهود في الشئون الاقتصادية بأنماط شيعوية عرصا لها بالتوصل إلى كتمان عن هذه الملكية في الماء ، ( انظر صهيوني ٧٠ - ٧١ من المصحة ثمانية من هذا الكتاب ) . وامتازت عنها في شئون الدينية بالإكثار من الصل والوصوة وتعرضها ، قدم الأصحة ، وإقراي والدعوة إلى الرهدو انقش وعارية البدخ والتز والحياة الباعمة وقد صفت مبادئها هذه على أفرادها الذين اعتبروا النخبة الإسرائيلية وعاشوا جماعات حول شواطئ البحر الميت . وابتعت مبادئهم في القنف والرهد أن يحرموا على أنفسهم استخدام الذهب والفضة وإتباعهما والتعامل بهما — هذا ، وقد وصلت إليها أخبار هذه الفرقة عن طريق ما كتبه هيلون هيلسون P. Hilon و يوسف المؤرخ Josephus وكلاهما من رجال القرن الأول للميلاد . ( انظر كذلك المرجع التي أحيانا عليها في صدد هذه الفرقة في كتابنا « قصة الملكية في العالم » من ٧٠ من المصحة ثمانية وتطابق المدون في هذه المصحة ) .

(م — ٩ غرائب النظم والتقاليد والمادات — ج ٢)

ومع أن هذه المبادئ الحسنية لم يكن لها أثر كبير في الديانة اليهودية نفسها ولم تطبق إلا في نطاق جماعة الحسنيين وحدهم وفي مواطن منعزلة عن الناس ، فإنها قد تركت آثاراً ذات بال في الديانة المسيحية التي جاءت بعد ذلك . فقد ساد في المسيحية الاعتقاد بأن العزوبة أمثل من الزواج وأن الحصور (١) أدنى إلى الله من يقرب النساء . وفي هذا يقول بولس الرسول في رسالته إلى أهل قورنثة :  
 « إن من يزوج أمته يأت عملاً طيباً ، ولكن من لا يزوجها يأت ما هو خير (٢) »  
 وإنه من الخير للرجل أن يظل أعزب إلا إن حاف الوقوع في الخطيئة (٣) .  
 وإنني لأنصح الأباي (٤) من الرجال والنساء أن يقتدوا بي فيطوبوا على ما هم عليه ؛ فإن لم يقو أحدهم على العفة ، فلا مندوحة له حيثنقذ عن الزواج : فلأن يزوج خير من أن يكون وقوداً لنار جهنم (٥) » .

وسمى ترتوليان Tertulien (٦) على هذه الفقرة الأخيرة من رسالة بولس الرسول ، فيقول : « إن الأفضل من حالين لا يلزم أن يكون خيراً في ذاته . فلأن ينفذ الإنسان عيناً واحدة أفضل من أن ينفذ كلتا عينيهِ . ولكن فقد عين واحدة ، ليس من الخير في شيء . فكذلك لزواج : فهو لمن لم يقو على العفة أفضل من أن يحرق بمار جهنم . ولكن الخير أن يتقي الإنسان الأمرين معاً ، فلا يتزوج ولا يمرض نفسه لعداوت النار . وإن قصارى ما يحفظه الزواج

(١) الحصور من لا يأتي النساء وهو قادر على ذلك والمنوع منهن أو من لا يشتهيهن ولا يربيهن . . . من إماموس الحبيب . والملحق الأول وحده تستخدم هذا اللفظ عشاً هذا .

(٢) الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة ، إسحاق ٧ ، آية ٣٨ .

(٣) رسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة ، إسحاق ٧ ، آية ١ ، ٢ .

(٤) الأيم العرب وحلا كان أو امرأة . . . والجميع فهما أباي . إدمصاح .

(٥) رسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة إسحاق ٧ آية ٨ ، ٩ .

(٦) من كبار رجال الكنيسة لسيحية ( ١٦٠ - ٢٤٠ م ) .

أنه يعصم الهرم من الخطيئة ، على حين أن التبتل يروض المرء على أعمال  
 القديسين ، ويذل له السبيل إلى مرة الإشراف ، ويتيح له أن يأتي بالمعجزات .  
 جسم المسيح نفسه قد جاء من بتول عذراء . والقديس يوحنا المعمدان  
 Jean Baptiste ( يحيى بن زكريا ) والرسول بولس وجميع إخوانه الخواريين  
 الذين سجلت أسماؤهم في سهر الخلود آثروا التقتل وحثوا الناس عليه . وقد  
 استطاعت مريم البتول أخت موسى (١) أن تعبر البحر هي وجميع من كن يسن  
 حلقها من النساء فالتحق هن فيه طريق بئس وانتهن إلى الساحل الآخر سالمات .  
 والقديسة البتول ثيكله Thecle قد ألقى بها الكفار إلى الأسد الجائعة فوجت  
 الأسد أمامها ورفقت تحت قدمها بدون أن تمسها بسوء (٢) ... وقد فتح السيد  
 المسيح للخصيان أبواب السماء لأن حالهم قد ماعدت يسهم وبين قرآن النساء ..  
 ولو أن آدم لم يعص ربه لعاش طاهراً حصوراً ولتكاثر النوع الإنساني بطرق  
 أخرى غير هذه الطرق البيمية ولعمرت الجنة بمصلحة من الطاهرين الخالدين (٣) ،

(١) هي التي ورد ذكرها في امرآن في قوله تعالى : « ولما أتته نساءه مصرت به  
 عن حب وعم لا يشعرون » . وحرماً على المراجع من قبل ، فقاتل أدلكم على أهل بيت  
 يكفونكم أسكنهم وعمه «صهون» سورة نوح آتي ١١ ، ١٢ .

(٢) تذكر بعض النسخة أن شهيدة ثيكله Thecle كانت من السامات الأويا  
 إلى اعتناق المسيحية في القرن الأول ميلادي على يد بولس الرسول ، وأن الله قد سماه معجزة  
 منه من كثير من أنواع الطاب الذي امتنعها به الوثنيون لشوها عن عبيتها . ويحتفل  
 المسيحيون بذكرها في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر

(٣) Tertullian, De Monogamia 3 cite par Westermarck, op. cit. 395, 396  
 ومسله حرموا في النسخة ويوحنا دمشق Gregore de Nysse, Jean de Damas  
 وحامه في ذلك بوماس الإكوي St Thomas d'Aquin الذي يرى أنه مند به الحبة  
 قد جعل الله بقاء النوع ونشأه متوقف على لاصان الخصى . واسكن هذا لأصل —  
 في امر بوماس الإكوي — لم يكن في هذه الحبة مضمناً على أقدمة الحدة التي مؤخت  
 به بعد أن هبط آدم من الجنة . Westermarck, p. cit 396 .

وينظر كثير من فقهاء الكنيسة المسيحية إلى هذه الحقائق على أنها من الأمور  
أساسية في الدين ، الضرورية . أى التي لا يجوز إنكارها ولا الشك فيها ، حتى  
أن مجمع مدبولانس Médicolanense المسيحي قد حكم في أواخر القرن الرابع  
الميلادى على الراهب جوفيليان Joven en بالطرده من الكنيسة لأنه عارض  
المبدأ المسيحي الذى يقرر أن التنقل خير من الزواج (١) . وينظر هؤلاء الفقهاء  
كذلك إلى الزواج على أنه مجرد ضرورة لبقاء النوع الإنسانى ولصيانة الفرد  
من العاشية . ومن ثم لا ينبغي فى نظرهم للمسيحي المتزوج أن يطبق لنفسه  
العنان فى إشباع شهواته ، بل ينبغي أن يعيد من ذلك بقصد واعتدال وفى  
الحدود التى تحقق التدريب والسلوك فىكون شأنه شأن الراعى الذى إذا بدر البذرة  
انتظر الحصاد بدون أن يلقى فى الأرض بذراً أخرى (٢) .

وقد ذهبت فرقة المارسيديين Marcionites (وهى فرقة مسيحية اعتنقت  
مذهب مرسيون Marcion) (٣) إلى ما هو أبعد من ذلك ، فحرمت الزواج تحريماً

westermarck, op. cit. 396. (١)

Ibid. (٢)

(٣) ولد مارسيون هذا بلدة سينوب Sinop (مساء على البحر الأسود فى تركيا) فى  
أوائل القرن الثانى الميلادى . وكان أبوه مسيحيًا ، وشأ نفسه كذلك . ولكن حكم عليه  
بالطرده من الكنيسة لمذهبه المخوف عن أصول المسيحية . ويعوم مذهبه على اعتقاد أن  
النام ليعمل من مع الإله العادل Dieu Juste أو الإله ديمبورج Démurge وهذا  
الإله هو الذى المجد من بنى إسرائيل شعاً مختاراً وأرسل عليهم النوراة . واستكن سلطان  
هذا الإله قد انتهى عند ما ظهر الإله المسمى Dieu Bon متعللاً فى المسيح وحسن الإنسانية  
من خطاياها ؟ فحدثت كل أعمال الإله السابق . — ومن ثم يقوم هذا المذهب على  
أطراح العهد القديم (كتب اليهود القديمة) فى حده وعاصيته . أما العهد الجديد (كتب  
المسيحيين القديمة) فإن هذا المذهب لا يعرف منه إلا سقريتين : أحدهما يحل بوقا ، والآخر  
رسائل بولس الرسول . ولم يعرف سقريتين ستمهما إلا بعد أن أدخل عليهما تعديلات  
كبيرة — وعلى رغم من الحرب الشواء التى شنتها الكنيسة وشما المحاصرون من كتاب  
المسيحيين على هذا المذهب ، فإنه قد انتشر وتبعه خلق كثير فى إيطاليا وأفريقيا ومصر .  
وظل كذلك حتى منتصف القرن الثالث ثم أخذ يضمحل بعد ذلك حتى انقرض انقراضاً تاماً  
فى القرن الخامس الميلادى .

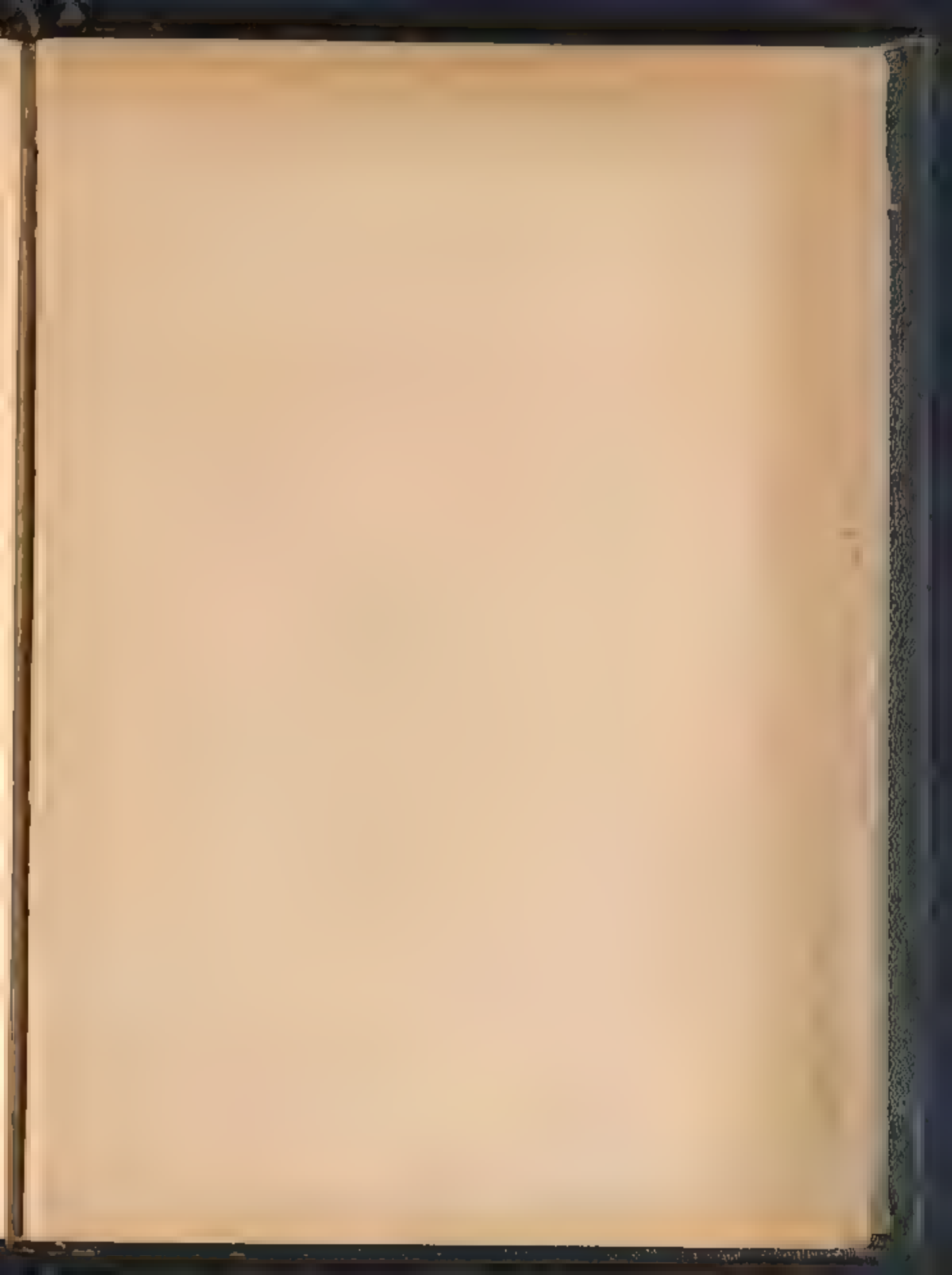
بأننا على جميع أفراد نحلتها ، كما فعلت هرفة المحسدين من اليهود . وأوجبت  
على كل متزوج يرغب في اعتناق مذهبها من الذكور والإناث أن يفترق عن  
زوجه ؛ وبدون ذلك لا يمكن قبوله ولا بعميده .

ومع أن العرو المسيحية الباقية إلى عصرنا الحاضر لم تأخذ بهذا المذهب ،  
فإن نظرة المسيحية إلى التبتل على أنه الحالة المثلى وإلى الزواج على أنه مجرد  
ضرورة ، قد أدت بالتدريج إلى نظام العزوبة المفروض على القسيسين والرهبان  
في المذهب الكاثوليكي والذي تحدثنا عنه في الفقرة الثانية من هذا الفصل .

---

## أهم مراجع الفصل

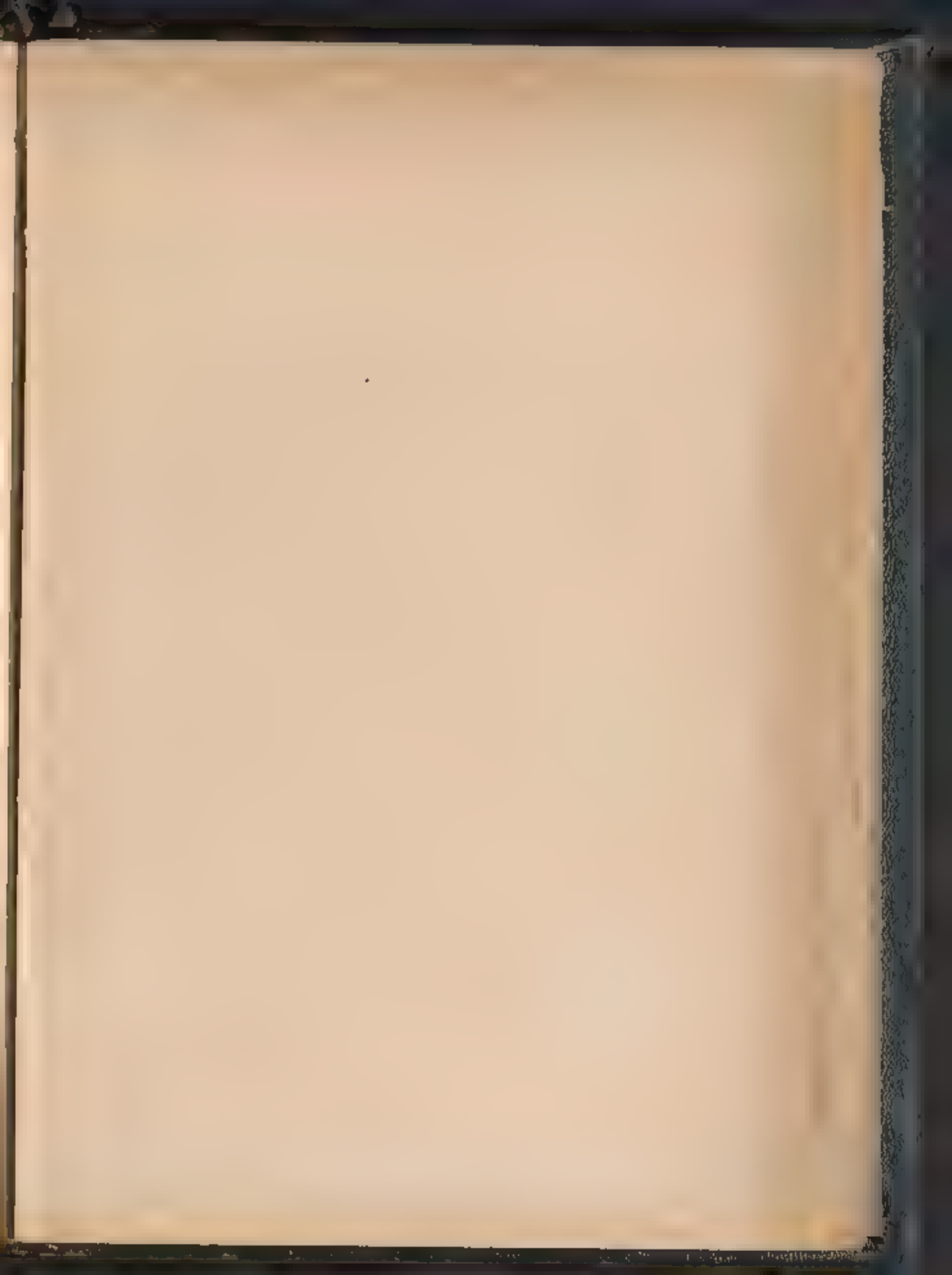
مذكورة في التمبيقات





خاتمة  
في غرائب النزعات الاجتماعية الفطرية  
عند الحيوان

---



## التعريف بالزعات الاجتماعية الفطرية

عبد الحيوان

توصف الرعة بأنها ، اجتماعية ، إذا كانت تتصل في صورة ما بالحياة في جمعة ، إما لأن الفضل في نشأتها الأولى يرجع إلى هذه الحياة ، وإما لأن وطيقتها تتصل بإجابة من نواحي التنسيق الحمى أو بقاء المجتمع أو النوع ، سواء اتصلت بمجتمع صيق كمجتمع الآباء وأولادهم ، أم بمجتمع أوسع من ذلك كمجتمع القطيع .

وتوصفت الرعة بأنها ، فطرية ، إذا تأصلت في النوع حتى أصبحت تنتقل بطريق الوراثة من الأصول إلى الفروع ، ولو كانت مكتسبة في نشأتها الأولى (١).

وقد تستبدل أحيانا كلمة «العيرية» ، altruiste بكلمة الاجتماعية ويقصد بهذا الوصف أن موضوع الرعة وعائتها لا يتصلان بدات الكائن المدبسة به ، وإنما يتصلان بكائن آخر أو بكائنات أخرى غيره . وتقابل الرعات الغيرية بهذا المعنى ما يسمونه بالرعات الذاتية أو الأنانية egoistes ، وهي التي تتصل في موضوعها وعائتها بدات الكائن المدبسة به — ووصف الزعات التي هي موضوع حديثنا بكلمة «العيرية» ، بهذا المدلول أدق وأشمل من وصفها بكلمة الاجتماعية ، وأكثر منه انطابقا على المعنى الذي قصده — ولكننا مع ذلك

(١) لأن الرعة قد تكون مكتسبة في نشأتها الأولى ، ثم ترسخ في النوع فتصبح فطرية ، أي تنتقل بطريق الوراثة من الأصول إلى الفروع . — انظر في ذلك كتابنا في «الوراثة والبيئة» ص ٤٢ — ٤٨ .

أثرنا هذه الكلمة الأخيرة في عنوان هذه الخاتمة لكثرة تداولها على الألسنة .  
ولعراة الكلمة الأولى .

وقد تستبدل أحيانا كلمة « العريضة » بكلمة « المطرية » . ولكننا أثّرنا  
استخدام هذه الكلمة الأخيرة ، لأن كلمة « العريضة » لا تزال غامضة مبهمه ، ولأن  
الخلافا لا يزال كبيرا بين الباحثين في تحديد مدلولها وتفسير ما تطلق عليه من  
بين أنواع الرعات المطرية ، ولأننا قد نعرض لبعض رعات «طرية» لا تسمى  
غراث في نظر بعض العلماء .

ومع أن الإنسان لا يدايه أى حيوان آخر في نوعاته الاجتماعية وفي دقتها  
وتشعبها ، فإن ما هو «طري» عند الإنسان من هذه الرعات ، بالمعنى الذى ذكرناه  
لكلمة «طري» ، ليس شيئا مذكورا إذا فليس بنطاقه عند الحيوان . ويرجع  
السبب في ذلك إلى كثرة ما يتأثر الإنسان من تطاور وإلى اختلاف شتونه  
باحتلاف المجتمعات ، وإلى تدخل العقل والإدارة في معظم أعماله ومآله  
ما يعتمد منها على «طرية» والوراثة .

وسنقتصر في هذه الخاتمة على عرض أربعة عشر مثالا من أعرب هذه  
الرعات عند الحيوان .

## - ٢ -

### زعة التجمع أو التكتل أو الحياة في جماعة أو مصيع

رود هذه الزعة في صودة «طرية» عدة فصائل من الحيوانات والحشرات  
والطيور منها الفردة والقبيلة والذئاب والأبقار والأعنام والطيء والعنصر  
والنحل والنمل والنعام والجمع والدجاج والخام والسمان وعدة أنواع من  
العصافير والجراد .

وفي بعض هذه الطوائف يشتد التكتل في فصول خاصة من السنة أو في مناسبات معينة ، وخاصة في مناسبات الهجرة من مكان إلى مكان .

فقطعان الجاموس الوحشي Le bison في أمريكا كان يشتد تكتلها قبيل الشتاء حينما كانت تندفع لطلب الكلا مهاجرة صوب الجنوب . حتى لقد كان بعض قطعانها في هذه المناسبات يصل عدد أفرادها إلى عدة ملايين ، وحتى إن قطيعا واحدا منها قد شغل في أثناء هجرته مساحة عرضها ستون ألف متر وبلغ طوله أن أنعامه ظلت تدافع بعضها إثر بعض في سير سريع مطرد مدة خمسة أيام متواليات (١) . وقد ظل هذا الحيوان على هذه الوفرة وعلى هذا النمط من التكتل حتى أواخر القرن التاسع عشر . فقد روى أحد من جاسوا خلال هذه القارة من ثقات الرحالة أنه قد مر في سنة ١٨٧١ بقطيع من هذا الجاموس يبلغ طوله زهاء خمسة وخمسين ألف متر (٢) .

ويلاحظ هذا التكتل الشديد كذلك في فصائل الطيور المهاجرة في مواسم هجرتها من منصفه إلى منطقة كفصائل الممان وأبي قصادة التي تهاجر إلى مصر في أواخر الخريف وأوائل الشتاء ؛ وبلغ أقصى شدته في فصائل الجراد في مواسم هجرتها حتى لينألف منها سحب متحركة تحجب السماء وصوت الشمس في مساحة واسعة من الأرض .

وقد نجم عن هذه الرعة واتصل بها نزعات أخرى كثيرة أصبح بعضها فطريا ينتقل بطريق الوراثة من السلف إلى الخلف . بينما لا يزال بعضها الآخر إراديا يخضع للتواضع والاصطلاح .

من ذلك نوعة توزيع العمل في المجتمع الحيواني وتقسيمه إلى طوائف تقوم كل طائفة منها بعمل خاص تقوم عليه حياة الجماعة أو مقام

(١) اطرس ٦١ وواسها

(٢) اطرس كتابها عن هجرة وحوشها صفحات ٩٩ — ١٠٠ . وفي هذه الصفحات

كذلك بيان للأسباب التي أدت إلى انقراض هذا الحيوان من هذه القارة

نوعها أو استقرار نظامها كما هو الشأن في طوائف النحل والنمل وما إليهما .  
ومن ذلك أيضا التفرع إلى نظام حكومي أو إلى الخضوع لرئيس أو رؤساء  
كما هو الشأن في طوائف النحل والنمل والقرودة والأبقار والأغنام والجاموس  
الوحشي والأوعال والغنم والدجاج .  
ومن ذلك أيضا الاصطلاح على أدائه إرادية للتفاهم بها بين أفراد المجتمع .  
ولشدة غرابية هذه الرعة عند الحيوان منفرد لها أربع فقرات على حدة .

### — ٣ —

#### التفاهم بالإشارة عند الحيوان

ندور هذه الرعة هي الأخص لدى فصائل النحل والنمل والقرودة والأبقار  
والأغنام والوعول فقد ثبت أن كثيرا من الفصائل تستخدم ، في صورة  
مقصودة متواضع عليها ، ببعض إشارات جسمية للتعبير بها عن بعض شئونها .  
فمثل الأوعال ( الأبل ) يستخدم في أثناء قيادة قطيعه بعض إشارات رأسه  
وقروبه للوقوف فيقف جميع أفراد القطيع ، وبعض إشارات للسير فيسير جميع  
أفراد القطيع ، ويسنحت المتحدات بأن يسطح كلا منهما بطحا خميفا وتستخدم  
كذلك فصائل القردة ، وبخاصة الفصائل العليا منها ( الغوريلا ، الشمبزيه ،  
البجبيون ، الأوراع — أوتانج ) ، وفصائل النحل والنمل بعض إشارات من هذا  
النوع . فقد كشف العلامة كوهلر Kohler عند فصائل القردة العليا عن ظواهر  
كثيرة من هذا النوع ، منها ما يستعمله الشمبزية حينما يريد أن يرافقه آخر  
في طريقه ، أو يرعب في أن يعطيه أحد زملائه شيئا مما في يده ، أو يناديه عن  
بعد . فإنه في الحالة الأولى يحتك به بخفة ويحده من ذراعه محذرا فيه ومتقدما  
بعض خطوات في الطريق التي يود أن يسلكها معا ؛ وفي الحالة الثانية يمد يده  
إلى زميله مد الاستجداء ؛ وفي الحالة الثالثة يمد يده ويقبض كفه ويبسطها كما



نعمل نحن في مثل هذه المناسبة (١) . وقرر الأساتذة كيربي وسبنسر وبورميستر وهوير وفرانكلين Kirby Spencer, Burmeister, Huber, Francolin أن كثيرا من طوائف النحل والنمل يستخدم أفرادها بعضها مع بعض إشارات مقصودة للتعبير بها عن بعض شئونها ، وأن هذه الإشارات تتشبه في احتكاك بعض أعضائها المتكلم أو أطرافه أو ذؤاباته بجزء من جسم المحاطب بطريقة خاصة وقام العلامة لوبوك Lubbock بطائفه كثيرة من التجارب في هذا الصدد فبين له صدق ما ذهب إليه هؤلاء الباحثون (٢) .

وقد نشر الأستاذ أ. أل. ديثو ، في مجلة « ميثمر بحارين » ، مقالا تحت عنوان « لغة الحيوان في ألعاب » ، يتضمن حالات كثيرة من هذا النوع . وفيما يلي بعض مقتطفات من هذا المقال الطريف (٣) .

(١) Kähler L'Intelligence des Singes Supérieurs. اطرا  
p. 264 et su v

(٢) V Ribot - L'Evolution des Idee Générales p. 66, 67.  
Lubbock: Ants, Bees, and wasps; Romances : Animal Intelligence  
وأظهر تفصيل التعبير عند الحيوان في كتابه « بشأن لغة عبد الإنسان والفضل » .  
هذا ، وقد أذكر بعض العلماء وجود الإشارات ذات الدلالة المقصودة عند الحيوان  
ومن هؤلاء العلماء وارسمان Wasman الذي يرى أن كل الإشارات الحيوانية : « بحيل  
للإنسان أنها من هذا النوع هي في الحقيقة فطرية » ، وأنها لا تدل للحمار على شيء معين بل  
تقتصر على إثارة نشاطه في ناحية يحددها العمل الذي سينتقل إليه ، « وهذه في هذا العلامة  
دولا كروا : »

W sman Die Psychischen Fähigkeiten der Ameisen, p. 86;  
Delacroix : Le Langage et la Pensée p. 77.

(٣) « ملاحظ على » « المختار » الصادرة في شهر أكتوبر سنة ١٩٤٧ ، وقد تضمنت  
هذه المجلة للمقال المشار إليه

وإذا وجدت النحلة العاملة رهرة خافتة بالرحيق ، عادت طائرة إلى الخلية ،  
ثم تشرع ترقص محومة في الفضاء رفصا غريبا حاصا يدل دلالة واضحة على معنى  
رسالتها المستعجلة فيهم سائر النحل خوى هذا لعمل ، فإذا به ينضم إليها  
واحدة في إثر واحدة ، ثم لا يلبث الخى أن يسدفع كله قاصدا ينبوع هذا  
الرحيق - وإذا أراد الخجل أن يندر فومه بالخطر طار مسرعا مسافة قصيرة  
متقلا من شجرة إلى شجرة ، وهو يصفق بجناحيه تصفيقا شديدا . - وأتى  
الديبة إذا أرادت أن تسرع إليها ولدها نادلا من أعلى شجرة نلقها ضربت  
بكمها حرج الشجرة - وأتى الضياء إذا أرادت أن تقول لحشها « ابعثني » ،  
شالت مدبها الكك مرة واحدة حتى يرى بياضه الناطر . - ومن أعجب أساليب  
الحيوان هو أسلوب الحديث بين الطائر الذي يسمى « الهادي إلى العسل »  
والحيوان المعروف باسم « أو كعب » ، أو آكل العسل . وهذا الطائر يحب  
أكل رفات النحل حين يكون كاللدود ، وآكل العسل مهوم بحب لعسل .  
والطائر الهادي إلى العسل لا قبل له بالتحلب على جماعات النحل الساحطة ؛ أما آكل  
العسل فهو قصير الجناحين ، فلا يستطيع أن يقطع المسافات لطويلة بحثا عن حلايا  
النحل . فرى الهادي أن العسل يطير مطوفا في أنحاء الغابة باحثا عن شجرة فيها  
حبه نحل ؛ ثم يند مسرعا إلى القاع لصابر فيحوم فوق رأسه ، وهو يقول  
به بصوت رفيع عال : « شر ، شر » . ويداف آكل العسل متشاهل الخطو على اثر  
الطائر المعروف بجناحيه . ولما كان هذا الحيوان في وقاء من جلده الكشيف  
أشعر فلا بصره لسع النحل ؛ فهو يهجم على الخلية ويمزقها إربا إربا . ثم يجتمع  
هو والقدتر على المائدة الشبية . - ونحل الشجر في المناطق الاستوائية يتكلم  
فيتمن كلامه من شجرة إلى شجرة ؛ وذلك بأن يذق دقا شديدا على لحاء الشجر  
وورده ، حتى يسمع له صوت كأنه إنهمار وذاذ من مطر . - أما اسراب  
لهيلة فلا تكلم خصة عن عصفمة تسمع من حديث أو إشارة ؛ وهي مع أداتها  
لإشارة « لآدان والخراطيم » .

## التفاهم بالرائحة عند الحيوان

هذا وقد كشف بعض الباحثين أنواعاً أخرى عربية من التفاهم بين الحيوان .

فن ذلك ما يمكن تسميته التفاهم بالرائحة . وقد ذكر علماء الحيوان أن الذئب إذا زاد طعامه عن حاجته دس جزءاً منه في التراب وحلف هناك شيئاً من رائحته علقاً بالمسكان ، فيعهم سائر الذئاب لحوى رسالته حق الفهم . والذئب يعصح عن نفسه مرة أخرى بأن يحف رائحته حيث يريد فتعهمها الذئاب أجود الفهم ، كما يعهم الرحالة من الناس إذا قرأ مذكرات كتبها رجل سبقه إلى هذه الرحلة . والذئاب والثعالب ، وهي في الحقيقة من فصيلة الكلاب ، تعيش في غائلات بعد أرخصه أرضاً فحسب ، بل هي أرض مفعمة بالرائحة المعسيرة ويقول الأستاذ ف . نايتدجك المولندي الذي تولى التحارب الشهيرة في دراسة مصيبة الكلاب : إن الكلب مشغول أبداً بحديث لا ينقطع بينه وبين سائر الكلاب التي في ناحيته عن طريق الشم (١) .

## التفاهم بين الحيوان بدون صوت ولا رائحة ولا إشارة

وأغرب أنواع التفاهم بين الحيوان هو ما يكون بغير صوت ولا رائحة ولا إشارة ولا أية حركة أخرى . وفي هذا النوع يقول الأستاذ ألن ديفو . وقد ذهب

بعض علماء الحيوان إلى أنه صرب من الاستشفاف ونباتي، وذهب آخرون إلى أنه ليس إلا ضرباً من الحواس الطبيعية التي بلغ لظنها مبلغاً تعجز عن إدراكه حواس الإنسان. ويكر آخرون ذلك كله إنكاراً باتاً. وأستطيع أنا أن أروي غير منجيز إلى فته خير مرتين عندي هما، سيم، و، سام، بينهما علاقة لا تنقسم من الأخوة والود. وهما لا يحملان أو يمتزجان إلا في شيء واحد فإن، سيم، يحب الخروج إلى الصيد. أما، سام، فيحب الكسل، فيقضي الساعات قابعاً في البيت. ولكن بعد الشقة بينهما حين يفرقان لا يجمع فيما يظن أن يظل بينهما صرب من التعام والاتصال. فقد يخرج، سيم، أحياناً يتصيد، فيعيب نصف يوم، وإذا بي أرى، سام، يهب من مصجعه على مكثي يقظان فرعاً، ويرفع أذنيه مثلها ويميل برأسه كالنمست المصمى؛ وما هو إلا أن يهدو نحو الباب. فإذا فتحت له الباب انطلق كأنه سهم مقدوف إلى الحفول تارة وإلى العاية تارة أخرى. ولو بدا لي أن أخرج في إثره لما حامرتي ريب فيما سوف أجده. فهذا الصياد، سيم، قد ولي وجهه شطر البيت ومعه صيد صاده لساعته، فعرف، سام، خبر صاحبه. وإن كنت لا أدري كيف عرف. قد تقول إنه عجب لا يصدق! نعم ربما كان كما تقول! ولكن ما أكثر ما نجهل بما يدور في طوايا حواس الحيوان وهوسها، حتى نلزي أن أكثر العلماء علماً ونجربة لا يصرار العنيد على إنكار اللغة الصامتة التي يفهم بها حيوان الغاب، أيا كانت طبيعته تلك اللغة، (١)

ومن هذا النوع كذلك ما دونه الأستاذ آلن ديقو عن الثعالب إذ يقول. وقفت مستتراً بعد الشجر أرقب ثلاثة من صفار الثعالب تلعب، وأمن على باب الوجار تتبعهم البصر راصية مطمئنة، فإذا بصغير من الثلاثة يهدو موعلاً في المرج، وكان أصغر من أن يباح له أن يخرج وحيداً يطوف في أرجاء هذا

(١) انظر مجلة المختار عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ من ٤٨.

العالم . فاستوت الأم قائمة ، وسددت أنفها إلى الناحية التي ذهب فيها ، وبقيت على هذه الهيئة ساكنة صامتة لا تزحزح ، ولم يند عنها صوت يسمع ، ولكن لم ألبث فيلًا حتى رأيت الصغير عائدًا أدراجة ، فتلقت بئمة وبسرة ، ثم سدد بصره إلى أمه ، فلم تحول بصرها عنه ، وإذا بالصغير يسرع إلى وجاره كأنما كانت تجذبه بخيط لا تراه العين (١) .

— ٦ —

### الاصوات عند الحيوان

يرجع أهم ما يلفظه الحيوان من الأصوات إلى ثلاث طوائف :

(الطائفة الأولى) أصوات فطرية الأصل يستعملها الحيوان قاصدا بها التعبير عن بعض شئونه : كالحمة التي يرددها الهرس بشكل إرادي عند رؤيته صاحبه للتعبير عن حاجته إلى العلف ، والمواء الذي ينجأ إليه الهر أيدى به عن جوعه ، والنباح الذي يلفظه الكلب قاصدا به إيقاظ أهل المنزل وإرشادهم إلى أن شخصا يحوم حول البيت ... وهلم جرا .

وهذه الطائفة ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شيء ، وأن اشبهتها في ظاهرها ووظيفتها وذلك أنها أصوات مبهمّة عارية عن المقاطع والسمكات وغير متميزة العناصر ومن أهم خصائص الكلام كما لا يخفى اشتغالها على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها من بعض . هذا إلى أنها في الأصل أصوات فطرية تصحب الانفعالات ، وأن كل ما يعمل به الحيوان حيالها في هذه الحالة أن يرددها هي نفسها بشكل إرادي للدلالة على الانفعالات نفسها التي تعبر عنها في شكلها الفطري أو للدلالة على أمور انفعالية قريبة منها ( الجوع ، العطش ، الخوف ... الخ ) .

(١) انظر مجلة المحار عدد أكتوبر سنة ١٩١٢ ص ٤٥ .

وأصوات هذا شأنها لا يصح عدّها كلاماً ؛ لأن أهم خصائص الكلام أنه أصوات موضوعه للدلالة وأنه يعبر به عن معان لا عن انفعالات (١) .

( الطائفة الثانية ) أصوات متنوعة تلمعها القردة في اجتماعاتها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها وسائل تعبير إرادية ، وأن أفراد القردة تتجاذب بها الحديث بعضها مع بعض . — وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح في الفصائل العليا من القردة وبخاصة « الچيون » (٢) .

وهذه الطائفة كذلك ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شيء وإن أشبهتها في ظاهرها ومناسبات استخدامها . فقد ظهر بالبحث فيها أن بعضها تعبير طبيعي عن الانفعال ، وبعضها مجرد ترديد إرادي لهذا التعبير (٣) وبعضها من ظواهر التداعي الآلي (٤) أو المدوي الصوتية (٥) أو تقليد الحيوان بطريقة فطرية

(١) يبدو كذلك هذا النوع من الأصوات عند الطفل الإنساني في شهوره الأولى . وقد يلجأ الكبار أنفسهم أحياناً هذا النوع من التعبير فيصيحون مثلاً متصحين الصعك للتعبير عن السرور

(٢) ولهذه الأمور وما شاكلها ذهب من العلماء إلى أن القردة لغة تتألف من اثنين وثلاث كلمات . ويذهب الدكتور إرنر هرينهول المدير العام لمخبرات الحيوان في ديترويت إلى أن الحيوانات الوحيدة التي تصدر عنها أصوات تشبه اللغة هي الشمبانزي ، انظر جريدة الاهرام في عددها الصادر يوم ١٢/٨/١٩٤٨ ) .

(٣) أي من الأصوات التي سبق ذكرها في الطائفة الأولى .

(٤) وذلك أن برتعداً الصوت يعني آخر طريقة محتملة يظهر بشكل غير إرادي كلما ظهر هذا الشيء . وسبب أن ذلك تنفصل في الطائفة الثالثة .

(٥) تبدو ظاهرة المدوي الصوتية عند كثير من أنواع الحيوانات ، وتبدو كذلك عند الأطفال إذا صدمهم مكان واحد ؛ يصوت الوليد منهم فيثير صوته أصوات الآخرين ، ويكي أحدكم فيكي لسكانه الباقون ( انظر تفصيل هذا بكتاتبي « في التربية » الطبعة الثانية ص ٧٠ ونواصها ) .



غير إدارى لأصوات نفسه أو أصوات غيره (١) . — هذا إلى أنها ، على الرغم من تشابه أعضاء النطق عند فصائل القرود وأعضاء النطق الإنسانية ، أصوات مبهمه بسيطة عارية عن المقاطع والكلات وغير متميزة العناصر . ومن أهم خصائص الكلام اشتغاله على مقاطع وكلات وتميز عناصره بعضها عن بعض (٢) .

(الطائفة الثالثة) أصوات مركبة ذات مقاطع تلفظها بعض الطيور كالبيغا وما إليها من المصائل التي امتازت أعضاء صوتها بخصائص طبيعية يتبع لها إخراج هذا النوع .

وهذه الطائفة كذلك ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شيء وإن أشبهتها في الظاهر . وذلك أن الطائر لا يقصد بهذه الأصوات التعبير . فهي تصدر عنه في ثلاث حالات كلها فطرية آلية عارية تماما عن هذا القصد .

(الحالة الأولى) حينما يكون الطائر متلبسا بأفعال جسمي أو نفسي . وهي في هذه الحالة من نوع التعبير الطبيعي عن الأفعالات : تصدر عن غير قصد ، وبشرها بشكل إلى الأفعال المتلبس به الطائر . وإثارتها مؤسسة على الروابط الطبيعية الفطرية التي تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والعنس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك وحدها بشكل آلي أو منعكس وتلفظ أصواتا مركبة ذات مقاطع

#### (١) سيأتي شرح هذا في الطائفة الخامسة .

(٢) انظر في هذا الموضوع بحوث الأستاذ Prungst الذي درس أكثر من مائتي فرد في حديقة الحيوان بباريس ، وبحوث Bouton الذي لاحظ في أثناء خمس سنوات نحو فرد من فصيلة الحيتون ، وبحوث كوهلر الذي كتب كثيرا في القرود وخاصة القرود العليا التي ألف فيها كتابه الشهير « دكاء القرود العليا » ، وانظر كذلك ما كتبه أستاذي العلامة دولا كروا بهذا الصدد في كتابه « اللغة والتفكير » ص ٧٧ وتوابعها .

عند وجود حالة من الحالات الجسمية أو النفسية المرتبطة بها . فهي حينئذ من قبيل الضحك والبكاء وما إليها من مظاهر التعبير الطبيعي السمعي ، وكل ما هنالك أن التعبير الطبيعي السمعي يبدو عند الحيوانات الأخرى في صورة أصوات بسيطة مبهمه ، ويبدو عند هذه الطيور أحيانا في صورة أصوات مركبة ذات مقاطع .

(والحالة الثانية) حينئذ تكون محاكاة لصوت إنسان سمعه الطائر . وهي في هذه الحالة كذلك تصدر بشكل آلي عار عن قصد التعبير بل عن قصد المحاكاة نفسها .

وذلك أن هذه العصائل مزودة بروابط طبيعية تربط جهاز سمعها بجهاز صوتها بطريقة تجعل أعضاء الجهاز التالي تتحرك أحيانا وحدها وتنعط لتشكل آلي الأصوات نفسها التي يحسها الجهاز الأول . فكلما وصل صوت إلى سمعها في ظروف خاصة انبثقت صداه من أفواهها (١) .

(والحالة الثالثة) قد تسمع الببغاء أحيانا كلمات أو أصواتا في مناسبة ما فتكررها كلما حدثت هذه المناسبة أو مناسبة أخرى تشبهها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها تقصد بها التعبير عن أمر معين . فقد تسمع مثلا أصحانها ينادون طفلا باسمه ، فتكرر هذا الاسم كما رأيت الطفل أو رأيت دميته أو متاعا من أمتعته (٢) .

وهذه الأصوات كذلك ليست من اللغة في شيء وإن التبتت بها في مادي النظر . وذلك أن الطائر لا يقصد بها ، في الواقع ، التعبير عن أمر ما ، وإنما تصدر منه بشكل غير إرادي على الصورة التي تصدر فيها ظواهر النداء الآلي .

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع في : « في التربية » لطبعة الثانية ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) من أهم المصادر بهذا المبدأ : دكتور ولسكس عضو الجمعية الملكية

بصحيفة العلوم العقلية عدد يولية سنة ١٨٧٩ :

من كثرة تكرار الكلمة أمام الطائر بحضرة الشخص أو الشيء الذي تدل عليه  
ترتبط صوته بصورة مدلولها ، فينبعث الصوت من الطائر بشكل آلي كلما طهر أمامه  
المدلول أو ما يتصل به (١) .

## — V —

### زعة الاسترقاق أو الاستعباد أو تسخير الغير

زود بهذه الزعة كثير من فصائل الحيوان والحشرات ؛ ونبدو أوضح  
ما يكور في بعض فصائل النمل ؛ وخاصة في فصيلة منها تسمى « الفورميكا روفيسنس »  
*Formica Rufescens* التي تستعبد فصيلة أخرى من النمل تسمى  
« الفورميكا فوسكا » *Formica Fusca* .

فكل قرية من قرى « الفورميكا روفيسنس » تنظم طائفتين من النمل :  
إحداهما طائفة الأسبياد وتتألف من فصيلة « الفورميكا روفيسنس » نفسها ؛  
وثانيها طائفة الأنواع أو الرقيق أو العبيد وتنحدر من فصيلة « الفورميكا فوسكا » .  
وتختلف أفراد كلا الفصيلتين عن أفراد الفصيلة الأخرى اختلافا غير يسير في لونها  
وحجمها وحركتها واستعدادها ومبلغ نشاطها وما تقوم به من أعمال وتؤديه  
من وظائف .

أما طائفة الأسبياد ( الفورميكا روفيسنس ) فتتقسم ثلاثة أقسام : الإناث

(١) انظر في هذا الموضوع كتابي «أنتدز رومان : «الفكاه الحيوان» و «الارتقاء»  
المعل بلالان» — واهر بحثا لها لعدد لابلان و سكس في المجلة لعلمه فانس ١٨٨٠  
*Revue Philosophique* . — واهر كذلك ما كتبه أستاذي دولا كروان كتابه  
«الفئة والفكر» ص ٧٨ .

المنتجات ؛ والدكور ؛ والإناث العقيمات المقاتلات . ولكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة عمل لا يتعداه . فعمل الإناث المنتجات مقصور على نلق الفلاح ووضع البيض ، وعمل الذكور مقصور على تلقيح الإناث المنتجات ؛ وعمل الإناث العقيمات مقصور على الغزو والسلب . وذلك بأن تغير ، كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، على قرية من قرى ، الفورميكاوسكا ، ( طائفة الرقيق ) ونسلبها ما نعتز عليه في جنبايتها من بيض وتحمله إلى أبحارها .

وأما طائفة الرقيق ( الفورميكاوسكا ) فهي تناج هذا البيض بعد أن ينفق في قرى الأسباد ( الفورميكا روفيسنس ) . ويصاب أفراد هذه الطائفة بالمعم إذا نشأت في قرى أسبادها ؛ مع أنها في قرىها الأصلية تتوافر لها أسباب التناسل ، فتتظم ذكورا مخصصة وإناث منتجات . ويقوم أفراد هذه الطائفة وحدها في قرى أسبادها بمختلف الأعمال الضرورية للقرى نفسها ولما تشتمل عليه من حشرات وبيض وديدان تقوم وحدها بحمل الأبحار وبها ، الخلايا التي يوضع فيها البيض ، وحراسة القرية والدود عنها ، وتعهدها ببيضه الإناث المنتجات ، وتربية ما ينقف من صفار ، وجلب الغذاء وادخاره ، وإطعام أسبادها الكبار بوضع القوت في أفواهها وإذا دعت الحاجة إلى تغيير القرية لعدم صلاحيتها للسكنى على أثر حادث طبيعي أو مقصود ، فإن طائفة الرقيق هي التي تقوم وحدها بتسليم القرية الجديدة وتنظيم مآزله وحمل أبحارها ونقل أسبادها إليها ؛ فيحمل كل رقيق في حمله سيدا من أسباده ويمدو به إلى القرية الجديدة ويضعه في موضع يشبه الموضع الذي كان به في القرية القديمة ، ويعود مرة ثانية ليحمل سيدا آخر .. وهكذا دواليك .

وقد لاحظ العلامة بيير هويز P. Huber ، الذي يرجع له العصر في الكشف عن هذه النزعة عند هذه المصائل ، أنه لو تجردت قرية من قرى الفورميكا روفيسنس من رقيقها لعفت القرية وفنى جميع ما فيها في زمن وجيز . وثبت

لديه ذلك من تجربة أجراها على قرية من هذه القرى ، بأن اقتزع منها جميع ما كان بها من رقيق . فعلى الرغم من أن هذه القرية كانت تشتمل على كمية كبيرة من القوت المدخر ، ومن أن وجود هذا القوت كان من شأنه أن يثير عريضة طلب الغذاء وخاصة في حالة اشتداد الجوع ، فإن طائفة الأسياد التي كانت بالقرية لم تستطع إطعام نفسها بنفسها . مات أكثرها جوعاً والقوت بين يديها وعلى الرغم من أن القرية كانت تشتمل على كمية كبيرة من بيض الدجاج وديدانه الصغيرة ، ومن أن وجود هذا البيض وهذه الديدان من شأنه أن يثير عاطفة الآبوة لدى الكبار ، فإن هذه لم تقم نحو بيضها وديدانها بعمل ما حتى نفق معظمها وأشرف ما عدا ذلك على الهلاك .

وحينئذ يادر الأسناذ بير هويزر بإدخال رقيق واحد من الطائفة التي كان قد اقتزعها من القرية . فطلق هذا الرقيق من دوره بعمل على تنظيم القرية وإسعاد ما بقى فيها من أسياده على قيد الحياة . لحمل القوت للكبار ، وأحد يضعه في أفواهها ، ونعمه البيض والديدان ، وحمل إليها ما كان يعورها ، وشرع في بناء الخلايا وإصلاح ما تهدم منها وما هي إلا لحظات حتى دبت الحياة في القرية ، وعاد كل شيء فيها سيرته الأولى بعصل عدا الرقيق (١) .

(١) انظر في هذه التربة وما يتصل بها :

P. Heber - Mœurs des Fourmis 194—230.

Bühner : la Vie psychique des Bêtes 199—255.

Letourneau - L'Évolution de l'Esclavage 8—21.

Darwin, L'Origine des Espèces ( trad. fr ) Paris 1921.

p. p. 290—295.

— ٨ —

### نزعة الخضوع للغير

وهي النزعة المعاملة للنزعة السابقة . وتمثل في استعداد فطري يهيئ الحيوان للحضوع لغيره وخدمته وقضاء حاجياته . وقد تولد هذا الاستعداد ورسخت بجدوره شيئا فشيئا مع تقادم الزمن حتى أصبح فطريا عند معظم الحيوانات التي امتثلها الإنسان وسخرها في قضا حاجاته ، وعلى الأخص عند فصيلة الكلب . وتتوافر كذلك هذه النزعة عند بعض الحيوانات غير المستأنسة وعند بعض فصائل الحشرات . وقد ظهر مما قلناه في النزعة السابقة ( نزعة الاسترقاق ) أن نزعة الخضوع للغير التي تتكلم عليها قد بلغت أقصى ما يمكن أن تصل إليه نزعة فطرية في دفتها وحسن أدائها لوظيفتها عند فصيلة النمل المسماة « لعمورميكا فورمكا » التي تستعبد لها فصيلة « لعمورميكا روبيدانس » .

— ٩ —

### نزعة إيواء الغير وإضافته

تتفق هذه النزعة مع النزعة الثانية ( نزعة الاسترقاق ) في أن كليهما تقتضي أن ننقل فصيلة حيوانية إلى حيث نقيم فصيلة أخرى أجنبية عنها فتستقر لديها ونقاسمها في صورة ما شئت من حياتها . ونختلفان في أن أولاهما تجعل من أفراد الفصيلة الدخيلة عبيدا تسخر في قضا حاجات الفصيلة الأصلية ؛ على حين أن الأخرى تجعل من أفراد الفصيلة الدخيلة صيوفا ونزلاء مكرم الفصيلة الأصلية وفادتها وتقدم لها ما تحتاج إليه ، وتؤثرها أحيانا على نفسها .



وقد زود هذه النزعة عدة طوائف من الحشرات ، وخاصة بعض طوائف من النمل والنحل والبعوض .

فقد لاحظ العلامة وازمان Wasmann أن بعض طوائف النمل تأوى لديها بعض حشرات طفيلية لا تمت بصلة إلى فصائل النمل على الإطلاق ، فيقدم إليها النمل جميع ما تحتاج إليه في غذائها ومقومات حياتها ، وأن بعض هذه الحشرات لا يقنع بما يقدمه لها كإكرام النمل من غذاء ، بل يسطو على صماره ويهترسها ، فلا تكاد تحل في قرية حتى ينقرص أهلها ويشيع فيها الخراب والدمار .

ولاحظ العلامة بيير هوبير P. Huber أن بعض طوائف البعوض Puceron تجذب إليها أصنافا من النمل الطفيلي وتعرض له من جسمها سائلا يتعدى به . فيحيط بكل بعوضة منها نملة أو نملة تحجز البعوضة بأبر حراطينها فتعصر لها سائلا مكربا تعتمد عليه في غذائها . وأن هذا البعوض لا يفرز سائله هذا إلا لهذه الفصائل بالذات . وثبت لديه ذلك من تجربة أجراها على هذا البعوض . فقد عمد إلى نحو اثنتي عشرة بعوضة منه وأبعد عنها ما كان يحيط بها من النمل ، وعمل على ألا تلتصق منها نملة ما طوال مدة التجربة التي استغرقت عدة ساعات . فاقطع إفراز البعوض انقطاعا تاما بعد إبعاد النمل عنه . وعيشا حاول هوبير أن يشير لإفرازها بوسيلة صناعية إذ استخدم شعرة دقيقة وأحد يداعب بها بطونها على نحو ما يفعله معها النمل مستعينا بمجهر مكبر ، فإن البعوض لم يستجب لوسيلته هذه وظل منقطعا عن الإفراز عدة ساعات . وحينئذ أطلق عليه نملة واحدة من النمل الذي كان قد انتزعه من حوته ، فقطعت هذه النملة تحجز البعوض بإبرتها ، وما هي إلا لحظة يسيرة حتى أخذ البعوض يفرز سائله السكري ، وأخذت النملة الجائعة تمتص هذا السائل بنهم شديد (١) .

ولاحظ الأستاذ ريموند ديمارز أن يرقات الخنفساء المعروفة بالحرقة لائتبط

أن تنقب عن بيضها الموضوع بين أوراق الأغصان حتى تعتمد إلى جذع شجرة وتنسلقه إلى أن تلغ زهرتها ، وتظل تترقب مقدم النحل إلى هذه الزهرة ، حتى إذا جاء النحل ركبت ظهرها ، فتحميها النحل إلى خلاياها وتؤويها في مساكنها ، فتظل هناك في رعايتها وصيافتها تغذى ببيضها حتى تنسحب من إهاب البرقة الأولى ، ثم تبقى لتعدي بعمل النحل حتى تاتي صدفتها ، ثم تخرج ساعية إلى رزقها ، وهي حينئذ حنساء قد بلغت أشدها (١) .

### نوعة التطفل والاعتماد على الغير

وهذه النوعة تقابل النوعة السابقة ( نوعة إيواء الغير وإضافته ) ، وتعتمد في الغالب عند الطوائف المزودة بها على وجود النوعة السابقة عند طوائف أخرى . وقد زود بزعة للتطفل هذه عدة طوائف من الحشرات ، وخاصة الطوائف الثلاث المتقدم ذكرها في النوعة السابقة .

وزود بها كذلك بعض طوائف من الطيور التي تصنع بيضها في أعشاش غيرها وتحور بذلك من عبء حضانتها وتربية صغارها (٢) .

ومن أشهر هذه الطيور ما يسميه الفرنسيون الكوكو الأوربي *Coucou* ( نوع من الكروان ) . فهذا الطائر لا يبني لنفسه عشا ، ولا يحاول أن يحصن بيضه ، وإنما يعتمد إنشاء إلى عش طائر آخر فنيصر فيه بيضة وإلى عش آخر فتضع فيه بيضة أخرى ، وهكذا حتى تفرغ ما في عنقودها في بيضة أيام . وبذلك تتحرر من تكاليف حضانة بيضها وتربية صغارها وتبقى بماء ذلك كله على كاهل الطيور التي باضت في أعشاشها على غير علم منها ( وهذه الطيور ليست

(١) مجلة الحمار عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ . ملخصا عن مجلة التاريخ الطبيعي الأمريكية .

(٢) انظر أمثلة لذلك في Darwin, O., cit., 285—290

مروده بنزعة إيواء الغير المتقدم ذكرها . بل تقدم على ذلك على جهل منها بأن ما تؤويه غريب عنها . وتؤدى له ما تؤديه من حضانة وتغذية ورعاية على أنه من أفرانها هي . - ولهذا النزعة الغريبة عند هذا الطائر وظائف حيوية هامة : فمن ذلك أنها تمكن أنثى الكوكو من معادزة الإقليم الذى باضت فيه كلما دعته إلى ذلك حالة الجو ومقتضيات حياتها وعدائها وعريضة المهاجرة المزودة بها . ولو أنها كانت تحضن بيضها وتقوم بتربية صغارها بنفسها لعافها ذلك أحيانا عن هجرتها ، وخاصة لأنها تصعب بيصها في أيام متفرقة ، وهذا يطيل من مدة الحضانة والتربية ويضطرها إلى أن تبقى حيث هي أمدا طويلا . ومن ذلك أيضا أن هذه النزعة تتيح لكل فرح من أفرانها عدا . كافي . إذ يستأثر بجميع الأعداء التى يجدها الطائر الذى أضافه في عشه على جهل منه . وذلك أنه لا يلبث أن يقف عن بيصته حتى تبدو لديه نزعة عريية للتخلص من أفران الطائر الأصيل وإجلائها عن العش ، فيدهمها بظفره دفعا عينا حتى يقذف بها إلى الأرض حيث تموت جوعا . ويستبد هو بالعش . ويختص لعدائه ورعايته هو وحده جميع جهود الطائر الكبير . ولو هامت الأم نفسها بتربية أفرانها هذه ما أتبعها هذا القدر من العناء ، ولقضى بعضها على بعض لنزعة التدافع المرودة بها من جهة ولا اختلافها من جهة أخرى بعضها عن بعض في الحجم وفي القوة تبعاً لاختلافها في السن . لأن بيصها لا يوضع في يوم واحد . بل في عدة أيام كما تقدم ذلك (١) .

### النزعة الجنسية

وتتمثل في ميل طيرى يدفع دكور الحيوانات وإناثها في فصول معينة ن

(١) انظر في هذه المسألة 285—288 Darwin, op. cit.

السنة أو تحت تأثير حالات جسمية ونفسية خاصة إلى التصاهر في صورة ما على القيام بعمليات التلقيح والإخصاب وما يتصل بها من أمور تكشف تناسل النوع وتجدهد ونقاه .

وتختلف الوسائل العظمية التي تلجأ إليها فصائل الحيوانات في هذا السبيل اختلافا كبيرا ، ولكنها ترجع جميعا إلى طريقتين : طريقة التلقيح داخل الجسم ؛ وطريقة التلقيح خارجه .

( أ ) عند جميع الحيوانات العليا والطيور وكثير من الحشرات تتم عملية التلقيح داخل الجسم ويكون ذلك باستخدام أعضاء خاصة على النحو المتبع عند الإنسان . — وعند بعض فصائل الحشرات وغيرها تتم عملية التلقيح داخل الجسم كذلك ، ولكن باستخدام أعضاء غير خاصة بهذه الوظيفة . ففي فصيلة العناكب مثلا يستخدم الذكر أطرافه الأمامية في إيصال السائل المنوي إلى داخل جسم الأنثى مع احتفاظه بهذه الأطراف . وفي فصيلة الأخطبوط يستخدم الذكر أحد أطرافه الأمامية كذلك ، ولكن هذا الطرف يتفصل عن جسمه ويبقى بجسم الأنثى . وقد تتم عملية التلقيح داخل الجسم كذلك ، ولكن بدون اتصال الذكر بالأنثى اتصالا مباشرا . ففي بعض الأصناف يبقى الذكر بالسائل المنوي في الماء فتحملة التيارات المائية إلى داخل جسم الأنثى .

( ب ) وعند كثير من الحيوانات المائية الدنيا يتم التلقيح خارج الجسم . ففي كثير من فصائل الأصناف يبقى الذكر سائلا المنوي والأنثى بويضاتها في الماء فإذا انعق مرور نيار مائي يحمل سائل الذكر إلى بويضات الأنثى تم التلقيح . وفي الأسماك تتخذ كل من لذكور والإناث احتياطات فطرية لضمان التلقيح خارج الجسم . فتغوص الأنثى إلى قاع المجرى وتحمرفيه حفرة تضع فيها بويضها وتندفع الذكور وراءها بفريزتها متقاتلة متنافسة ، فإذا فرغت الأنثى من عملها تداهمت الذكور نحو الحفرة لتصب سائلها المنوي على ما تحتويه من بيض . وتبالغ الضفادع كذلك بفطرتها فيما تتخذه من حيلة في هذا السبيل . ففي موسم

القاح تنتقل الأمي من مخبئها المتوى إلى البرك ، فإذا لقيها ذكر أم أطرافه الأمامية حولها وقبض عليها قبضا عنيقا ، وظل قاضا عليها حتى تاتي بيضها في الماء فيصب عليه سائله المتوى ، وقد بطل قاضا عليها هذه الغاية أياما بل أسابيع . ويلاحظ أن أطرافه الأمامية تنمو في هذا الفصل في صورة تزيدها قوة وتمكنها من أداء هذه الوظيفة على أكمل وجه .

- ١٢ -

### زعة تعهد البيض وحضاته

زود بهذه الزعة المطرية كثير من فصائل الطيور والحيوانات والحشرات والرواحف غير أن هذه الفصائل يختلف بعضها عن بعض احتلافا غير يسير في المناهج التي تسلكها في هذا التعهد وفي هذه الحضانة .

ففي بعض الفصائل تدور هذه الزعة لدى الإناث وحدها ، فتقوم هي دون الذكور بجمع أعباء الحضانة ، كما هو متبع عند فصائل الدجاج المستأنس وبسائر عني هذا المنهج من غير الطيور فصائل أخرى كثيرة من أعرسها في هذا الصدد المنكبات وفعد اللى ، أما المنكبات فتحمل بيضها في حقيبة من خيوطها تنسجها نفسها ، فإذا دنا افلاق البيض عن صمارها مزقت الأم هذه الحقيبة ، فينبعث منها الصمار . وأما فعدائل الذي يعيش في أسيراليا فهو حيوان من دوات الأربعة له شوك كأشواك الشيم ولسان كلسان آكل النمل ومنقار كمنقار البط . وتضع أنثاه بيضة أو بيضتين عليهما غشاء كالجلد الرقيق وتحملهما في جرابها ، فإذا انفقت البيضة عن الجنين الصغير الميم الشكل الأمرط الذي لا شعر عليه أوضعتة من لبنها (١) . — ومن أم الرواحف التي تحض أنثاها بيضها التي

(١) ريموند دغار . المصنوعة المتعار عدد ديسمبر سنة ١٩١٦ ص ٥١ ، ٥٢ .

(مختصا من مجلة التاريخ الطبيعي الأمريكية) .

البرى أو البيشون Python ، وهو تنين غير سام يصل طوله أحيانا إلى نحو ثمانية أمتار . — وفي بعض فصائل السمك تخضع الإناث بيضاها في أفواهها حتى ينفلق عنها الصغار (١) . — وفي كثير من الفصائل التي تسير على هذه الطريقة يقوم الذكر في أثناء حضانه الأم للبيض بحراسة العش أو بتغذية الأنثى أو بأمور أخرى من هذا القبيل . ومن طريق الأمثلة لهذا النوع ما تسير عليه صيور الفصيلة المسماة بـ بوقير ، فأنتى هذا الطائر تلتصق لوضع بيضاها نفرة في جذع شجرة ، ويأتى الذكر بعد أن تستقر أثناء هذه النفرة وتأخذ في وضع بيضاها فيها فيطوى جوانبها بالطير حتى لا يدع من هم النفرة إلا كوة ضيقة تسع لإخراج عنق الحبيسة حتى يجلب إليها موائها وطعامها في أثناء حضانتها لبيضاها (٢) .

وفي بعض الفصائل تبدو هذه النزعة لدى الذكور وحدها كما هو متبع لدى فصيلة النعام إذا تجتمع طائفة من إناثه في مكان وتبيض كل منها بيضة فيه ، ثم تنتقل إلى مكان آخر وتبيض فيه عتمة كذلك ، وهكذا تفرع ما في عناقيدها من بيض ، ثم تأتي الذكور فتوزع على هذه المواضع وتقوم بحضانه ما فيها من بيض وكذلك تفعل أنثى الحجل في عانه الأملبكية ، إذ تلقى بيضاها ثم تطير عنه وتدعه للذكر بتولى حضانه نحو ستة وخمسين يوما ، ثم تعود إلى ذكرها وهو قائم على عهد صغاره التي لا يكون معها قدا كتمل بعد فتلقى إليه بيضا آخر ، وتضطره بذلك إلى أن يوزع جهوده بين حضانه البيض الجديد ورعاية الصغار (٣) . وفي بعض فصائل الأسماك تضع الأنثى بيضاها ثم تنقله إلى جراب في طن الذكر ، فيبطل في حضانه الذكر على هذه الصورة حتى يفقس (٤) .

وفي معظم أنواع الطيور تبدو هذه النزعة عند الذكور والإناث معا ؛ فيقوم

(١) المرجع السابق ص ٥١

(٢) المرجع السابق ص ٥١ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٥٠ .



المذكر بحضانة البيض في بعض ساعات من اليوم ، وتقوم الأنثى بحضانه فيما عدا ذلك . وذلك هو المتبع لدى كثير من طوائف الحمام والعصافير . والعالب أن تحضن الأنثى بيضها في جميع ساعات الليل ويقوم الذكر بحراسة العش في أثناء حضانتها هذه ، ثم يتقاسمان الحضانه فيما بينهما في ساعات النهار .

وفي بعض الأنواع تتعاون أفراد العصيلة جميعا على حفظ البيض ورعايته وحضانهه ، وفي بعضها يقع هذا العبء ، على كاهل فريق معين منها يتعاون أفرادها فيما بينهم على القيام به ، كما هو الشأن في عمال النحل والذبل ومن أغرب الطرق التي يتم فيها هذا التعاون بين أفراد العصيلة ما يسير عليه في هذا الصدد طائر البطريق الذي يعيش في المنطقة المتجمدة الجنوبية . فلما كانت هذه المنطقة خالية من كل ما يصلح لبناء عش ، فإن أنثى هذا الطائر ، التي تضع عادة بيضة واحدة ، تحمل بيضتها في إحدى قائمتيها وتطوى عليها قبضتها ، فتعتنق بذلك البيضة من أن تتجمد . فإذا خرجت تشمس قوتها واقتضاما ذلك أن تبسط قبضتها وتضع البيضة ، فإن آداب طيور البطريق تفرص على أحدها أن يأخذ هذه البيضة ويضعها ، إلى أن يضطر هو بدوره إلى الخروج في طلب الرزق فيسلبها الآخر ، وهكذا ترى بيوت طيور البطريق أمانه متداولة بينهم جميعا ذكورا وإناثا (١) .

هذا وقد جردت هذه النزعة فصائل من الحيوانات منها فصيلة الحيوانات التي تعيش في البر والبحر معا كالأصفاذع والعلاجيم والسمنديل ؛ فهذه العصيلة تضع إناثها عددا كبيرا من البيض ، ولكنها تهمل إهمالا فلا ينفق منه إلا القليل (٢) .

(١) المرجع السابق ص ٥٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٥١ .

### زعة التفريخ الصناعي

تعتمد بعض الطيور والرواحف والأسماك إلى طرق صناعية تعميقها من حضنة بيضها وتوفر لها الدفء والحرارة وتكفل تفريخه .

ومن أشهر الطيور المزودة بهذه الزعة ما يسميه الفرنسيون بالـ Talégaill وهو طائر يقطن أستراليا وغينيا الجديدة ، وبشمه ما يسميه بالديك الرومي . وذلك أن أنثى هذا الطائر تقيم عشها في مساحة واسعة وتجمع فيه كمية كبيرة من أوراق الشجر والعبدان والأعشاب اليابسة ، وتضع هذه الأصمات بعضها فوق بعض ، فلا يحس موعد بيضها حتى يبلغ حجم عشها عدة أمتار مكعبة . وفي وسط هذه الكومة تضع بيضها فاركه للعوامل الطبيعية شأن تفريخه ، ولذا كره وحده أمر العناية بما ينطف عنه من أفراس . فيتولد من تعرض هذه المواد لاشعة الشمس درجة حرارة تحيط بالبيض وتكفل نفسه .

وكذلك يفعل النمساح الأمريكي إذ يتخذ من القش والأعواد وكرا كبيرا يصنع فيه بيضه ويتركه حتى ينفك عن صفاره بعد نحو شهرين من جلاء الحرارة التي يولدها تحلل هذه الأعواد (١) .

### زعة تعهد الصفار وتربيتها والقيام على شؤونها

تختلف أعباء هذه الزعة تبعا للحالة التي يكون عليها الصفار عقب ولادتها أو عقب خروجها من بيضها ، فتشدد أعباؤها وتكثر تكاليفها كلما كانت

(١) المرجع السابق ص ٥١ .

الصغار حينئذ ضعيفة أو عاجزة عن الحركة أو عبر مكتملة الحواس أو الأعضاء أو الأجهزة ، أو غير قادرة على البحث عن غذائها أو على تناوله بنفسها ، أو لا تقوى أجهزتها على تناول العدا. العادى لفصيلتها بل تحتاج إلى غذاء خاص أو إلى ألبان أمهاتها أو إلى طعام مهضوم في جوف كبارها . وهم جرا وتخف أعبائها وتقل تكاليفها إذا نشأت الصغار قوية قادرة على الحركة مكتملة الحواس والأجهزة قادرة على البحث عن غذائها وتناوله بنفسها ؛ فلتسهيل النزعة في هذه الحالة إلى مجرد تعهد ورعاية كما هو الشأن في صغار الدجاج والبط والإوز .

وتختلف مدتها كذلك باختلاف أمد الطعونة والعمر التي نزل الصغار في أثناءها غير قادرة على القيام بنفسها عما تحتاج إليه . فقد تصل إلى عدة سنين كما هو الشأن في فصيلة الفيلة التي لا ينظم صغارها إلا بعد السنة الثالثة أو الرابعة ولا تستغنى عن رعاية الكبار لها إلا بعد عدة سنين أخرى . وقد لا تتجاوز هذه المدة بضعة أسابيع أو أيام كما هو الشأن في صغار الحمام والدجاج والوبر (١) .

وترجع أهم أعبائها إلى إطعام الصغار أو إرضاعها أو جلب العدا. لها أو مساعدتها على البحث عنه ، وإلى تدفيتها ، وتنظيفها ، وحمايتها من الاعتداء ، ومساعدتها على التحرك والانتقال أو حملها في أثناء انتقال الكبار كما هو الشأن في كثير من الفصائل الحيوانية والطيور وخاصة لدى القرود والحيوانات ذوات الجراب والخفافيش . في فصيلة القرود تنتقل الأم وصغيرها مثبت بطورها أو بطنها أو رقبتها . والحيوانات ذوات الجراب كالقنغر والابوم الأمريكى تحمل صغارها في جرابها وتنقل بها . فأثنى القنغر Kangaroo ظل حاملة صغارها في جرابها مدة طويلة لإعماؤها من الحركة من جهة ولحمايتها من جهة أخرى . ولذلك لا يلبث صغيرها أن يحس أى خطر حتى يقفز مندهما كالهم إلى جراب

(١) يسكون الماء ، وهو حيوان كالأرنب الهذى لا يعصى أسدوع على ولادته حتى يبلغ ربع أمه في الحسم ويكاد ينفى عنها ( المرجع السابق ص ٤٨ ) .  
(م — ١١ قراتب النظم والتقاليد والمادات — ج ٢ )

أمه (١) . وأما الأبسوم الأمريكى فتضع أنثاه فى البطن الواحدة اثنى عشر صغيراً لا يتجاوز حجمها جميعاً تحويص ملتقة . وتظل حاملة لها فى جرابها حتى تقوى على الحركة وتستعنى عن حاية أمها (٢) . وأنثى الخفاش (وهى من ذوات الثدي القادر على الطيران) من أشد الحيوانات رعاية لصغارها . ولذلك تضم أجنحتها على فلتات أكادها عند أقل ما يروعا ، وكثيراً ما تحملها وتطير بها ليلاً فى مساحها . وقد ترى الواحدة منها محلفة فى الجو ، وقد تعلق بها أربعة من صغارها يبلغ مجموع وزنها ما يقرب من وزن الأم نفسها (٣) . وبعض أنواع الحفافيش لا تلد أنثاهما أكثر من ولد واحد . ومن ذلك ما يسمى مصاص الدماء الذى يعيش فى خط الاستواء والوطاويط الضخمة التى تقطن أمريكا الجنوبية . وفى هذه الأنواع كثيراً ما يرى الوليد متعلقاً بصدر أمه حين يكون صغيراً . فإذا كبر رأبته متعلقاً بجنبها قريباً من جناحها لكي يحميها عند المخافة . (٤)

وهو رود هذه النزعة الأم وحدها فى بعض طوائف الحيوانات كالأنعام المستأنسة والقطط والكلاب ، والآب وحده فى طوائف أخرى كالنعام والحجل والتاليجان ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فى النزعتين السابقتين (٥) ، والآب والأم معاً فى كثير من المصائل كالأسد والمصافير والجام ، وغير الآب والأم فى بعض فصائل الحشرات ، كما هو الشأن فى فصائل الحبل والفم . وفى فصائل النحل مثلاً تقوم عقبات الإناث (طوائف العاملات) وحدها بتربية الصغار مدفوعة إلى ذلك بنزعة فطرية ، بينما لا تقوم الأم نفسها (اليعسوب) بشئ ما حيال صغارها ؛ وأما الآباء التى تتألف من ذكور الحبل المحبسة فتفتتها عقبات الإناث بمجرد

Larousse du XX<sup>em</sup> Siecle (Kanehourou). (١)

(٢) ويخونند دغارز ، المرجع السابق ص ٤٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٩

(٤) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٥) انظر صفحات ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠

أن يتم تلفسها لليحسوب . وقد رأينا أنه في بعض قرى جبل يقوم الرقيق ،  
الذى تنأف من نمل عقيم ينحدر من فصيلة أخرى تختلف عن الفصيلة التى يخدمها  
بترية صفار أسيادها وتوفر ما تحتاج إليه مدفوعة إلى ذلك بمطرتها ، بينما لا يقوم  
الآباء ولا الأمهات بشئ ما حيال صفارها ، بل لا تقوم بشئ ما حيال  
أنفسها (١) .

هذا ، ولأهمية هذه النزعة وتوقف بقاء الأنواع عليها لا نكاد نخلو منها فصيلة  
من فصائل الحيوان ،

### نزعة ادحار الأعذية لحاجة الصفار أو الكار أو لكليهما معا

تبدو هذه النزعة عند بعض فصائل الدئاب والثعالب والسنابير إذ تدحر  
ما يزيد عن حاجتها من اللحوم في فترة تحمرها وتعطيها بالتراب ؛ وعند فصيلة  
السنجاب التى تدحر فى الأشجار نقوبا تدحر فيها مدة فصل الصيف ما يموزها  
الحصول عليه من غذائها في فصل الشتاء من المواءة والحبوب ؛ وعند طوائف  
البجع التى تدحر بقربتها التى تتصل بالشق الأسفل من منقارها ما يبيض عن حاجتها  
الزاهنة بما تصيده من السمك وما عسى أن تحتاج إليه في المستقبل لغذائها وغذاء  
أفراخها .

ولكن أهم مظاهر هذه النزعة وأدقها وأشدّها طرافة تبدو عند طوائف  
الحشرات وخاصة عند النمل ونحل العسل والإكسيلوكوب والسفمكس  
أما النمل فقد أصبحت هذه النزعة لديه مضرب الأمثال ، فهو لا ينفك

دائما في طلب الرزق ، وتوجه معظم جهوده إلى الادخار ، فيجمع في أجهارده  
في بعض الفصول الخصة من السنة ما عسى أن يحتاج إليه كبارها وصغارها من الغذاء .  
في الفصول المجدية أو التي لا يفوى في أنائها على بدل مجهود كبير .

وأما النحل فتقوم إنائه العقيبات ( طوائف الماملات ) ببناء أفراس عجبية  
من الشمع وتحتزن فيها من العسل في الفصول التي تفرز فيها الأزهار ما تحتاج إليه  
الخلية لغذاء كبارها وصغارها في الفصول الأخرى .

وأما الإكسيلوكوب Xylcope ( وهي فصيلة من الحبل تعيش فرادى  
لا جماعات ) فتبدو هذه الزرعة عند إنائها . حينئذ تشعرا الأثني بدنو وصح البصر  
تعمد إلى خشبة يانسة فتحفر فيها ثقبا مستعرضا واسعا وتدخر في جره منه كمية  
من الأزهار التي يتألف منها غذاء صغارها ، ويضع على الأزهار بيضة . ثم نصب  
على الدقيق الذي أخرجته من الخشبة في أثناء ثقبا لها كمية من سائل نفرزه وتخطط  
الدقيق بهذا السائل فيتألف منهما عجينة تبنى بها كرة رقيقة جوفاء . تحيط بالبيضة  
وبما تحتها من الأزهار ، وتكرر أعمالها هذه مع كل بيضة من بيضاتها الثلاث ؛  
ثم تغادر الثقب لا تلوى على شيء مما فيها ؛ ولا تعيش بعد ذلك إلا لحظات .  
فاذا خرج صغارها من بيضها وجد كل منها في كونه كمية من الأزهار الصالحة  
لغذائه ، فيعيش عليها حتى يبلغ أشده ، ويشقب الكرة المحيطة به ، ويسل  
منها إلى حيث يكدرج في سبيل الحياة (١) .

وأما فصيلة السفكس sphex ( وهو نوع من الرنابير يتغذى كبارها بالنبات  
وصغارها بلحوم بعض الحشرات الحية الطارجه ) فقد بلغت هذه الفرعة لدى إنائها  
شأوا كبيرا في دقتها وما تقتضيه من حذق ومهارة . حينئذ تشعرا أثني السفكس  
بدنو موعد بيضها تحفر في الأرض الرملية شقا ، ثم تقيم على جوانبه عدة عروق ،

(١) يرجع الفصل في الكشف عن أعمال هذه الحشرات وتوصيحتها إلى العلامة ميلن



وتضع بيضة في كل غرفة منها ، ثم تصيد حشرة من الحشرات التي تنفدى بها صغار فصلياتها وتضعها في غرفة من هذه الغرف . ثم تجرى عليها عملية جراحية دقيقة تشل بها حركتها حتى لا تستطيع معادرة الغرفة التي وضعت فيها بدون أن تميتها حتى لا تنفص فتصبح غير صالحة لعداء صغارها ، وذلك بأن تحز الحشرة بإبرتها تسع وخزات متواليات في مرا كزها العصبية وتندق رأسها دقا جميعاً وير فكها وقد ثبت بالتجارب أن أقل من تسع وخزات لا يكفي لشل الحشرة ومنعها من الهرب وأن أكثر منها يقضي على حياتها ، وثبت أن كذلك أن وخزها في غير الموطن التي تحزها فيها لا يحقق الغرض المقصود . وتكرر أعمالها هذه في جميع الغرف التي أقامتها على جانب الشق . حينئذ ينقب صغارها عن بيضها يجد كل منها في غرفته حشرة حية طارئة صالحة لعدائه فيعيش عليها حتى يبلغ أشده وينفاد شقه . ويرجع الفضل إلى العلامة هنري فابر H. Fabre في الكشف عن هذه النزعة عند السفكس وتفصيل أعمالها (١) .

وقد أصبح لي أن ألاحظ بنفسى أعمال نوع من هذه الحشرات في مصر في يوم ٢٧/٨/٨ رأيت واحدة منها تحوم حول ثقب من الثوب إلى تسوى في أعلى الحوائط لتجميع أسلاك الكهرباء ، وبالتأمل في هذا الثقب بحث فيه خلايا من طير فصعدت على سطح وزعت هذه الخلايا ، فإذا بها تألف من غرفتين إحداهما مسدودة بالطير والأخرى لم تسد بعد . فأرلت سدار أولاهما بدوس صغير . فوجدت بها نحو عشر حشرات صغيرة ومتوسطة معطما من فصيلة المناكب ، ووجدت جميع هذه الحشرات حية ولكن لا تستطيع الحركة .

Henri Fabre Souvenirs en omologues, Rolstat . (١)  
Psychologie, p. 481 : Darwin, op. cit. 290.

ووجدت بينها دودة صغيرة ظهر لى من اختبارها أنها قادرة على الحركة ومن شكل جسمها أنها من صفار الزاير لا العناكب . ثم أفرغت مائى الغرفة الثانية فإذا به يتألف من حشرات يقل عددها عن حشرات الغرفة الأولى ( لأن هذه الغرفة لم تكن قد ملئت بعد ) ، ووجدت بينها بيضة طويلة صفراء . — ومن هذا يظهر أن النوع الذى لاحظته ، هنرى فابر ، يختلف قليلا فى أعماله عن النوع الذى لاحظته .

\* \* \*

وإن تأملا فى هذه الفرعات الغريبة وماشاكلها ليفسر لنا بعض ما أشار إليه القرآن الكريم فى عبارة موجرة بليغة إذ يقول : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » (١) ، ، وإذ يقول : « ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (٢) ، ؛ صدق الله العظيم .

(١) آية ٣٨ من سورة الأنعام .

(٢) وردت هذه العبارة على لسان موسى فى أثناء حوارهِ هو وأخيه هرون مع فرعون : « قال من ربكما يا موسى ؟ قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ( آبق ٤٩ ؛ ٥٠ من سورة طه ) .

## أهم مراجع الخاتمة

- 1 — Bühner : La Vie Psychique des Bêtes.
- 2 — Darwin : L'Origine des Espèce.
- 3 — Delacroix : Le Langage et la Pensée.
- 4 — Damas et Collaborateurs : Traité de Psychologie.
- 5 — Esqinas : Des Sociétés animales.
- 6 — Fabre (Henri) : Souvenirs entomologiques.
- 7 — Huber (P.) : Mœurs des Fourmis.
- 8 — Kohler : L'Intelligence des Singes Supérieurs.
- 9 — Larousse du XXe siècle.
- 10 — Letourneau : L'Evolution de l'Esclavage.
- 11 — Lubbock : Ants, Bees, and Wasps.
- 12 — Ribot : L'Evolution des Idées Générales.
- 13 — Romanes : Animal Intelligence.
- 14 — Roustant : Psychologie.
- 15 — مجلة المختار عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ ( فصل حيوانه ولادة الحيوان وأولاده ،  
مختصر من مجلة « التاريخ الطبيعي » للأستاذ ريموند دغار .
- 16 — هل عبد الواحد والى : نشأة الأمة عند الإنسان والطفل
- 17 — على عبد الواحد والى : الأمة والمجتمع
- 18 — على عبد الواحد والى : الوراثة والبيئة
- 19 — على عبد الواحد والى : المهنود الحر



## فهرس

المصنف

الموضوع

- الباب الخامس . من غرائب الانحراف في العرائز  
تحت تأثير المظم والتقاليد والعادات  
الفصل الأول : أكل لحوم البشر ( الانحراف  
في غريزة الغذاء )  
١ - مدى انتشار هذه العادة واختلاف  
مظاهرها وطرائقها باختلاف الشعوب  
٢ - أسباب هذه العادة وما ترمى إليه  
٣ - أكل لحوم البشر لا يستلزم التوحش  
ولا قسوة الطبع - إشراف هذه العادة  
على الانقراض  
أم مراجع هذا الفصل  
المصنف الثاني : انحراف الغريزة الجنسية  
١ - اختلاف مظاهر هذا الانحراف  
٢ - الانحراف الجنسي حيث تقره نظم الشعب  
وأخلاقه وعاداته  
٣ - الانحراف الجنسي حيث تحمله عادات الشعب  
وإن حاربه القوانين ونظم الأخلاق

الصفحة	الموضوع
٢٨ — ٣٦	٤ — الانحراف الجنسي حيث لا نقره العادات السائدة ولا القوانين ولا العرف الخلق
٣٦ — ٣٩	٥ — عوامل الانحراف الجنسي
٣٩	أم مراجع هذا الفصل
٤٠ — ٤٨	الفصل الثالث : الانتحار الذي توجبه العادات والتقاليد على طريقته ، الهارا كيري ، وما إليها
٤٠ — ٤١	١ — مظاهر هذا النوع من الانتحار في اليابان طريقة (الهارة كيري)
٤١ — ٤٢	٢ — مظاهر هذا النوع من الانتحار في الصين
٤٣ — ٤٥	٣ — مظاهر هذا النوع من الانتحار عند الهنود
٤٥ — ٤٦	٤ — مظاهر هذا النوع من الانتحار عند اليهود
٤٦ — ٤٧	٥ — مظاهر هذا النوع من الانتحار عند قدامى اليونان والرومان
٤٧ — ٤٨	٦ — مظاهر هذا النوع من الانتحار عند قدامى رجال الكنيسة المسيحية
٤٨	أم مراجع هذا الفصل
٤٩ — ٨١	الباب السادس : من غرائب التقاليد والعادات
٥١ — ٧٦	الفصل الأول : بعض مظاهر غريبة لمهارة البدائيين
٥٢ — ٦٥	١ — مظاهر غريبة من الصيد عند البدائيين



الموضوع	الصفحة
٢ — مظاهر غريبة من العروسية والقتال عند البدائيين	٦٥ — ٧٦
أهم مراجع الفصل	٧٦
الفصل الثاني : لغة الإشارة عند البدائيين	٧٧ — ٨١
أهم مراجع الفصل	٨١
الباب السابع . من غرائب نظم الأسرة	٨٣ — ١٣٤
الفصل الأول : نظم تعدد العزوبة في الزواج	٨٥ — ١٠١
١ — وحدة الزوجة مع تعدد الأزواج	٨٥ — ٩٣
٢ — تعدد الأزواج والزوجات معا	٩٤ — ٩٧
٣ — الشيوعية الجنسية	٩٧ — ١٠١
أهم مراجع الفصل	١٠١
الفصل الثاني البغاء المدني والبعاء المقدس	١٠٢ — ١١٧
١ — البغاء المدني	١٠٢ — ١٠٥
٢ — البغاء المقدس	١٠٥ — ١١٠
٢ — نفور المجتمعات من نظام البغاء على العموم	١١٠ — ١١٧
أهم مراجع الفصل	١١٧
الفصل الثالث . العزوبة التي يوحى بها نظام اجتماعي مقرر	١١٣ — ١٣٣
١ — العزوبة المفروضة على كافة الناس في حالات خاصة	١١٣ — ١١٧
٢ — العزوبة المفروضة على رجال الدين	١١٧ — ١٢٣
٣ — أسباب العزوبة المفروضة على رجال الدين	٢٢٣ — ١٢٨
٤ — العزوبة التي نمرسها بعض المذاهب الدينية على جميع معتقبيها	١٢٩ — ١٣٣
أهم مراجع الفصل	١٣٣

خاتمة في غرائب الزعات الاجتماعية المطرية عند الحيوان ١٣٥ — ١٦٨

١ — التعريف بالزعات الاجتماعية المطرية عند الحيوان ١٣٧ — ١٣٨

٢ — نزعة التجمع أو التكتل أو الحياة في جماعة أو قطيع ١٣٨ — ١٤٠

٣ — التفاهم بالإشارة عند الحيوان ١٤٠ — ١٤٢

٤ — التفاهم بالرأى عند الحيوان ١٤٣

٥ — التفاهم بين الحيوان بدون صوت ولا رائحة ولا إشارة ١٤٣ — ١٤٥

٦ — الأصوات عند الحيوان ١٤٥ — ١٤٩

٧ — نزعة الاسترقاق أو الاستعداد أو تحجير الغير ١٤٩ — ١٥١

٨ — نزعة الخضوع للغير ١٥٢

٩ — نزعة إيذاء الغير وإضافته ١٥٢ — ١٥٤

١٠ — نزعة التطفل والاعتماد على الغير ١٥٤ — ١٥٥

١١ — النزعة الجندسية ١٥٥ — ١٥٧

١٢ — نزعة تعبد البيض وحضانه ١٥٧ — ١٥٩

١٣ — نزعة التفرغ الصناعات ١٦٠

١٤ — نزعة تعبد الصغار وتربيتها والقيام على شئونها ١٦٠ — ١٦٣

١٥ — نزعة ادخار الأغذية لحاجة الصغار والكبار

أو كليهما ١٦٣ — ١٦٦

أهم مراجع الخاتمة ١٦٧

## مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية

بإشراف الأستاذ محمد الرسوفى

رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم

جامعة القاهرة

ظهر منها :

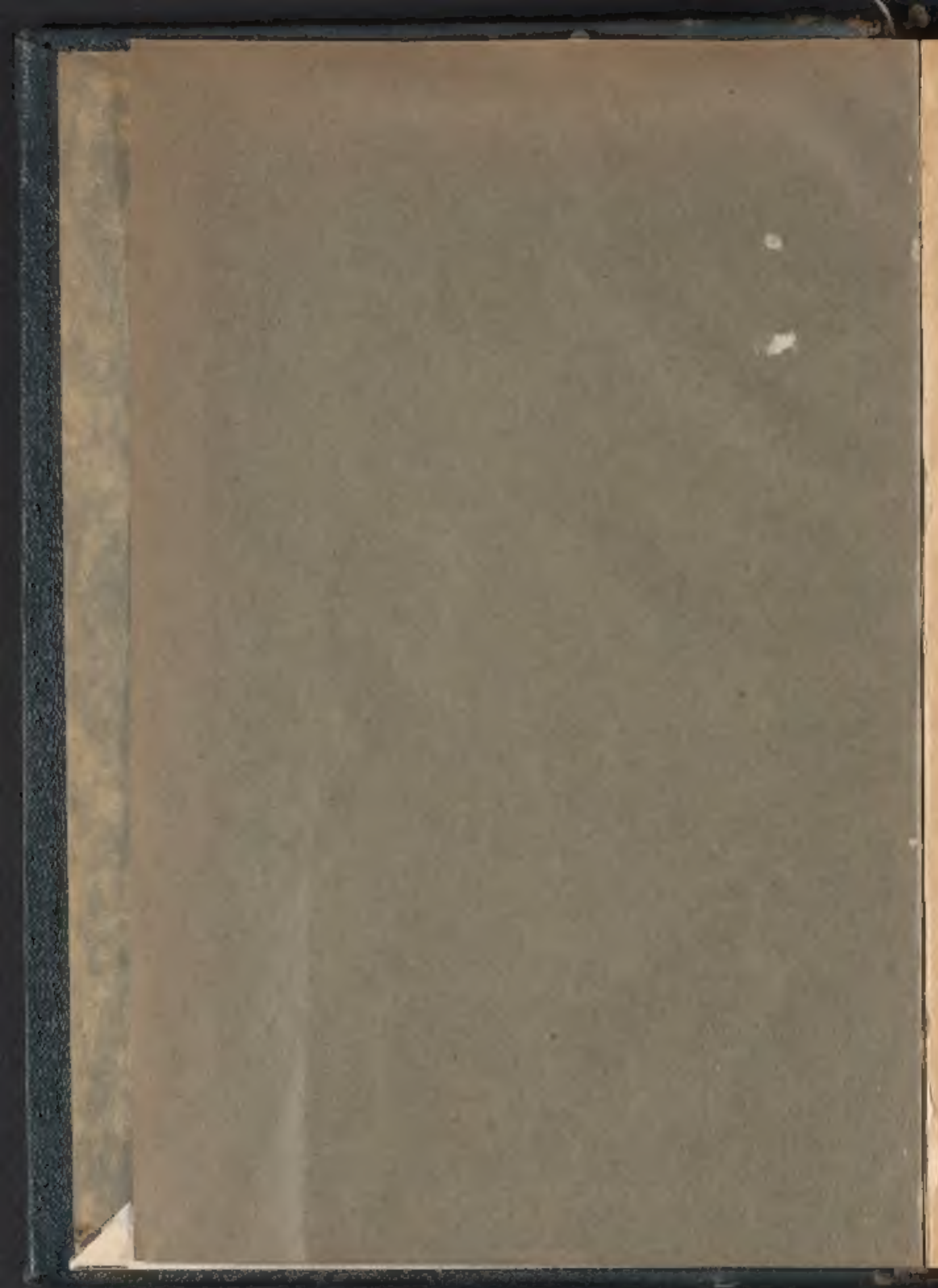
- ١ — ابن الأثير ومقاييسه النقدية :  
للدكتور دكتور سلام المدرس بجامعة الإسكندرية
- ٢ — الزمرد في الأدب العربي :  
للدكتور دكتور دوش الجندى المدرس بكلية دار العلوم جامعة القاهرة
- ٣ — كتب دورية في شتى فنون المعرفة صدر منها :  
١ — قصة الملكية في العالم : من سلسلة حياة المجتمعات تأليف الأستاذ الدكتور  
على عبد الواحد والى ، والدكتور حسن صفان .  
٢ — الرومانتيكية : من سلسلة المفاهيم الأدبية السكرى  
تأليف الدكتور محمد غنيمى حلال .  
٣ — زرادشت : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب  
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .  
٤ — كوثشورس : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب  
تأليف الدكتور حسن صفان .  
٥ — الفكاهة في أدب العرب ( جزآن ) : من سلسلة الأدب والدراسات  
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوى .  
٦ — قصة الرواح والعزوبة في العالم : من سلسلة حياة المجتمعات  
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد والى .  
٧ — تاريخ الفكر الاقتصادي : من سلسلة الاقتصاد السياسى  
تأليف الدكتور ليلى شقير .

- ٨ - بين اضمحلال الإلامة والذاتون الرومان : من سلسلة الدراسات الإسلامية  
تأليف الدكتور صوفى حنين أبو طالب .
- ٩ - ابن خلدون ، مدعى علم الاجتماع : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب  
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وائى
- ١٠ - ادراك الأدب : من سلسلة الأدب والعد  
تأليف الدكتور بدوى طنبه .
- ١١ - الحريات العامة بين المذهب الفردى والمذهب الاشتراكى : من سلسلة الاقتصاد والسياسة  
تأليف الأستاذ طهجة الجرف .
- ١٢ - أبو حيان التوحيدى : ( حران ) من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب  
تأليف الدكتور أحمد محمد الحرقى .
- ١٣ - هومبروس . من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب .  
أليف الدكتور محمد صقر حماده .
- ١٤ - حقوق الإنسان في الإسلام : من سلسلة الدراسات الإسلامية  
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وائى .
- ١٥ - تهذيب الحيوان للجاحظ ( الجزء الأول ) : من سلسلة الأدب والنقد .  
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون .
- ١٦ - بود : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب  
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .
- ١٧ - مونتسكيو : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب  
تأليف الدكتور حسن سفيان
- ١٨ - أبو حنيفة والقيم الإنسانية في مذهب : من سلسلة الدراسات الإسلامية  
تأليف الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى .
- ١٩ - مع الصحى المكابح : د أحمد حلقى . من سلسلة لاربعة  
تأليف الدكتور أحمد أحمد بدوى
- ٢٠ - تهذيب الحيوان للجاحظ ( الجزء الثانى ) : من سلسلة الأدب والنقد  
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون
- ٢١ - من قضايا الفقه والنحو : من سلسلة الأدب والنقد  
تأليف الأستاذ على البجدي قاصف .

- ٢٢ - الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط : من سلسلة التاريخية  
تأليف الدكتور إبراهيم أحمد المدنى .
- ٢٣ - النوق الأدبي : من سلسلة الأدب والنقد  
تأليف الدكتور علي محمد الحمدي .
- ٢٤ - نيتو ، حياته وسياسته : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب  
تأليف الأستاذ إبراهيم حسن خليل
- ٢٥ - مصر ، ورثي الإسلام : من سلسلة التاريخية  
تأليف الأستاذ علي آدم
- ٢٦ - أدباء الرومانتيكية العربية : من سلسلة القاد الأدبي  
تأليف الدكتور محمد علال
- ٢٧ - سماحة الإسلام : من سلسلة دراسات الإسلامية  
تأليف الدكتور أحمد محمد اعوان
- ٢٨ - عبد الله بن المقفع امداسي : من سلسلة الأدب والنقد .  
تأليف الدكتور محمد عبد العزيز الكهرأوى
- ٢٩ - أثر العلم في المجتمع : من سلسلة حياة المجتمعات .  
تأليف الدكتور تمام حسان
- ٣٠ - مشكلات المجتمع المصري وإمام امر وعلاجه في ضوء العلم والدين :  
من سلسلة حياة المجتمعات : تأليف الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وإي
- ٣١ - صور أدبه : من سلسلة القاد الأدبي  
تأليف الأستاذ علي آدم
- ٣٢ - رأى في أدبا المعاصر : من سلسلة الأدب والنقد  
تأليف الأستاذ محمد عطا
- ٣٣ - القرائي ولحات عن الحياة العسكرية الإسلامية : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب  
تأليف الدكتور يحيى الدين زيان .
- ٣٤ - غرائب العلم والتقاليد والعادات (الجزء الأول) : من سلسلة حياة المجتمعات .  
تأليف الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وإي
- ٣٥ - قادة التحرير العربي : من سلسلة التاريخية  
تأليف الدكتور إبراهيم أحمد المدنى
- ٣٦ - غرائب العلم والتقاليد والعادات (الجزء الثاني) : من سلسلة حياة المجتمعات  
تأليف الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وإي

مَطْبَعَةُ الرَّسَّالَةِ  
٣ شارع حنفوده - بغداد - عراقي





AUC - LIBRARY



DATE DUE

APR 1990

DEC 1990  
A.U.C

A.U.C

12 JUL 1985

3 SEP 1995

25 SEP 1990

CT  
99  
W3x  
v.2





